ترجمة : أحمد عزيز بيدانوق

إعداد :

برت شاواقار سطاس



www.Kavkaznews.net

رؤية روسية للإبادة الشركسية

ترجمة أحمد عزيز بيدانوق

خرافات وأساطير حول الحرب القفقاسية :

سأل الطلاب المسيح "قل لنا كيف ستكون نهايتنا؟ " أجاب المسيح " هل اكتشفتم البداية كي تبحثوا عن النهاية؟".

موضوع هذه المقالة هو السؤال الذي و إن لم يكن معترف به رسمياً و لكنه تمكن من كسب قلوب و تأييد مئات الآلاف من الناس كحد أدنى.

هو السؤال الذي كُتب عنه الكثير ولكنه يبقى كأحد اللطخات البيضاء الكبيرة في تاريخ العلاقات بين روسيا وشعوب شمالي القفقاس. إنه السؤال الذي تنظر من خلاله الشعوب الأديغية إلى الماضي والذي يعقدون آمالهم عليه لمستقبل أفضل.

الاعتراف بالإبادة الجماعية للشعوب الشركسية خلال الحرب القفقاسية:

إنه سؤال صعب لأنه في مثل هذه الحالات لا تكون ولا يمكن أن تكون هناك تفسيرات لا لبس فيها لأنها تخضع لنسبة عالية من المشاعر الشخصية ولأن عدداً كبيراً من المواطنين في بلدنا – أمة كاملة- تعتبره كشيء قريب جداً من القلب.

قبل المتابعة أريد أن أقول بأنه لا داع للبحث عن إهانات بحق الشعب الأديغي في هذه المقالة فهي ليست موجودة و لا يمكن أن توجد. إن الأديغة شعب رائع وذكي ومحب للعمل وطيب ومخلص وله الكثير من الإنجازات كما له مشاكله والذي يعتبر الكثير من الأديغة بأن حلها هو بالاعتراف بالإبادة الجماعية.

إن هدف هذا البحث هو محاولة لفهم الموضوع و إظهار المشكلة من جوانبها (المبدئية) والتي لا ينظر إليها حتى مؤرخي الأديغة أنفسهم و المنظمات الأديغية الاجتماعية. إنها جوانب في غاية الأهمية . هامة لدرجة أنه عندما نعتبرها في الحسبان فهي تغير وبشكل جذري المواقف وتسمح بالنظر إليها بشكل كامل لا يتجزأ عند جمعها مع الكثير من الحقائق و الإثباتات الأخرى وتسمح بتقييم مدى مطابقة هذا الاختيار مع الواقع ومع ما يسعى إليه الشعب الأديغي حسب رأيه.

تعود جذور مسألة الاعتراف بالإبادة الجماعية إلى القرن 19 عندما أتت روسيا إلى القفقاس الغربي واحتلت أجداد الأديغة الحاليين بعد حرب دامت 100 عام. وعندها بقي من الشراكسة الذين كان تعدادهم يفوق المليون 5 بالمائة منهم فقط, أما الباقي فقد مات في الحرب أو جراء الأوبئة والجوع أو هُجروا إلى تركيا وغيرها من البلاد الإسلامية. إنها تراجيديا عظيمة بالطبع وكيف يمكن تسميتها بغير ذلك عندما يموت أو يرحل 19 شخصاً من كل 20 شخصاً من السكان الأصليين لهذه المناطق؟ و نتيجة الحرب لم يتبق سوى ثلاثة قبائل أدي غية من أصل 12 قبيلة في أماكنها التاريخية والتقليدية وهم – القبرداي و البجدوغ و الشابسوغ. أما البقية فقد ذُبحوا أو أُرسلوا إلى تركيا أو هُجروا إلى السهول مع وضعهم " تحت المراقبة" من قبل القوزاق. ولاحقاً ومن خلال التفاعل مع روسيا ومن ثم مع الإدارات السوفيتية نشأت أمتان جديدتان – تشير كيسك و الأديغة .

أحفاد الشعب الذين لم يستوطنوا الأراضي من تامان إلى سوتشي أبداً قُسموا إلى أربع وحدات إقليمية – كاباردينا بلقاريا و قراشاي تشير كيسك و الأديغي و11 قرية شابسوغية في مناطق طوابسه و سوتشي التابعة لمنطقة كراسنودار.

و الآن وبالعودة إلى تلك الفترة الزمنية يسميها معظم الأديغة بالإبادة الجماعية. ويؤثر المؤرخون و النشطاء الاجتماعيون في القفقاس الغربي بشكل فعال على عقول وتطلعات الناس ويصفون معاناة الشعب المباد والمُهجر (وهذه حقيقة مطلقة) ويتكلمون عن محاولة الإمبراطورية الروسية ليس في احتلال القفقاس بقدر ما يتكلمون عن إبادة الشراكسة كشعب وتوزيع أراضيه لمستعمراتهم, ويهتفون قائلين: ولكن أليست هذه إبادة جماعية؟ إبادة جماعية أم ليست إبادة جماعية؟

وهنا يبدأ أغرب ما في الأمر ! إنهم و حسب رغبتهم يعتبرون سنوات طويلة من الحرب القفقاسية إبادة جماعية والنخبة الأديغية المعاصرة لا تثبت الإبادة الجماعية كواقع و لا تناقشها – بل تسميها فقط ! (إنها تعتبر الماضي كإبادة جماعية) وهي تنكش من جذور الحياة الاجتماعية والعلمية والتعليمية للجمهوريات الشمال قفقاسية الثلاثة كل وجهات النظر المعارضة لها وتغلق سبل الوصول إليها من قبل الناس بطرق إدارية وهي بهذا تنغلق بشكل أصم وتمتنع عن النقاشات الشعبية والمفتوحة مستخدمة مجموعة محدودة جداً من الحقائق بينما تغلق أعينها عن عالم هائل من الحقائق التاريخية وغيرها من الحقائق الموجودة تحت الأنظار مطالبة ب " اعتبروني، اعتبروني" إن ذلك يبدو سخيفاً .

والقول بأن " الإبادة الجماعية للشراكسة كانت عظيمة لدرجة لا مثيل لها في التاريخ العالمي" يبدو أن الطليعة الأديغية الجديدة وببساطة لا يقارنونها مع أية أحداث تماثلها في التاريخ كي يثبتوا هذه الحقيقة!

وبالتأكيد إن الحرب القفقاسية تندرج تحت تعريف الإبادة الجماعية المحدودة حسب تصنيفات هيئة الأمم المتحدة , فالنشطاء الاجتماعيين الأديغة وبشكل غريب للغاية لا يعتبرون ضرورياً شرح هذا المفهوم المعقد للناس أو إعطائهم أمثلة عن الممارسة القانونية على أوسع نطاق عالمي في هذه

المسألة وتحليل تطابقها مع الوضع الأديغي. وفي أحسن الأحوال يقومون بتعريف "عاري" للإبادة الجماعية ويهتفون " من الذي يستطيع أن يشك في إبادة الشعب الأديغي؟"

لماذا يحدث ذلك؟ ماذا يعني أن تخبرنا عن مدى قوة وصحة هذا الموقف؟ لا شيء حالياً ! تعالوا نفهم. دعونا نبدأ من الأساسيات – من التساؤل التالي : لماذا يقوم أبرز ممثلي العلوم الاجتماعية الأديغة وبالطبع الذين يقاتلون من أجل سعادة الشعب وبنفس الوقت يحرسونه بعناية – لماذا يبدؤون بالحديث عن مفهوم الإبادة الجماعية بحد ذاته – ماذا يشكل لهم ذلك, وماذا يرافقه وكيف وبأية حالات يتم الاعتراف به؟

الإبادة الجماعية

الإبادة الجماعية-إن هذا المصطلح قد ابتكره رافائيل ليمكين ذو الأصل البولوني اليهودي, وهو قد عمل بمسائل الجريمة ضد الجماعات القومية في عام 1930 استناداً على المذابح الأرمينية في تركيا ومذابح اليهود.

في بدايات 1940 هاجر ليمكين إلى أمريكا ويقال بأنه قد سمع في آب من عام 1941 خطاب رئيس الوزراء الإنكليزي ونستون تشرشل عبر الراديو الذي قال فيه: " إن الجرائم التي لم يُخترع لها اسم بعد تحصل أمام أعيننا" وهنا اقترح ليمكين مصطلح " الإبادة الجماعية". ولاقى هذا المصطلح انتشارا وتطوراً خلال سنوات الحرب حتى أنه مثبت في وثائق محاكم نيورنبرغ وهو يصف " الإبادة المتعمدة للجماعات العرقية أو الوطنية للسكان المدنيين في الأراضي المحتلة بهدف تدمير بعض الأعراق والطبقات والأمم والقوميات والجماعات العرقية والدينية".

ولكن مفهوم الإبادة الجماعية يأخذ انتشارا أوسع في الآونة الأخيرة . في عام 1948 تقر هيئة الأمم المتحدة اتفاقية " لمنع جرائم الإبادة الجماعية والمعاقبة عليها" ويدخل هذا المفهوم تدريجياً في ثقافتنا السياسية والتاريخية اليومية باعتباره واحداً من أخطر الجرائم التي يجب إن تُدان وأن يعاقب عليها.

الاتفاقية تعطي تعريفاً للإبادة الجماعية وتبقى سارية المفعول حتى يومنا هذا:

"يدخل في تعريف الإبادة الجماعية الأفعال التالية التي ترتكب بقصد التدمير الكلي أو الجزئي لجماعة قومية أو إثنية أو عرقية أو دينية:

- قتل أعضاء من هذه الجماعة.
- إلحاق ضرر جسدي أو عقلي جسيم لأفراد هذه الجماعة.
- إلحاق الأضرار بالظروف المعيشية للمجموعة بقصد إهلاكها الكلي أو الجزئي.
- فرض إجراءات تحول دون إنجاب الأطفال داخل الجماعة.
- نقل الأطفال قسراً من جماعة إلى أخرى.

إن أردنـا تقـسيم تعريـف الإبـادة الجماعيـة إلـى مـدلولين فإنهـا تبـدو علـى الـشكل التـالي : الأول يذهب إلى تعداد الجرائم التي ارتكبت, وهو يؤدي إلى اندثار أي جماعة عرقية (ومن هنا أتت التسمية –من اليونانية ,وهي تعني قتل العشيرة أو القبيلة). والثاني سيكون مجرد كلمة واحدة (عمداً) و في هذا تحديداً تكمن الميزة الرئيسية والفرق الأساسي بين الإبادة الجماعية عن غيرها من الجرائم الأخرى.

فالإبادة الجماعيـة هـي عندما يكون الهدف مـن العمـل هـو إلغـاء قوميـة أو مجموعـة عرقيـة. وتظهر هنـا الأهميـة المطلقـة لعامـل النيَـة وهـو المفتـاح الحاسـم الـذي يقوم عليـه تعريـف الإبـادة الجماعية.... الإبادة الجماعية هي " جريمة مقصودة" كما سمتها غالينا ستاروفويتوفا. إن الأنـاس الذين يرتكبون الإبادة الجماعية يجب أن يفهموا ما يترتب عليه ذلك الفعل , ولكن مع ذلك فربما أنهم يقومون به تحديداً من أجل ذلك .

إن توفر عامل سبق الإصرار تحديداً هو الذي يجعل من الجريمة الدموية " العادية" إبادة جماعيـة, أي أن يكون قتل كل الشعب هو الغاية وليس شيئاً آخر, فعند الاستيلاء على الأراضي أو الثروة المادية فلا يمكننا الحديث عن الإبادة الجماعية وأخذه على محمل الجد.

ويمكننا أن نعرض كمثال أمراً بسيطاً وغير معقد , في حال حدث صراع في الصحراء بين قبيلتين واستولت إحداها على مصدر المياه التابع للقبيلة الأخرى فهذا لا يعتبر إبادة جماعية ولكن إن فكرت هذه القبيلة تحديداً بقتل خصومهم جميعاً ولهذه الغاية تسيطر على مصدر مياه الوحيد وتعرف بـأنهم الآن سيموتون جميعاً عطشاً فـإن ذلك سيكون مثـالاً كلاسيكياً من حـالات الإبـادة الجماعية. ورغم ذلك يجب أن نفهم بأن الإبادة الجماعية لا ترقى إلى الحرب بشكل مطلق. نعم ففي كثير من الأحيان تُرتكب أعمال الإبادة الجماعية تحديداً أثناء المعارك ولكن إن لم يكن الهدف المباشر لهذه الأعمال هو التدمير الكامل لكل الشعوب التي تقاتل ضده فإنه لا يمكن اعتبار ذلك إبـادة جماعيـة أمـا مقتـل النـاس المـدنيين ولـو كـان بأعـداد كبيـرة فيجـب الاعتـراف بهـا كـضحايا حرب.وهكذا وكما نعلم فإن قتل الألمان اليهود من قِبل هتلر لم يُنفذ أثناء عمليات حربية وهذه يُعترف بها كإبادة جماعية , أما إلقاء القنابل الحارقة على درسدن والذي أدى خلال عدة أسابيع إلى مقتل حوالي 135 ألف من المدنيين وقد كان الإنكليز والأمريكان يعرفون تمام المعرفة من يقصفون فليست إبادة جماعية.

وكما يتضح من هذا التعريف فإن الاتفاقية لا تحُد لنا في أشكال و أنواع الإبادة الجماعية . فهي ممكن أن تكون بأي شكل والتي تؤدي بشرط نية منفذيها إلى قتل كل الشعب. ..هل من الممكن أن يكون الطرد والإبعاد إبادة جماعية؟ نعم يمكن, ولكن من الضروري بشرط أن يكون الهدف من هذا الإبعاد ليس الإبعاد والطرد بحد ذاته بل قتل الشعب , أي يجب أن يكون الطرد وسيلة وليس غاية – والغاية قتل الشعب. وفي حال لم تُطبق هذه القاعدة فلا يمكن تسمية هذا الطرد بالإبادة الجماعية.

وكمثال على هذا الترحيل ممكن أن يكون كما كان يحصل في القرنين 16 و 17 في البحرية

الملكية البريطانية حيث كان يتم إعدام شخص بطريقة إنزاله على جزيرة صغيرة غير مأهولة دون إمدادات أو أسلحة ومعدات, أو ببساطة بإلقائه في البحر – هو يعتبر نوعاً ما "ترحيلاً" من السفينة .كانوا يقومون بذلك بكل بساطة ,كانوا يضعون قطعة خشبية على الشاطئ ويسير الشخص عليها كما يسير على الجسر وعندما نهاية اللوحة يقع الشخص في الماء.ومنذ ذلك الوقت لا يزال هناك اصطلاح في اللغة الإنكليزية " إن يعبر على قوس, على اللوحة" والتي تُترجم مثل" إلى الموت"أو" الوقوع في مخالب الموت" وبطبيعة الحال فإن معظم مثل هذه " الترحيل" تنتهي بالموت وهذا كان مقصدها. وبالمناسبة فقد كان أحد المحظوظين الذين نجوا وبقوا على قيد الحياة هو البحار الإنكليزي الكسندر سيلك يرك والذي أصبح النموذج الأول لروبنسون كروز في الرواية المشهورة للكاتب دانيال ديفو. لقد تم إنزاله على جزيرة غير مأهولة بسبب قتاله مع القبطان الشيء الذي كان يُعاقب عليه بالإعدام.

وهكذا إن كان لنا أن نتصور بأن مثل هذا الترحيل يتم تطبيقه على أمة بكاملها فإننا نحصل على حالة واضحة ولا يمكن إنكارها من حالات الإبادة الجماعية. هل حصل مثل هذا التهجير للأديغة؟ هذا ما سنراه ونتابعه.

لابد من القول بأنه في القانون الدولي المعاصر تُعطى حياة الإنسان أولوية مطلقة وكما جاء في الاتفاقية فإن القانون لا يفرض أُطراً كمية عن عدد الذين ينبغي قتلهم أو عدد المدن المدمرة كي تسمى هذه الجريمة بالإبادة الجماعية. وبهذا الصدد فقد يتولد لدى بعض الناس وحتى الأعلى مرتبة منهم التباساً أو رغبة في استخدام مصطلحات لطيفة ومدوية لأغراضهم الخاصة – ولنتذكر العبارة الشهيرة لممثل روسيا في الأمم المتحدة فيتالي تشوركين والتي قالها خلال حرب الأيام الخمسة مع جورجيا: "كم من الناس يجب قتلهم بعد كي تعترفوا بها كإبادة جماعية؟" وبالتالي فقد كان العدد النهائي للقتلى في تسخين فالي 116 شخصاً , روسيا و أوسيتيا يقولون بأن ذلك كان إبادة جماعية بينما أراد الجورجيون مسح المدينة عن سطح الأرض وقتل كل الأوسيتيين , كما أن ال 140 ألف من اليابانيين الذين لقوا حتفهم في قصف هيروشيما ولا يعترف المجتمع الدولي بها كإبادة جماعية وذلك وحسب طلب الأمريكان الذين يقولون بأن هدف القصف كان عكس ذلك تماماً وهو تخويف الإمبراطور كي يوقف القتال الذي من شأنه أن ينقذ حياة الكثير من الناس.

يمكننا إذا أن نأخذ مثالاً وهو إيليا ايرينبورغ والذي سمي " بالمحكمة اليهودية لستالين" والذي أطلق في عام 1942 الشعار الشهير "اقتل الألماني "فهو سيكون وبشكل غير متوقع محرضاً وداعية للإبادة الجماعية ففي وقتنا الحالي سيتهمونه وبدون أساس بأنه يدعو للإبادة الجماعية وقتل الناس على أساس انتماءهم العرقي. وفي ذلك الوقت عندما ظهر هذا الشعار لم يفكر أحد إن كانت إبادة جماعية أم لا, وقد لاقى هذا النداء حينها موافقة واسعة في أوساط الجماهير السوفيتية. يظهر الشعار صيف عام 1942 في خضم الهجوم الألماني على نهر الدون , ويظهر نفس التوقيع في مقال بعنوان " اقتل" . وفيها يكتب مؤلف القصة الشهيرة" الذوبان" والتي ستحدد تسمية لعهد كامل من التاريخ السوفيتي :" لقد فهمنا بأن الألمان ليسوا بشراً ..سنقتل , إن لم تقتل ألمانياً واحداً في اليوم على الأقل فإن يومك قد ضاع... إن قتلت ألمانياً فاقتل آخرا – ليس هنالك شيء أكثر متعة بالنسبة لنا من الجثث الألمانية. لا تعد الأيام لا تعد المسافات فقط انظر وأحص شيئاً واحداً: عدد

الألمان الذين قتلتهم.اقتل الألمان ! – هذا ما تطلبه الأم العجوز, - اقتل الألمان ! – هذا ما يتضرع به أطفالك – .اقتل الألمان! – هذه صرخات الوطن. اقتل" ويصبح نداء " اقتل الألمان" شعبياً على الفور في الاتحاد السوفيتي .

في وقتنا الحالي لا يمكن تصور مثل هذه الدعوات ! وبالمناسبة حتى وقتها ولحسن الحظ لم يتبعوا هذا النداء حرفياً و إلا فمن الصعب أن نفهم لماذا خاطر عدد كبير من الناس بحياتهم وقتها لإنقاذ طفلة ألمانية صغيره و كان اسمها أليسا فريندليخ من الجوع أثناء حصار لينينغراد وقد كانت على شفا الموت .ولاحقاً عندما دخل الجيش الأحمر ألمانيا ورغم أن الشعار لم يفرق ما بين الجنود الألمان والناس المدنيين ولكن ذلك لم يحصل وكما قال ستالين حينها " الهتلريون يأتون ويذهبون أما الشعب الألماني فإنه باق".

في القانون الدولي المعاصر تقف الإبادة الجماعية بشكل منفرد. إنه واحد من التعاريف الأكثر تعقيداً والمتعدد المتغيرات والصعبة الإثبات والأهم أنها مسيَسة وبدون أي مقياس, وليغفر لي ضحاياه إن قلت.. إنه الأكثر لمحبي الجريمة.فضمن واقع مثير للجدل وغير عادل فإن الاعتراف به أو رفضه لا يعتمد على نص وروح اتفاقية الأمم المتحدة بل على تمازج الكثير من العوامل المختلفة ومن بينها وجود أدلة كافية والتي غالباً ما يكون جمعها صعباً لأن مثل هذه الجرائم كما هو معروف تكون مخبأة ومغطاة بشكل جيد, وضرورة توفر مستوى عال من التنظيم والمثابرة والتأثير عند الناس الذين تعرضوا للإبادة الجماعية أو عند أحفادهم , وكذلك الجدوى السياسية لهذه الخطوة أو غيرها, وكذلك الكثير من الأشياء المختلفة الأخرى.

كل هذا يؤدي إلى أن الاعتراف بالإبادة:: بدون استثناء فإن جميع الشعوب والدول والمنظمات الدولية والعامة لا تسترشد بمسألة بسيطة وصادقة" كانت أم لم تكن الإبادة" بل على مسألة أكثر براغماتية وواقعية ويسوعية وهي " هل بالإمكان إثبات ذلك؟" "هل هناك داع لذلك؟" " ما الذي يعنيه هذا بالنسبة لي شخصياً؟ ".

مثل هذه الممارسة تؤدي إلى حقيقة أن يتولد عند عدد كبير من الناس أو الفئات الاجتماعية الرغبة القوية في أن يعبروا عن هزيمتهم الخاصة ويعتبروها شكلاً من أشكال الإبادة الجماعية ويجبرون الشعب على التصديق بأن ما حصل لهم ليس فشلاً ,وذلك عندما يتخاصم طرفان في نزاع لأسباب كثيرة ويخسر أحدهما بل يُقتل بشكل وحشي يتجاوز الأخلاق الإنسانية. وفي حال النجاح فقد يؤدي هذا المدخل وبتدخل أيد غريبة وبطرق سلمية إن يستعيد الطرف الأضعف ما فقده ويُحسن موقفه ووضعه ويحصل على تعويضات أو تنازلات ويوحد شعبه , وببساطة " يعيد كسب الحرب" التي خسرها منذ وقت طويل. إن يستعيد بطرق سلمية ما لم يستطع عليه حربياً. والأمثلة على ذلك كثيرة جداً, كثيرة لدرجة إن المختصين يؤكدون بصوت واحد بأن مصطلح الإبادة قد لعب به السياسيون وحاولوا جره شمالاً وجنوباً وحاولوا تطبيقه على أي شيء مهما كان صغيراً مما أدى إلى فقدان مغزاه في الحياة العملية.

سواء رغبنا بذلك أم لا ولكننا نستطيع ألا نتفق مع مثل هذه الحقائق ونرفضها ونستاء ونقول "

بأننا – مختلفون" ونخفيها عن شعوبنا , ولكن عندما يتعلق الأمر بالحلول فإن جميع الأطراف بدون استثناء بما فيهم نحن سنسترشد بهم وسيقودوننا . فكروا إذن, هل نعيش في عالم خرافي ؟
على سبيل المثال: فإنه من أكبر وأكثر أشكال اليسوعية الكلاسيكية الكاملة بل تستطيع القول اليسوعية المربعة تقدمها لنا في هذه المسألة البلد الذي تعرض شعبه بدون أدنى شك لإبادة جماعية مخيفة – وهو إسرائيل. ففي عصرنا هذا فهي تعد الدولة التي تخضع لأكبر عدد من الاتهامات بالإبادة الجماعية. هذا البلد الذي لا يملك موقفها أي شيء مشترك مع اتفاقية الأمم المتحدة بشأن الإبادة الجماعية وهي وحدها التي تُحدد مواقفها بشكل استثنائي حسب مصالحها الخاصة الآنية. أي ليس بالقانون ولكن عن طريق المفاهيم. وهذه المفاهيم – ليست المساواة والإخاء وسيادة القانون بل قانون" صديق أم عدو" " ينبغي أو لا ينبغي" " من نصادق ومن نعارض" . مقدمة نفسها (وهو صحيح إلى حد كبير) كشعب – هو ضحية للإبادة الجماعية وترسخ هذا المفهوم بشكل ضخم . تستطيع إسرائيل بسهولة إن ترتكب أي عمل ممكن إن تتهمه هي بحرية بالجريمة وتستخدم مسألة الاعتراف أو عدم الاعتراف لإبادات جماعية أخرى كأحد أهم العناصر لسياستها الخارجية النشطة.

وهكذا فهي ضمن وجودها في محيط نشط من المسلمين المعادين لها تحتاج كحاجتها للهواء إلى إقامة علاقات جيدة مع تركيا كبلد والذي يعتبر فعلياً البلد الإسلامي العلماني الوحيد الذي يمكنه من التأثير من الداخل على العلاقات بين إسرائيل والمسلمين . ومن المفهوم بأنه لا يمكنها التوصل إلى ذلك في حال اعترافها بالإبادة الجماعية للأرمن من قبل تركيا! وتبعاً لذلك فإن إسرائيل تغلق عيناها تماماً على تفاهات كهذه مثل وقائع الإبادة الجماعية للأرمن وعلى قاعدة الأدلة والإثباتات التي اعترفت بها غيرها من الدول. إنها ترفض الاعتراف بالإبادة الجماعية للأرمن حتى إنها تدير ظهرها لها كلياً, وخاصة بأنه ليس هناك وجود كبير للشتات الأرمني في إسرائيل, وهي تبدأ بتمتين علاقاتها مع تركيا قائلة) انتبهوا) إلى الإبادة الجماعية التي يربطونها بالأرمن أثناء حربها في ناغورني كاراباخ., كما تنظم معرضاً للصور الفوتوغرافية عن الإبادة الجماعية للأذربيجان في خوجالي ..الخ.

ما علاقة كل ذلك بالواقع و بالجانب القانوني للأشياء؟ لا علاقة له في حقيقة الأمر – فهي سياسة قذرة و لكن لمصلحة مقالتنا هذه تهمنا أمور أخرى, فكما قلنا فإن إسرائيل تستخدم وبنشاط موضوع الإبادة الجماعية المتعلق بالشعوب الأخرى. ومن المثير للاهتمام إن نرى ما هي علاقة إسرائيل بالحرب القفقاسية وبمأساة الشعوب الأديغية. وهنا ينبغي القول بأننا لو قارننا من جهة نتائج الحرب القفقاسية ومصير الشراكسة ومن جهة أخرى نتائج الحرب العربية الإسرائيلية والمأساة التي يعيشها العرب ضحايا الهزيمة والانسحاب من أراضي إسرائيل الحالية فإننا سنندهش إلى حد كبير بتشابه هذين التاريخين كتشابه قطرتا ماء! ففيهما من أوجه التشابه وكما لو إن القادة الحربيين الإسرائيليين قد درسوا تاريخ الحرب القفقاسية كي يكرروها عندهم في الشرق الأوسط ضد السكان العرب.

فلننظر: إن إحدى أسباب هزيمة العرب والشراكسة على حد سواء كان التخلف والمجتمع الأبوي و الذي ساد لفترة طويلة بشكل منغلق ولم يتمكن في اللحظة الحاسمة من إعادة التنظيم والتحديث. إن بداية الاستيطان اليهودي في الأراضي العربية في النصف الثاني من العام 1940 تكرر

وتشبه تماماً التكتيكات الروسية في القفقاس, وخصوصاً في بناء شبكة خطوط القوزاق – كذلك اليهود الذي بنوا مستوطناتهم بشكل يضمن استمراريتها, واستخدموها كقواعد يغيرون منها على القرى العربية المجاورة.

انظروا إلى الخريطة – إنها كخط نموذجي قوزاقي في القفقاس !

وكذلك بالنسبة للعلاقة مع سكان الأراضي المحتلة فهي متطابقة تماماً – فهم يقسمونها إلى " سلمية – وغير سلمية" وبهذا فهم يسمحون ببقاء العرب السلميين ويقومون بطرد الغير سلميين أو قتلهم ببساطة.

إن الروس في القفقاس وكذلك الإسرائيليين في الشرق الأوسط يعرضون باستمرار خيارات التعايش السلمي بين الشعبين ضمن إقليم واحد ولكنها تُرفض من جانب العرب و الأديغة – فالكثير من العرب يتكلمون حتى الآن عن عدم الاعتراف بدولة إسرائيل,وحتى بعد سلسلة من الكوارث الحربية فهم لا يوافقون إلا على شيء واحد – وهو رمي اليهود في البحر, وكذلك الأمر بالنسبة للأديغة الذين فقدوا كل شيء تقريباً ولا يملكون القوة لمقاومة الجيش الروسي الجبار وترابط نفسها على حافة المأساة الكبرى للشعب الأديغي.

في عام 1861 وعندما تلقوا شروطاً دورية للسلم من الكسندر الثاني , فإنهم تقريباً طالبوا باستسلام روسيا – طالبوا بالانسحاب الكامل لروسيا من الكوبان و إزالة الحصون والقلاع وتسليم مواطنيهم الذين انتقلوا للجانب الروسي ..الخ.

إن أوضاع خروج ومصير العرب و الأديغة كذلك تُدهش في تشابهها – ففي الحالتين يحدث الانسحاب نتيجة نداءات نشطة من الحلفاء الأجانب. ففي حالة الأديغة – من الأتراك وفي حالة العرب – من العالم العربي ومن الأوامر المباشرة للقادة المحليين (النداءات كانت لنبلاء الأديغة, وللقادة العرب).

أما بالنسبة للمتبقين من العرب المسالمين أو الشركس المسالمين فإن روسيا أو إسرائيل على حد سواء تظهران الموقف نفسه – إنها تعمل على إدماجهم بشكل كامل في مجتمعاتهم وتمنحهم الجنسيات والحقوق المتساوية...الخ.

في العالم العربي كما في الوسط الشركسي تثار مسألة عودة المهاجرين إلى وطنهم – العالم العربي يضع عودة اللاجئين كشرط أساسي في جميع اتفاقات السلام مع إسرائيل, كما يعلن الأديغة بصوت أعلى عن الضرورة والرغبة في عودة شتاتهم إلى القفقاس .

إسرائيل ترفض ذلك رفضاً قاطعاً بينما لا تحدد روسيا موقفها رسمياً ولكنها عملياً تضع العقبات للعودة الجماعية للأديغة. ومع ذلك ففي العالم العربي يفهمون بوضوح بأنه حتى لو سُمح لهم بالعودة فإن معظم اللاجئين وأحفادهم يفضلون البقاء في البلدان التي تمكنوا من إقامة جذور لهم فيها, ولكنهم رغم ذلك سيأخذون الجواز الإسرائيلي إن أُتيحت لهم هذه الفرصة. ونفس الوضع

تماماً بالنسبة للأديغة و الأبخاز في الشتات, فمسألة العودة الجماعية تبدو بشكل متزايد كشكل أقرب للخيال والقادة الأديغة لم يعودوا يصرون على عودة جميع أحفاد الأديغة الذين خرجوا من أراضيهم بل على منحهم الجنسية الروسية.

إن الوضعين متماثلين كالتوأم ! كل شيء متطابق. ولكن هل تستجيب إسرائيل لهم بنفس القدر؟
أولاً, يجب إن نقول بأن إسرائيل بطبيعة الحال ترفض وبسخط كل الاتهامات الموجهة لها بشأن ارتكاب الإبادة الجماعية. وتقول بأن اليهود أنفسهم هم شعب ضحية الإبادة الجماعية الرهيبة وبالتالي فإنها لا يمكن إن تكون طرفاً يقوم بذلك. وفيما يتعلق بالحرب القفقاسية وبتشابه أحداثها المثير فيما يجري في الشرق الأوسط, فإن إسرائيل تُظهر مفهوما المبدئية والتناقض المتعاكسان كلياً. إنها لا تعترف بإبادة الشراكسة بشكل رسمي ولكنها في داخل إسرائيل تسميها " المحرقة" " المحرقة الشركسية" . وتُعد إسرائيل الدولة الوحيدة الذي يعتبر فيه يوم انتهاء الحرب القفقاسية 21 أيار رسمياً يوم ذكرى الشراكسة الذين لقوا حتفهم خلال الحرب القفقاسية. وإن كل أديغي يعيش في إسرائيل يستطيع إن يأخذ إجازة رسمية في هذا اليوم ويشارك في الندوات الكثيرة ومناسبات الذكرى للشراكسة ضحايا الحرب.

ويشارك المسؤولون الإسرائيليون في هذه الاحتفالات ويقدمون التعازي للأديغة ويتكلمون عن تعاطفهم مع آلامهم وكيف إنه مؤلم بالنسبة لهم إن الشعب الأديغي قد وقع ضحية للظلم الروسي ودُمر جزئياً ورُحل الجزء الآخر من أرض الأجداد.
وينبغي القول هنا بأن هناك قريتان شركسيتان في إسرائيل – كفركما و الريحانية والذين وُجدوا هناك نتيجة رحيل الأديغة من القفقاس خلال الحرب القفقاسية .

عندما حصلت تركيا على مئات الألوف من الأديغة المهاجرين, حاولت استخدامهم تماماً كما استخدم الروس القوزاق – وضغطت على توطينهم على الحدود المضطربة للإمبراطورية العثمانية. وبهذا الشكل تماماً ظهرت قريتان شركسيتان على الحدود مع العرب ويعيش فيهما حالياً حوالي ثلاثة آلاف شخص معظمهم من الشابسوغ و القباردي. إن نمط حياتهم الآن وموقف دولة إسرائيل تجاههم يمكن إن تكون نموذجاً يحتذى به للعلاقات بين الأعراق وللسياسة الحكومية السليمة في مجال التعامل مع الأقليات القومية. إن إسرائيل تدعم الأديغة في كل شيء وتخصص لهم سنوياً مبالغ كبيرة من أجل التنمية, كما إنه يُسمح لهم التعليم باللغة الشركسية بشكل رسمي .. الخ .وبالمختصر فكل شيء يسير بشكل رائع !وتزور هذه القرى وفود من الجمهوريات الشركسية لشمال القفقاس, ويزورها بشكل دائم مثقفون ادبغه مؤكدين دوماً على وحدة منطقة الشرق الأوسط و الأديغة القفقاسيين, وتُعد أغنية " ريحانية" التي يؤديها نجم البوب الأديغي ألبرت تلياتشيف واحدة من أغاني البوب الحديثة في الأغنية المعاصرة الأديغية.

ولكن ضمن هذا الموقف الرائع يظهر النفاق والسخرية في السياسة الإسرائيلية ! فالفرق في نظرة وتقبل إسرائيل إبادتها الجماعية والإبادة الجماعية للآخرين لا يقاس ولا يخضع عندها لأحكام القانون الدولي, ولا للجانب الفعلي لهذه القضية ولا لتسميات الشعوب, بل ببساطة يخضع للكيلومترات. حقيقة الأمر إنه وعلى بضع عشرات الكيلومترات من هذه القرى الأديغية المزدهرة هناك أيضاً ثمان قرى(حتى إن باديرخان يقول إن عددها هو 22 قرية أديغية) هذه القرى أديغية

ويعيش فيها الأديغة كذلك كما في كفركما و الريحانية وهي وُجدت في الشرق الأوسط بنفس الوقت ولنفس الظروف التي وُجدت فيهما كفركما و الريحانية. ولكن الفرق إنه وخلافاً لهاتين القريتين السعيدتين فإن الأتراك قد أعادوا توطين أحفاد سكان أولئك القرى على الأراضي التي تسمى حالياً بهضبة الجولان.و هذا فقط ما حدد مصيرهم لاحقاً.

فبعد حرب الأيام الستة عام 1967 قامت إسرائيل (التي يقلقها جداَ الظلم والشر الذي حل بالأديغة خلال الحرب القفقاسية) بمحو هذه القرى الأديغية عن وجه الأرض. وأقصد بكلمة " محو "المعنى الأساسي لهذه الكلمة أي محوها فيزيائياً بالبلدوزرات و الجرافات كي لا يتبقى روح غير إسرائيلي على هذه الأرض, وكي يعرف أحفاد الأديغة الذين يعيشون هناك بأنه لاشيء ينتظرهم في الوطن الجديد ولا مكان لهم للعودة إلى أي مكان.

ويقول شهود عيان بأنه في مكان هذه القرى الآن قد نرى هنا وهناك بقايا أساسات المنازل الأديغية السابقة. إذا كان هناك حوالي ثلاثة آلاف من الأديغة يعيشون في كفركما و الريحانية الآن, فإن هناك حوالي 18 ألفاً من الأديغة قد تم ترحيلهم من قِبل إسرائيل من هضبة الجولان إلى سوريا والأردن, من قِبل إسرائيل التي تتعاطف بشكل حاد مع حزن الأديغة بحجة ترحيلهم من القفقاس. إنهم وأحفادهم أيضاً لا يستطيعون حتى زيارة قبور أجدادهم التي بقيت في الجولان, فأولاً لأن الدخول إلى إسرائيل بجوازات سورية أو أردنية يكاد يكون مستحيلاً, و ثانيا وإن تمكن أحد من أحفاد اؤلئك الأديغة إن يصل إلى قبر أجداده, فإن الإسرائيليين الجزعين للمحرقة الأديغية قد قاموا وبدقة بتلغيم بقايا المقابر الأديغية الموجودة الآن ضمن أراضيهم.

هذا شكل من أشكال المسخ الذي تقدمه لنا واحدة من الدول الرائدة في العالم الحديث, الدولة التي تسمى دولة متطورة وديمقراطية وحرة. وفي هذه الحالة أريد إن تفهموني بشكل صحيح – فليست لدي أية رغبة باتهام إسرائيل بالإبادة الجماعية- فهذا من شأن العرب والإسرائيليين أنفسهم بالدرجة الأولى. وحتى لو أردنا إن نفعل ذلك فإن المدخل إلى المشكلة لا يجب إن يكون من زاوية مفهوم " ضد من سنقف" بل من وجهة نظر القانون الدولي وإنقاذ القانون الدولي, و لكن من وجهتها النظيفة وليس الانتقائية كما هي النسخة الإسرائيلية في وجهتها البشعة التي تتسم بالازدواجية.

كل هذه المعلومات يجب إن تُؤخذ بعين الاعتبار في النظرة إلى موقف إسرائيل حول ما يجري في القفقاس وبوجه خاص فيما يجري في شمالي القفقاس. والحديث يدور حول الموقف الرسمي لتل أبيب ولتلك المقالات التي كتبها خبراء السياسة الإسرائيلية عن الإبادة الشركسية وعن منطقة القفقاس في المستقبل وما إلى ذلك., والتي تظهر في وسائل الإعلام الروسية وكذلك على هذا الموقع. سأتحدث في بادئ الأمر عن الحاخام الذي أكن له الاحترام أفرام شموليفيتش. إنه يكتب الكثير وبشكل جيد وتثير كتاباته الاهتمام .وبالطبع تشعر في بعض النقاط عدم فهمه لخصوصية منطقة القفقاس وهذا أمر مفهوم بحكم وجوده بعيداً عن القفقاس ومن الواضح إنه لا يوجد ما يربطه به, ولكن بشكل عام فإنه من الجيد جداً إن تظهر مثل هذه المواد والتي تتضمن وجهات نظر من الخارج في الصحافة .ومن خلال قراءتها لابد من الإدراك بأنه في حال كان هنالك بلد ما يستطيع إن يقوم بدور الحكم في المسائل المتعلقة بالإبادة الجماعية وخصوصاً في القفقاس, فإن

هذه الدولة بالتأكيد ليست إسرائيل و لا بأي ظرف من الظروف, والتي إن لم تكن أيديها ملطخة بالدماء فإن رأسها في المدفع والتي نظمت الكثير من عمليات التهجير الجماعية للعرب و الشركس أنفسهم في عصرنا المستنير والمتحضر حتى بعد اعتماد الاتفاقية حول الإبادة الجماعية.

وعندما يكتب الحاخام المحترم شموليفيتش " كيف يمكننا إنكار الإبادة الجماعية للشركس؟" فيخطر سؤال في البال إن كتب كذلك عن العرب والشراكسة في مرتفعات هضبة الجولان أم إن مفهومه للعدالة يملك بعداً جغرافياً واضحاً فقط؟

سنبتعد قليلاً عن الموضوع ...لا يمكننا بالتأكيد تدريس الديمقراطية لإسرائيل وهذا مفهوم – فلدينا مشاكل بالنسبة للتسامح -ولكن سيكون ممتعاً إن نعرف ما سيحدث فيما لو كتب شخص من علماء السياسة الروس وبشكل عاصف حول القضية الفلسطينية ومن وجهة نظر الفلسطينيين؟ أي شيء مثل " إعادة توزيع الحدود الإسرائيلية: بمشهد عربي" أو " في حال لم تقدم إسرائيل التنازلات فإنها لن تفقد فقط الضفة اليسرى لنهر الأردن, بل ستفقد نصف البلاد" أو " دماء فلسطين : المحاولة الأولى للانتقام" أو " الضربة الأولى في الاتجاه الإسرائيلي" ... ما الذي كان ليحدث لو إن أحدهم قد بدأ في إبداء رأيه حول مستقبل الوضع في الشرق الأوسط, والتعامل فقط مع العناصر الإسلامية المتطرفة وبعض الحكومات الغير مفهومة في المنفى والتي لا يعرف أحد من الذي انتخبها والتي لا يُعرف على من تُؤثر؟ كيف سيكون رد فعل السلطات الإسرائيلية والرأي العام الإسرائيلي؟ قد يكون من الضروري إن تفعل ذلك؟ أوه كم هو مؤسف إنه لا وقت لذلك!

لا تظنوا بأنني أُماحك إسرائيليا – فإنا على الإطلاق لست معادياً للسامية . نعم إن إسرائيل مثال مهم للسخرية التي تتبعها والازدواجية وللمدخل اليسوعي لهذه المسألة, ولكن الكثير من البلدان الأخرى تتصرف تقريباً بنفس الشكل, ربما بجرأة أقل وبشكل أقل وضوحاً. فرنسا مثلاً التي تُتهم في بالإبادة الجماعية للعرب في الجزائر قد اعترفت بإبادة الأرمن الجماعية في تركيا وذلك تحت ضغط كبير من الأرمن في الشتات .إنكلترا ترفض الاعتراف بالإبادة الجماعية المرتبطة بالمستعمرات. والولايات المتحدة لا تقبل الاتهامات حول إبادة الهنود الحمر الجماعية مع الأخذ بعين الاعتبار حقيقة إن عدد ضحايا الهنود الحمر نتيجة هذه " اللا إبادة جماعية" يقاس بالملايين.

إن مثال التسييس هو هذه النقطة: هل تملك الاتفاقية الخاصة بالإبادة الجماعية مفعولاً رجعياً أم لا, بما معناه : هل يمكن على أساس الاتفاقية اتهام بلد قام بمذابح دامية قبل اعتماد مصطلح الإبادة الجماعية وقبل ظهور المعايير الأخلاقية الشائعة الآن في مجتمعاتنا. من جهة, لم يكن أحد قد ألغى إحدى الركائز الأساسية قبل القانون الروماني والتي تُبنى عليه منظومة كاملة من القانون الحديث – مبدأ " لا توجد جريمة دون الإشارة إليها في القانون" وعليه فإن المسؤولية تقع فقط على الأشخاص وعلى الأفعال التي ارتكبت بعد صدور القانون , وفي حالتنا هذه فإن الاتفاقية قد دخلت حيز التنفيذ بعد عام 1951.

ويشاطر معظم المحامون ورجال القانون هذا الرأي وخصوصاً واحد من ابرز الخبراء في مسائل الجوانب القانونية في مجال الإبادة الجماعية صاموئيل كوجوي ,وبالمناسبة هو كردي المنشأ ويقول : "إن المحاولات اليوم في وصف إبادات المجموعات القومية أو الدينية بالإبادة الجماعية

وهي التي وقعت قبل فترة طويلة من اعتماد مصطلح "الإبادة الجماعية" في القانون الدولي هو برأينا غير شرعيه (وخصوصاً إن الاتفاقية لا تملك مفعولاً رجعياً). إن هذه الحقائق يجب إن تكون مصنَفة وفقاً لقوانين سارية المفعول في وقت ارتكابها, وبدون جدال تكون مدانة من قِبل المجتمع الدولي, ولكن الإبادة الجماعية ليست ضمن مجال القانون رسمياً " .

ولكن في الوقت نفسه فإنه وفي العديد من قرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة وحتى في نص الاتفاقية الخاصة بالإبادة الجماعية تؤكد (ضمنياً) شرعية تصنيف الإبادة الجماعية للحالات التي تندرج ضمن التعريف ولكنها وقعت قبل بدء نفاذ الاتفاقية, وكذلك في عدد من القوانين الدولية التي تخص الجرائم ضد الإنسانية (والتي تنطبق عليها الإبادة الجماعية بدون شك) فإنها تقول بشكل مباشر بأن مثل هذه الجرائم سوف يتم التحقيق فيها وسيتم تقديم الأشخاص المتهمين فيها إلى العدالة " دون النظر إلى الوقت والمكان الذي ارتكبوا فيه تلك الجرائم".

تحصل الحالات القانونية التالية – لا يمكن الصفح عن الإعدام ! وفقاً لبعض القوانين الدولية فمن الممكن الاعتراف بالإبادة الجماعية في أمر ما, وفي البعض الآخر منها – لا يمكن. ونتيجة لهذه الازدواجية القانونية والارتباك الحاصل فيها فضلاً عن التسييس الغير مسبوق لهذه القضية فإن كل طرف يسعى لإثبات براءته من وجهة تفسيره لهذه المسألة وأخذ ما يلزمه من القانون و" ينسى" بشكل قاطع الجانب الآخر .وهكذا فإن تركيا ترفض الاعتراف بالإبادة الجماعية للأرمن لنفس السبب الذي يقول بأن قانون الإبادة الجماعية لم يكن نافذاً حينها (عام 1915) , ولكن نفس هذه القاعدة لا تمنع إسرائيل من إدانة وإعدام مجرم الحرب النازي أدولف ايخمان في عام 1962 بتهمة جرائم ارتكبها في عام 1940.

ومن الضروري هنا قول بضعة كلمات حول من أين ينشأ مفهوم " الاعتراف" بالنسبة للبلد الذي ارتكب الإبادة الجماعية. حيث إنه وعلى ما يبدو إنه في العادات والعلاقات اليومية والإجراءات المدنية والقانونية فإنه لا أحد مطالب بالاعتراف بذنبه : "-موافق أم غير موافق – قف ! ويُعلن قرار المحكمة" وإلى الأمام لبناء الاقتصاد الوطني – يستحم ويغتسل ويولد أخلاقياً من جديد !

هذا كله صحيح . ولكن تطبيق مثل هذا النوع من الاعترافات لا يمكن إلا للإبادات الجماعية المرتكبة بعد عام 1948 بعد اعتماد اتفاقية الأمم المتحدة وخصوصاً إذا كان البلد – المتهم قد وقع على الاتفاقية وبالتالي أخذ على عاتقه الالتزام بمنع الإبادة الجماعية.وعندها يصبح كل شيء أسهل وأكثر قابلية للفهم – فعندها يمكن للأمم المتحدة ويجب عليها إن تنظر في المسألة وتحدد لها نوعاً من العقوبات وتهيئ الظروف لمنع مثل هذه الأحداث دون اعتراف أو رفض رسمي للبلد بذنبه.

ولكن ما العمل إن حصلت حقيقة الإبادة الجماعية في الماضي البعيد؟ كيف نحكم عليه من خلال قوانيننا المعاصرة استناداً إلى المواقف الأخلاقية المعاصرة والقواعد الحالية للاتصالات والعلاقات الدولية؟ كيف سنقاضي شخصاً عاش قبل 500 عام حسب نصوص القوانين الجنائية الحديثة؟ حيث إن نصف ما نصفه الآن بالجريمة والهمجية كان في وقته قاعدة وقواعد سلوكية بل إنها كانت فرضاً أساسياً للمجتمع على أعضائه؟

إن مضينا في هذا الطريق وبدأنا تطبيق القوانين الحديثة على الناس الذين كانوا يعيشون في الماضي البعيد ومن ثم على معاقبة أحفادهم على جرائم ارتكبها أسلافهم منذ عقود وقرون مضت استناداً إلى قانون العقوبات الحالي, فإننا سنرسل الكثيرين إلى السجون ! بوشكين وتولستوي مثلاً الذين كانوا يملكون الأقنان : علينا إن نحاسبهم بموجب القانون الجنائي رقم 127 الفقرة 1 و 2 والتي تتكلم عن " الحرمان الغير قانوني لحرية الأشخاص الغير مرتبط بالاختطاف" " والاتجار بالناس" و" استخدام عمالة العبيد" والبند 136 " انتهاك حقوق المساواة وحريات الإنسان" ونصل إلى كوم من العقوبات في المادة 145 " عدم دفع الأجور والمعاشات التقاعدية والمنح الدراسية وغيرها من المدفوعات " وبالمناسبة فإن الأحكام هناك كبيره جداً. وعلى فكرة فإن نصف إن لم يكن جميع اليونانيين العظماء سيعاقبون حسب المواد 133, 134, 135 – على التحرش الجنسي بالأطفال. وماذا نفعل مع المغول القدماء على عدوانيتهم وجرائمهم القديمة؟ من المخيف تصور ذلك!

بالتأكيد إن هذا أمر عبثي ومن يقول عكس ذلك فهذا يعني بأنه أحمق أو إنه يتواصل مع الأغبياء ! وفي هذا السياق نحن نتحدث عن الاعتراف الطوعي للبلد الذي قام بالإبادة الجماعية في الماضي وبطوعية تحمله مسؤولية معالجة أثار هذا الفعل. وبعبارة أخرى فإن أي شخص – أو أية دولة أو منظمات اجتماعية يمكنها إن تُدين دولة في إبادة جماعية شنتها عليها في الماضي , تعترف بها الدولة أو لا تعترف ,أو تتخذ بعض القوانين أم لا, إن ذلك لن يكون له أية قيمة على الإطلاق ما لم يقوم البلد المتهم طواعية بالاعتراف بمسؤوليته ويتخذ طوعاً الإجراءات اللازمة لمعالجة الظلم والضرر الذي سببه.

حسناً, دعونا نرى أي البلدان التي اعترفت طواعية بالإبادات الجماعية المرتبطة بها في الماضي البعيد. أي بلد يمكنه من تقديم مثال لروسيا الغير إنسانية من أجل اعترافها الطوعي بالإبادة الجماعية للشراكسة؟ مع من يجب إن تكون موسكو الاستبدادية و الشوفينية على قدم المساواة؟ وبمن يجب إن تحتذي؟ لا توجد مثل هذه الدول, لا توجد وهي غير موجودة في الطبيعة!

من بين جميع الديمقراطيات العظيمة الحالية والتي لم تكن ديمقراطية منذ عقود مضت. وبالعكس فقد كانوا يسعون للاستيلاء على مساحات أكبر من الأراضي وإن تخضع لهم أكبر عدد من الشعوب في إنحاء مختلفة من العالم, أي بلد سيعترف منهم بذنبه في ارتكاب الإبادة الجماعية؟ لا يوجد بلد سيعترف بذلك. وعلاوة عن ذلك إن الاتهام بالإبادة الجماعية أكثر من ضروري,ولكن ليست هناك أي دولة ضخمة جداً ومفرطة في الديمقراطية , وعادلة جداً وإنسانية وعضو في البرلمان الأوربي وقصدها الأديغة بطلب بالاعتراف بالإبادة الجماعية التي قامت بها روسيا في القفقاس قامت باتهام نفسها بإبادة جماعية قامت بها, ولذلك فليست هناك أمثلة لما يطالب به الأديغة من القيادة الروسية.

إن البلد الوحيد الذي يتفق مع الحقائق التي تربطها بالإبادة الجماعية في الماضي هي ألمانيا .ولكن ذلك ليس سوى شكلياً, وذلك لأنه في عام 1948 عندما اعتُمدت الاتفاقية لم تكن أحداث الأربعينيات أحداثاً ماضية بل بالعكس تماماً – فالأولوية القصوى كانت لها ! وبالإضافة إلى ذلك

فمن الضروري إن نفهم الحقيقة المطلقة التي لا تقبل الجدل للإبادة الجماعية التي قام بها الألمان ضد اليهود والغجر, وكذلك للكارثة العميقة التي لا تُصدق التي حلت بالشعب الألماني العظيم عام 1945 ورغبته في التخلص من الشعور بالذنب في أسرع وقت ممكن.
ماذا عن اتهامات الشركس بشأن الإبادة الجماعية لشعبها خلال الحرب القفقاسية؟

السؤال مُسيس, إن قوانين مكافحة الإبادة الجماعية لم تكن موجودة في ذلك الوقت, وعملياً فإن جميع البلدان في الماضي قد فعلت ذلك, على الرغم من إن أحداً منها لا يعترف بذنبه, إن كل شيء معقد هنا ! ما العمل؟ دعونا نتذكر المقولة الفلسفية اليونانية القديمة " الأشياء تُدرك بالمثل" ولنقارن الوضع السائد في القفقاس في القرنين 18-19 باعترافات واضحة أو بعدم اعترافات بحالات الإبادة الجماعية. سنقارن عن كثب – عن قرب وحرفياً في محاولة مقارنة وضع الشراكسة مع ما حصل مع غيرها من الشعوب ولنرى – هل تتقاطع وتتشابه؟ هل تتشابه الحقائق التاريخية للماضي, هل تتلاقى الحجج المؤيدة والمعارضة؟ وهل من الممكن تبديلها لكي نقتنع إن كان في هذه الحالات ما يعادلها ؟ واعتماداً على صوابية المقارنة نطابق مسألة الإبادة الجماعية للشركس بتلك الاستنتاجات والقرارات التي يتخذها المجتمع الدولي في حالات أخرى تؤكد أو تنفي الإبادة الجماعية. أي : هل يشبه وضع الشراكسة وضعاً آخر؟ إن كان الوضع المشابه قد تُم الاعتراف به كإبادة جماعية هذا يعني بأن مطالب الأديغة بالاعتراف بالإبادة الجماعية صحيح تماماً وينبغي دعمها, وإن كان لا, فعندها لا يجب.

ومن المثير للاهتمام إنه لم يقم أحد من علماء الشراكسة أو أحد من شخصياتهم العامة بإجراء مثل هذا التحليل. وباعتمادهم على أدلة مثل " كيف لا يمكنك تصديق إبادة الشركس الجماعية؟" أو " إن وجود الإبادة الجماعية للشركسي- أمر لا جدال فيه" باعتمادهم على مثل هذه الأقوال فإنهم لسبب ما لم يشرحوا أبداً لشعبهم ما الذي تعنيه الإبادة الجماعية و ما هي الممارسات القانونية في حالتهم, وهل يقارن وضع الأديغة مع تجارب غيرها من الشعوب التي تم الاعتراف بإبادتها الجماعية. إنني شخصياً كنت دوماً حذراً للغاية من حجج كهذه وكانت تحفزني للسعي والبحث خلف المعلومات .

دعونا نعوض ثغرة المؤرخين الشراكسة هذه ولنقوم بما كان على علماء و نشطاء القومية الشراكسة القيام به منذ سنوات طويلة مضت- لنلق نظرة شاملة على الوضع ولنثبت للناس إلى أي حد تتطابق وتُقاس مطالبة الاعتراف بالإبادة الجماعية للشركس مع الأحداث التاريخية الحقيقية ومع الممارسات الدولية في هذه الصدد.

الإبادة الجماعية للهنود الحمر في أمريكا

لمزيد من التحليل المفصل أقترح إن نأخذ زعيمة العالم الحديث كمثال, البلد الذي يطمح إلى تسمية البلد السوبر ديمقراطي والسوبر أخلاقي والذي هو دائماً على حق – أقترح إن نتناول الولايات المتحدة الأمريكية.

هذا المثال مناسب في تعبيره الواضح والجلي – إن إبادة الهنود الحمر أمر معروف بشهرته

وبالأطراف المعنية فيها. في حال كان الناس السوفييت يقولون سابقاً قبل جيل واحد فقط " نحن نظيفون مع لينين, لكي نتابع السباحة في التاريخ" فإن الكثيرون منهم الآن يسعون إلى تنظيف أنفسهم في إطار الولايات المتحدة. وعلى وجه الخصوص فإن هذا ما تفعله البلدان التي تدخل كأعضاء في البرلمان الأوروبي والتي توجهت إليها المنظمات الاجتماعية الشركسية بطلبهم. ومن المثير للاهتمام كيف سيكون وضع هذه المسألة عند معبودهم وزعيمهم ! عند هذه النقطة أرجو من القارئ عندما يقرأ عن أمريكا إن لا يرى فقط أمريكا, بل القفقاس الشمالي وإن يحاول مقارنة كل ما يحدث في القارة الأمريكية بسهولنا وغاباتنا وجبالنا, هل هي متشابهة؟

إن الاتهامات الموجه لأمريكا حول إبادة الهنود الحمر ليست نادرة إن لم نقل بأنها متكررة. وكقاعدة فإن هذه الاتهامات تقوم بها المنظمات الاجتماعية للهنود ,و نشطاء حقوق الإنسان وبعض المؤرخين وبعض الدوائر السياسية التي تريد تحقيق بعض التنازلات من الجانب الأمريكي. إن الاتهامات تُظهر عادة حقائق بسيطة ولكنها بليغة للغاية : فخلال أكثر من قرنين من عهد الاستعمار الأمريكي والذي بالتأكيد يعتبر فيه الرجل الأبيض الدخيل هو المعتدي, فحسب البيانات المختلفة فقد مات من 1 إلى 7 مليون هندي أحمر. وانخفض عدد الهنود الحمر الذين قطنوا قارة أمريكا الشمالية من 2- 3 مليون كانوا يعيشون هناك في نهاية القرن 17 إلى 237 ألف شخص في عام 1900.

دعاة المطالبة بالإبادة الجماعية يعلنون بأن الأعمال الحربية كانت مستمرة ضد الهنود الحمر, وطالت الجميع بما فيهم المدنيين المسالمين. لقد قتلوا الهنود باستمرار وأحرقوا القرى بالعشرات كما أحرقوا قواعدهم الاقتصادية والغذائية بشكل شبه كامل ,وهجروا المتبقيين من الهنود إلى أماكن غير صالحة للعيش – إلى الغابات النائية والأماكن الصحراوية وإلى المناطق الشمالية وغيرها. ونتيجة لذلك فقد أنخفض عدد السكان الأصليين لأمريكا الشمالية بشكل كارثي, واندثرت الكثير من القبائل.

تُتهم أمريكا بالعدوان السافر والصارخ ضد الناس المسالمين الذين كانوا يعيشون على أراضيهم وباستفزازها في توسعها الإقليمي, وكذلك في استخدامها تدابير قاسية وعنيفة جداً في توسعها هذا .

إن مناصري نظرية الإبادة يقولون بأن قارة أمريكا الشمالية كانت تعيش حياتها الخاصة وتمضي في طريقها الذاتية ومسارها المعين للتنمية (والذي لم يكن يتخلف عن أوروبا بشيء), ولكن تدخل العالم القديم أدى إلى انقطاع العملية الطبيعية ووضع سكان القارة الأصليين على حافة الانقراض, واندثر بعضها كلياً.

والحجة القوية هي التأكيد على " القسوة الوحشية" والتي أدت إلى اندثار قبائل بأكملها, وإلى إحراق الأطفال أحياءاً , وقد كان المستعمرون يدفعون جائزة " على كل فروة رأس أو على أي دليل مقنع آخر على قتل الهندي". وكقاعدة فإن أنصار نظرية الإبادة الجماعية و كبرهان على كلامهم يرفقونها بالعديد من الأمثلة التاريخية الحقيقية, مثل حرق 700 شخص وهم أحياء من قبيلة بيكفوت, قتل أكثر من 200 من النساء والأطفال والمسنين من قبيلة فييوت في كاليفورنيا,

قتل 300 شخص تجمعوا لحضور طقوس جنائزية في مدينة فونديدني في ولاية داكوتا الجنوبية – صُور فلم مؤخراً عن هذه الحادثة يحمل اسم " ادفنوا قلبي في فونديدني."

إن الاستياء الخاص والمفهوم من قِبل الناس المؤيدين لنظرية الإبادة الجماعية تطال الناس المبجلين الذين يعرفون لاحقاً بالحكومات أو النشطاء العسكريين أو الاجتماعيين الذين شاركوا في بعض الإجراءات والعمليات ضد السكان الأصليين في العالم الجديد. إن النشطاء الاجتماعيين يدعون من أجل تغيير واستبدال المعلومات التي تُكتب عنهم في كتب التاريخ, ويدعون إلى هدم تماثيلهم ونُصبهم ..الخ.

مثلاً : إن الشخصية البارزة في القرن 17 ناثانييل بيكون تسبب تهيجاً تقليدياً , وهو مثال يعكس وبدقة الازدواجية في النظرة وتقبل الشخصيات التاريخية من قِبل مختلف الطبقات الاجتماعية والعرقية في أمريكا. أحفاد الطبقات الارستقراطية العليا في إنكلترا المنحدرين من النسب القديم والمشهور للوردات – بيكون والذين قدَموا سلسلة من الشخصيات التاريخية الأخرى, مثل الشخصية البارزة اللورد –المستشار الإنكليزي البارون فرنسيس بيكون – مؤسس التيارات الفلسفية التجريبية ومؤلف عبارة " المعرفة –قوة" و "حب الوطن يبدأ من الأسرة" والتي لاقت رواجاً واسعاً بين أبناء شعبنا في الحقبة السوفيتية. انتقل ناثانيل بيكون إلى العالم الجديد وأنشأ مزرعتين كبيرتين ثم أصبح منظماً لانتفاضة مزارعي ولاية فيرجينيا ضد البريطانيين, وهو شخصية مشهورة جداً وشخصية شعبية جداً في صفوف الشعب.واسمه المستعار هو – الجنرال الشعبي! إن علم تدوين التاريخ الرسمي الأمريكي يتناول ناثانيل بيكون كشخص تاريخي تقدمي, استطاع إن ينفض عن نفسه لطخات نسبه ومنشأه ويقف مع الحق, وفي نهاية المطاف استطاع إن يكون رمزاً لسعي الشعب الأمريكي إلى الحرية. وهو يعتبر في تاريخ جنوب أمريكا واحداً من المقدسين, وفي مبنى مجلس النواب في ولاية فيرجينيا هناك لوحة رخامية مهيبة تضم نقوش الشخصيات البارزة, ويُسمى بيكون في اللوحة" القائد الوطني العظيم لشعب فيرجينيا."
إلى هنا لا بأس, ولكن المشكلة تكمن عندما نعلم ما يلي: إلى أي حد حارب" القائد الوطني العظيم" من أجل حرية المستعمِرين البيض, وإلى أية درجة وقف ضد حرية الهنود الحمر.

بشكل عام كان ناثانيل بيكون قاسياً جداً في علاقته معهم – قام بتنظيم الحملات العسكرية ضدهم , قتلهم, طردهم من أراضيهم وفي نهاية المطاف ضغط على مجلس الشيوخ من أجل إصدار القانون القاضي بأن يصبح جميع الهنود الحمر الأسرى عبيداً. وقد كان يقول بأنه حين يلتقي شخص أبيض بهندي أحمر فهنالك خياران فقط – إما أن يُقتل الهندي الأحمر, أو أنه يجب أن يُصبح عبداً. هكذا هو هذا العم العزيز!

إن استمعنا إلى مؤيدي هذه النظرية فقط فإننا نصل لانطباع واضح لحقيقة الإبادة الجماعية والقتل المتعمد لشعوب كاملة. كيف يمكن ألا نعترف بالإبادة الجماعية للهنود الحمر؟ فهذه كلها حقائق؟ ومع ذلك فللحقيقة جوانب عديدة ! وليست الأمور بهذه البساطة ! فلم يحصل ولو لمرة واحدة إن اعترفت ولو دولة واحدة بالإبادة الجماعية للولايات المتحدة. حتى إن احتمالاً من هذا القبيل لم يحصل ! والحديث لا يقتصر هنا على الجانب السياسي للمسألة فقط – فعدد قليل جداً من يريد إفساد العلاقات مع زعيمة العالم والقوة الأكبر اقتصادياً وعسكرياً, وكذلك لأنه وفي كل وقت كان

هناك في الولايات المتحدة أناس يستطيعون رفض وقلب كل الاتهامات بارتكاب الإبادة الجماعية على نحو مقنع ومعقول.

يمكن تقسيم الحجج المناهضة لاتهام أمريكا بالإبادة الجماعية إلى أربعة مجموعات رئيسية:

1- إن الاستعمار الأمريكي لا يشبه كثيراً المجازر ضد الشعب الأعزل والغير مقاوم – لقد كانت حرباً واسعة النطاق والتي كانت الأفضلية تنتقل فيها أحيانا وفي بعض المناطق من جانب لآخر. والهنود الحمر كانوا يبدؤون القتال مراراً. وبالتالي يقدر المؤرخون بأن ثلاثة أرباع المعارك تقريباً قد بدأها الهنود الحمر من جانبهم, وغالباً ما كانت وحشيتهم وقسوتهم سواء ضد البيض أو ضد الهنود الآخرين تُذهل الأوربيين.

2- ليس البيض فقط هم من شارك في إبادة الهنود الحمر, بل الهنود أنفسهم والذين كانوا يتقاتلون فيما بينهم ويبيدون بعضهن البعض, وخدم البعض مع المستعمرين البيض وشاركوا في العمليات العسكرية ضد القبائل المعادية لهم, وكثيراً ما كانوا يشرعون هم في مثل هذه العمليات وكانوا يحصلون مقابل ذلك على منافع مادية أو غيرها من البيض. وبالتالي فإنه في حال الاتهام بالإبادة الجماعية فإنه ينبغي إدراج الهنود الحمر أنفسهم ضمن قائمة المتهمين وهي الطريقة العادلة الوحيدة .

3- إن الغالبية العظمى من الهنود الحمر لم تُقتل بالوسائل العنيفة, لم تُقتل بالسيوف والرصاص, بل بسبب عدم وجود المناعة ضد الأمراض, التي أتتهم لا إراديا عن طريق المستعمرين الأوربيين. إن الهنود الحمر الذين كانوا يعيشون لقرون طويلة في عزلة عن العالم القديم لم يكونوا على معرفة بأمراض مثل الجدري و التيفوئيد و الدفتيريا والطاعون والكوليرا والحصبة وغيرها من الأمراض. وكانت أعداد كبيرة من الهنود تموت بسبب عدم امتلاكهم المناعة ضد الأمراض وعدم معرفتهم لكيفية معالجتها .

4- لم يكن هدف المستوطنين الجدد هو إبادة الهنود الحمر. فقد كانوا بحاجة للأرض, وعملياً عندما كان الهنود الحمر يتوصلون إلى حلول وسط مع المستعمرين لم يكن أحداً يقتلهم حينها, بل كانوا يؤمنون لهم أراض جديدة للعيش ومالاً وتعويضات أخرى سواء كانت لمرة واحدة أم بصورة منتظمة وهي مستمرة حتى أيامنا هذه.

إن الراغبين بالاعتراف بالإبادة الجماعية للهنود من قِبل المستعمرين البيض, ولاحقاً من قِبل الدولة الأمريكية هم في المبدأ ليسوا بالكثيرين. والأغلب هم من يعتبرون بأن وجهة النظر هذه غير صحيحة ومنحازة وضارة . وهم يؤكدون بأن المصطلحات الحديثة " العدوان" و " الاحتلال" والكثير من مفاهيم القوانين العصرية لا تنطبق على أحداث ذلك الزمان الذي كانت فيه الإمبراطوريات تُحرك وتغير الحدود كأحجار الشطرنج, وكانت شعوب كاملة تُهجَر وفقاً لإرادة الملوك.

إن أسماء محترمة ومعروفة من المؤرخين والسياسيين في أمريكا يقولون بأن كل تاريخ البشرية هو كعنكبوت عملاق نُسجت وتشكلت عن طريق هجرات من هذا القبيل وهي لم تحمل للبشرية الدم والموت فقط وإنما التقدم و التطور كذلك, والفضل الكبير للمستوى الحديث المتطور الذي وصل إليه العالم الآن يعود للإنسان الذي وضع عائلته يوماً على متن القارب و انطلق لغزو فضاءات جديدة بالنسبة له.

بالإضافة إلى ذلك فهم يؤكدون إنه في حال النظر إلى جميع حالات غزو الأراضي الجديدة بمقاييس مماثلة فإنه علينا الاعتراف بالهجرة العظمى للشعوب كإبادة جماعية, وكذلك بعصر الاكتشافات الجغرافية العظمى, و بإعادة توطين الهنغار من الأورال إلى أوروبا الوسطى, ويصبح عندها كولومبوس و فاسكو دي غاما عند الأوربيين ويرماك مع أفاناسي نيكيتين عندنا من أهم من يحمل صفه "حامل الإبادة الجماعية". وحتى هجرة أسلاف الهنود الحمر من القسم الشمالي لآسيا إلى القارة الأمريكية يجب إن يُقدم بوصفه عملاً من أعمال العدوان ضد القارة السلمية التي كانت تتطور على طريقتها الخاصة.

ورداً على مؤيدي الإبادة الجماعية يقول الكثير من المؤرخين الأمريكيين بأن الهنود الحمر الذين واجهوا مواطني المستعمرات لم يكونوا يشبهون إطلاقا الناس البيض المسالمين الطيبين الذين يمارسون القيم الإنسانية الحديثة. فبشكل عام كانوا قبائل حربية و كانوا لا يفهمون سوى لغة القوة . وبرأيهم فإن ذلك لم يكن قتلاً جماعياً لشعب أعزل لأسباب عرقية أو إثنية , بل كانت حرباً حقيقية امتدت لفترة طويلة و كأن الهنود الحمر خلالها قوة مؤثرة تفوق قوة المهاجرين أحيانا. وكقاعدة عامة فإن الهنود هم من كان يبدأ بالقتال وفي حال عدم قدرة المستعمرين بالدفاع عن أنفسهم فغالباً ما كان الهنود ينكلون بالمواطنين العُزل ,و كانت وحشيتهم سواء بالنسبة للبيض أو بالنسبة للهنود أنفسهم قاسية جداً. هذا ينطبق بشكل خاص على المرحلة الأولى من الاستعمار والذي أودى بحياة الكثيرين من الأوربيين بما فيهم النساء والأطفال.

وبالتالي فإن الموقف الرسمي الأمريكي يكون على النحو التالي :
من المستحيل إن نتحدث عن الإبادة الجماعية ضد الهنود الحمر .وهناك عدد من المبادئ الأخلاقية في عصرنا لا تنطبق إطلاقا على الأحداث التي وقعت في تلك الحقبة, وإن اتهام طرف واحد بارتكاب جرائم إبادة عندما يكون القتل والفظائع قد أُرتكبت من قِبل الطرفين –لا يعد منطقياً . نعم إن الأوربيين كانوا هم المعتدين ولكن ذلك لم يكن قتلاً وإبادة للناس العُزل بل كانت حرباً حقيقية وقد خاضتها قبائل الهنود الحمر وفقاً لمستوى التنمية التي كانت لديهم. لقد كانت حرباً دامية وطويلة وكانت تعقبها فترات سلم, و كان الهنود على كلا جانبي القتال وغالباً ما قتلوا بعضهم البعض, وبالتالي فإنه لا يجوز اتهام الأوربيين فقط بإبادتهم. وعدا عن ذلك فإن الأوربيين وببساطة ليسوا مسؤولين عن موت أعداد كبيرة من الهنود الحمر نتيجة المرض.

الآراء المعاصرة حول حرب القفقاس :

من الصعب ألا نتفق مع منطق نهج الولايات المتحدة. ولكن ماذا عن الحال في شيركيسيا خلال

الحرب القفقاسية؟ هل تنطبق هذه الحالة على القفقاس؟ بماذا يتهم زعماء القومية الأديغة روسيا؟ لا بأس هنا من الاستراحة قليلاً, وسأقول لكم ما هي الآراء الأكثر شيوعاً في وقتنا الحالي حول حرب القفقاس. ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة على الأقل:

1- الرأي الأول – هو الموقف " الإمبراطوري": وهو يعود إلى الإمبراطورية الروسية كبداية له وينحدر تدريجياً إلى الموقف الحكومي في أيامنا هذه. هذا الموقف يتصف بنوع من الحياد, وبتبرير ظهور روسيا في القفقاس كمصالح إمبراطورية, والحاجة إلى حماية شعوب ما وراء القفقاس, وبشكل عام الرغبة في التطوير والتقوية. . و الشركس ضمن هذا المفهوم يعتبرون " قبائل جامحة"" قبائل غير خاضعة" والتي كان على روسيا إن تُخضعها حسب قوانين التطور والتنمية الإمبراطوري لكي تدمجها فيما بعد ضمن تشكيلتها حسب مبادئ المساواة والأخوة والمصير التاريخي المشترك. وموضوع القسوة لا يوضع في هذه النظرية ,وحول أية قسوة سيكون الحديث إن كنا نتحدث عن مصير مشترك واحد, وعن شعب سوفيت...عفواً عن شعب روسي واحد؟ ولذلك فإن أنصار هذا المفهوم ينسون بشكل حاسم وكامل عن أية قسوة أو وحشية وقعت في شمال القفقاس, و كأنهم يقولون – حسناً , كان وكان , وماذا الآن؟ المهم – إننا مع بعض.

2- النظرية الثانية – وهي النظرية الموالية للروس وبوضوح, ومعظمهم من الشخصيات العامة والمؤرخين القوزاق. إنها تبرر وصول الروس إلى القفقاس وتُركز أساساً على الجانب البطولي للمسألة – بحيث تقر بشجاعة وجرأة الشراكسة المحاربين, تتكلم عن بسالتهم الذاتية وتجعل من كل الأحداث التي جرت شرعية في الوعي العام. تتكلم هذه النظرية عن القسوة أيضاً, ولكنها تتكلم فقط عن قسوة الشراكس –عن هجماتهم المتواصلة على القرى والمدن والتي كان على القوزاق إن يدافعوا عن أنفسهم في تلك الهجمات, وعن أسر الناس الروس من قِبل الشراكسة ..الخ .يتضح ويُصور ذلك بشكل كثيف من التاريخ العسكري الغني للقوزاق وفي الأغاني الشعبية مثل " سار اثنان من الشباب على الدرب..أسرعوا أيها الشباب فالشراكسة يطاردونكم من الخلف, روسلان بيك مرزا مع مقوده..." وكذلك بالقصص التي تقول بأن الوضع في القفقاس ظل لعقود بحيث كانت المرأة تذهب إلى النهر للحصول على الماء فقط بمرافقة الحراس المسلحون...الخ .

لهذه النظرية بعض البقع العمياء, مثلاً إنها تعطي الشرعية لظهور القوزاق في الكوبان بالمقولة " إن الملكة الأم قد أهدتنا هذه الأرض" متناسين حقيقة وجود أناس كانوا يعيشون على هذه الأرض" المهداة" في ذلك الوقت , وهي لا تعطي إجابة عن التساؤل القائل: ما الذي فعله القوزاق الذين لم يكن مسموحاً لهم الذهاب لجلب المياه بدون حراسة ترافقهم, و ما الذي فعله الحراس أنفسهم على الأراضي الشركسية؟ أتذكرون ما قاله غاليتشا – " أيها المواطنون, إن الوطن في خطر, فدباباتنا على أرض غريبة ! ".

إن هذه النظرية لا تأخذ بعين الاعتبار على الإطلاق شعور الظلم والاستياء القومي العميق للشراكسة على هزيمتهم القاسية وخسارتهم الحرب و ما إلى ذلك .ولكن مع ذلك فإن هذه النظرية تلقى انتشارا واسع النطاق بين القوزاق والروس في جنوب روسيا لما توفره من شروط كبيرة لراحتهم.

3- النظرية الثالثة- هي المزروعة الآن بين الشراكسة حول الحرب القفقاسية. إنها لا تتطابق مع النظريتين السابقتين بشيء ,ورغم إنها كانت في زمن الإمبراطورية الروسية وكذلك في زمن الإمبراطورية السوفيتية وكانت منتشرة بين الشراكسة ولكنها كانت بشكل آخر وكانت مخبأة بعناية, ولم تكن منتشرة بشكل كبير حينها.وخلال السنوات التي تلت انهيار الاتحاد السوفيتي أخذت هذه النظرية شكل التكوين ونمت وتطورت بشكل كبير ومتماسك وانتشرت على نطاق واسع بين الشراكسة, تحت حراسة مشددة للجدل والنقاش الغير نافع لها.

وفقاً لهذه النظرية فإن روسيا تتحمل مسؤولية كاملة عن الحرب الرهيبة, وعن بداية الحرب في القفقاس, وعن الاعتداء على الأبرياء الذين لم يُستفزوا نتيجة أعمال كهذه, وعن الإبادة الجماعية التي تم ترتيبها لعدد من القوميات القفقاسية.

وحسب هذه النظرية فإن كل الأديغة قد حاربوا ببسالة كتفاً بكتف ولمدة تزيد عن 100 عام ضد الغزاة المحتلين والجلادين ,الذي كان يمثله الروس. وبأن التفوق العددي الساحق للروس هو الذي تكفل بهزيمتهم. و أن هدف السلطات الروسية لم يكن فقط هزيمة الشراكسة كخصم عسكري ولكن تدميره كشعب, ولهذا قاموا بأعمال العنف الذي لم يشهد له التاريخ مثيلاً – أحرقوا عشرات القرى وذبحوا أمماً بأكملها , وأرسلوا وبقصد متعمد الشراكسة الأصحاء إلى الأماكن التي تعج بالملاريا, وفي نهاية المطاف طردوا كل الشعب بدون رحمة إلى تركيا مما أسفر عن موت مئات الآلاف من الشركس.

يجب إن نعترف بأن الكثير جداً من الشراكسة إن لم نقل جميعهم فعلياً يدعمون هذه النظرية بدرجة أو بأخرى, وإذا كان الجيل القديم لا يوافقها كلياً وبشكل عام يتعامل معها بلامبالاة, فإن الشباب النشطاء اجتماعياً يؤيدونها 100% تقريباً .

ما هي تهمهم الموجه لروسيا؟

لنأخذ نداء المنظمات الشركسية الموجه للبرلمان الأوروبي. إنها وثيقة مثيرة جداً للاهتمام بحد ذاتها وسنعود إليها أكثر من مرة, إليكم اقتباساً عنها:
"أثناء العمليات العسكرية جرى ما يلي :الاستيلاء على الأراضي, والحرمان المقصود للسكان المدنيين من موارد العيش الأساسية , تدمير البساتين والمحاصيل, سرقة الماسية, حرق كامل للمستوطنات المسالمة. مذابح جماعية للسكان المدنيين: النساء والأطفال والمسنين.
في منتصف القرن 19 تم كسر المقاومة المنظمة الأديغية (الشركسية). ومنذ عام 1862 يبدأ الترحيل القسري الجماعي للسكان الأصليين. يموت مئات الألوف من الناس الذين تم طردهم إلى شواطئ البحر الأسود نتيجة الجوع والبرد والأوبئة. وحسب المعطيات المخفضة لأدولف بيرغر (1828 1886) – وهو الذي كان يُعتبر في ذلك الوقت المؤرخ الرسمي للحرب الروسية القفقاسية فإنه من أصل أكثر من مليون شركسي قُتل أكثر من 400 ألف شخص وطُرد 497 ألفاً, وبقي حوالي 80 ألفاً تقريباً على الأرض التاريخية . ومع ذلك فإن متاعب شعبنا لم تنته عند هذا...

في الوثائق الأرشيفية الكثيرة هناك شهادات للمشاركين في الأحداث المأساوية وهي تؤدي للوصول إلى الاستنتاج الرئيسي – بأن الحرب التي شنتها الحكومة الروسية في القرنين 18 – 19 ضد الأديغة (الشراكس) على أرضهم التاريخية لا يجوز التعامل معها على إنها عمليات عسكرية اعتيادية. إن روسيا قد وضعت هدفاً وهو ليس الاستيلاء على الأراضي فقط ولكن لتدمير كامل للشعب أو طرد كامل للسكان الأصليين من أرضهم التاريخية. وبغير ذلك لا يمكن تفسير أسباب هذه القسوة اللاإنسانية التي أبدتها القوات الروسية في شمال غرب القفقاس.

إن عملية الترحيل القسري والتي استمرت حتى الحرب العالمية الأولى, سواء كترحيل أُسر منفصلة أو ترحيل مستوطنات بأكملها ...وعلى مدى 142 عاماً من انتهاء الحرب الروسية القفقاسية غيرت روسيا نظامها السياسي عدة مرات ولكن موقفها من الأديغة (الشراكسة) ظل ثابتاً – وهو الاستيعاب (الهضم) الثقافي القسري للسكان الأصليين المتبقين على أرضهم التاريخية ومنع عودة الأديغة (الشراكس) المطرودين (المُهجرين) من شمال غرب القفقاس".

وهكذا فلنلخص كل ما ورد أعلاه:
وحشية لا تُصدق, الرغبة في تدمير أو تهجير شعب بأكمله, ترحيل قسري ,الإكراه على الاستيعاب الثقافي, ومما لاشك فيه النتيجة الطبيعية المنطقية: " نطلب من البرلمان الأوروبي بشكل كامل وموضوعي النظر في نداءنا والاعتراف بالإبادة الجماعية للشعب الأديغي (الشركسي), التي قامت بها الدولة الروسية منذ نهاية القرن 18 وحتى بداية القرن 20" .

العنف :

كما نذكر فإن إحدى الأسباب التي جعلت الهنود الحمر يطالبون بتوصيف ما جرى في القارة الأمريكية الشمالية هو تحديداً عنف البيض ضد السكان الأصليين للقارة.

هم يقولون بأن المستعمِرين كانوا يدمرون قرى بأكملها ومخيمات بوحشية ,ويقتلون النساء والأطفال وكانوا يقتلون الناس الأبرياء عمداً. ومع ذلك فإن العلوم الرسمية ترد قائلة بأنه لا يمكن تصنيف أعمال القادمين إلى القارة كإبادة جماعية وذلك لأن تلك كانت حرباً بمعنى الكلمة,حيث قاتل الهنود فيها ضد الأوربيين وكثيراً ما كانت الأفضلية لهم, أما فيما يتعلق بالمدنيين فإن الهنود أنفسهم كانوا يتصرفون بنفس الطريقة إن لم يكن أسوأ.

كيف كان الحال في القفقاس فيما يخص هذا الأمر؟

في الحديث حول اتهام الأديغة للحكومة الروسية ينبغي إن نُثبت ونُقر بالتطابق التام للحجج والأدلة الشركسية مع حجج الهنود : إن الشراكسة يتحدثون أيضاً عن " العنف اللاإنساني الذي أبدته القوات الروسية في شمال غرب القفقاس" وعن " المجازر الجماعية ضد المدنيين من نساء و أطفال ومسنين" وعن " إحراق القرى المسالمة بالكامل" وغيرها... تطابق تام ! هل تتطابق حجج

خصومهم الروس والأمريكان؟ .. تعالوا لننظر في الأساسيات ــلنلق نظرة على بعض الحالات الحقيقية من ذلك الوقت ولنقدر إن كانت هنالك " قسوة لا تُصدق" وضد من كانت موجهة ومن أظهرها .

أيار 1807 – عدة آلاف من الخيالة الشراكسة برئاسة الأمير سلطان جيري هاجموا مدينة فوروفسكوليفسكايا. وكان يوجد فيها مقر قيادة فوج الدون بقيادة بيرسيانوفا. .قامت معركة كبيرة وقد دافع عن حصن فوروفسكوليفسكي فوج المشاة من الفيلق العشرون وفوج فرسان نيجيغورودسك. وفي المحصلة رجال بيرسيانوف (وكان معهم 52 قوزاقياً (تمكنوا من إنقاذ قسم من السكان وأعلام الفوج والبنادق " وقتلوا" حوالي 300 من الجبليين. ونجا من الهلاك الكامل للمدينة سريتان للخيالة مع مدفعيتهم, أما الخسائر : مقتل الكثير من الناس, أسر الجبليون 136 رجلاً و 179 امرأة, أخذوا الماشية والأموال والأمتعة.

أثناء القتال في المدينة تم أسر عائلة بيرسيانوف (زوجته وابنته المتبناة وحفيدين له). وطالب الجبليون بفدية 1000 روبل ولم يكن يملك هذا المبلغ. فاقترضه من المبالغ العسكرية التابعة لجيش الدون, وقد كفله العقيد بيخالوف الأول. تم افتداء عائلة بيرسيانوف, ولكن بعد عام لم يتمكن من دفع القرض في موعده.فدفع العقيد بيخالوف من ماله إلى الخزينة.

تشرين الثاني 1812 – قرية كامينوبرودسكايا- تجمع حوالي 8000 من الجبليين من اجل " الهجوم عند التقاء خطوط الطوق على أماكن مختلفة". في 7 تشرين – توجه حوالي 5000 تجمعوا من 9 قبائل من ما وراء الكوبان و عبروا الكوبان و هجموا على مدينة كامينوبرودسكايا . أحرقوا 35 منزلاً, قتلوا ما يقارب 300 شخص وأسروا 350 شخصاً (وتقول مصادر أخرى 200 شخصاً) وصادروا حوالي 5000 رأس من الماشية.

أيار 1823 – هاجمت مجموعة جنبلاط على مدينة كروكلوليسكايا. وكان الفلاحون أنفسهم مسؤولون عن جزء من المحنة التي أصابت القرية – فقد كان في القرية سرية تابعة للفوج الكابارديني للنقيب تسيكلاوروف, ولكن الرجال أصروا على رحيلها بسبب غيرتهم على زوجاتهم من الجنود, وفي 13 أيار غادر تسيكلاوروف القرية, وعندما علم بأمر الهجوم عاد أدراجه إلى القرية ولكن الجبليين منعوا فرقته ,وفقد 25 جندياً ولكنه تمكن من الوصول إلى القرية وأنقذها من الدمار الكامل والمذبحة. أخذ جنبلاط بالتراجع, الجنرال ستال الذي أُبلغ عن المذبحة (مع مفرزة تضم 250 جندياً و 200 قوزاقياً مع البنادق) ضم إليه القوزاق من المراكز وتوجه إلى مكان المجموعة الشركسية. وفي نفس الوقت عبرت فرقة العقيد أورنيجيفسك الكوبان و اتجهت صوب نهر لابا قاطعة الطريق على الشراكسة. وتأخرت فرقة مشاة ستال بسبب الطقس العاصف .وعند معبر نيفينوميسك التقى الشراكسة مع فرقة الجنود وفوج الرائد ستيبانوفسك ومعهم مدفعيتين. وبسبب الأمطار لم تعمل البنادق, وأدى قتال الالتحام إلى ذبح ما يقارب 150 من الشراكسة (قُتل أثناء الهجوم بأكمله 250 جبلياً). وكان الجبليون قد ذبحوا الأسرى وأغرقوهم في الماء .

قُتل في كروغلوليسك 50 شخصاً, و41 جريحاً, و345 أسيراً, سرقوا 677 حصانا و1067 رأس ماشية وسرقوا الأموال(حتى إنهم نبشوا القبور في المقبرة).

تموز 1823 – تنظم القوات الروسية "انتقاما" لهجوم جنبلاط. عبرت القوات الكوبان و وصلوا إلى زيليبونجوك واحتلوا 5 قرى للناغويين. وكان من ضمن الأسرى ثلاثة أمراء مع عائلاتهم وأقربائهم, وعدد كبير من " الناس البسطاء". وعادت الفرقة أدراجها في 2 تموز مع عدد كبير من الأسرى والماشية. وصل حوالي 1000 شخص من " الكاباردينيين الفارين" و البيسلانيي والأبازين والابازيخ لمساعدة الناغويين. وحطمتهم القوات الروسية قرب وادي تاختاميشسك. وكانت نتائج الحملة: فقد الجبليون الكثير منهم مابين قتلى وجرحى, وأسر 1467 شخصاً و2000 رأس غنم وحوالي 5500 رأس ماشية. أرسل الرجال الأسرى إلى غيورغيفسك إلى الأعمال الحكومية, ووزعوا النساء والأطفال والمسنين على القرى. وكانت الخسائر الرسمية للفرقة: مقتل جندي واحد و2 من القوزاق, و2 لقوا مصرعهم غرقاً , جرح جندي واحد و8 من القوزاق.

نيسان 1823 – فرقة فيليامينوف المؤلفة من (3 من كتائب المشاة و أفواج الكوبان و القفقاس, و18 من المدفعية للمشاة والخيالة) عبروا أوكوبا لاحتلال " القرى الكاباردينيه للفارَين" خلف نهر لابا .وأرسلوا مفرزة العقيد فيودر بيكوفيتش تشيركاسكوف (وهو نصف شركسي) لاستطلاع مواقعهم .واكتشف خلف لابا قرية محصنة " للأمير الكاباردينى "الفَار" علي كارامورزين. تم إحراق القرية ولاقى سكانها حتفهم في الحريق(معهم 68 شخصاً من النبلاء). وأسفر ذلك عن مقتل حوالي 1000 شخصاً من الكاباردينيين وأسر 139 شخصاً, و 4000 رأس ماشية وأحصنة .أما خسائر الفرقة – 3 قوزاقيين جرحى اثنان منهم بجروح مميتة.

كانون الثاني 1824 – انطلقت فرقة كاتسيرييف من أوست لابينسك(2357 من المشاة, 950 صفاً و14 مدفعية) إلى قرى الأمير ميسوست آيتيكا لإيقافه, ولكن عندما فقده "انفجر كاتسيرييف غضباً"على البجدوغ الذين لم يكن لهم أيه علاقة بالمقصد الأساسي للحملة. وقبل اقتراب الفرقة أخذ المسنون والنساء و الأطفال بالخروج من القرى تحت ستار من حماية الخيالة, ولكن صفوف كاتسيروف لحقوا بالقافلة وحاصروها. وقع في الأسر 150 شخصاً فقط, أما الآخرين الذين حاولوا المقاومة فقد لاقوا حتفهم. وعاد كاتسيروف في 14 كانون الثاني مع الأسرى و1000 رأس ماشية. وجه له القيصر توبيخاً على(القسوة الزائدة).

هذه بعض من القصص والتاريخ, ليست مخبأة, عارية. أي الأعمال أكثر وحشية – الجيش الروسي أم الشراكسة؟ لا أعرف. حتى إنني لا أريد المقارنة والاختيار ! و إلا فإنه سيتعين علينا افتراض إن حياة أو معاناة ممثلي طرف منهم –الطرف الروسي أو الشركسي – أحب وأغلى بالنسبة لنا من حياة الناس الذين ماتوا على الطرف الآخر.

إن التاريخ والمؤرخين الأمريكان يتبنون مثل هذا الموقف تقريباً مؤكدين بأنه خلال العمليات الحربية أظهر كلا الجانب ين العنف والمعاملة اللاإنسانية تجاه المدنيين ومن غير القانوني الآن اختيار أحد الطرفين و إظهار معاناته ونسيان ما يسمى حسب معطيات القانون الحديث جرائمه.

من- غير – القا- نوني ! ومن وجهة نظر التاريخ والقانون والمبادئ الأخلاقية!

وعلاوة على ذلك فإن تاريخ الحرب القفقاسية يعطينا في هذا الصدد تطابقاً وتيرياً لافتاً لهذه الحرب مع تلك التي حدثت على القارة الأمريكية ,عملياً تطابقاً 100% !

في بداية غزو الأمريكيتين كان المستعمرون قليلو العدد فريسة سهلة للهنود الحمر بأعدادهم الهائلة – والذين دمروا قرى المستعمرين وقتلوا السكان وأحرقوا المحاصيل وقتلوا العائلات الذين استقروا بعيداً عن التجمعات الكبيرة. إن الوحشية التي أظهرها الهنود الحمر تتطابق كلياً مع ما يتهمون به الآن المستعمرين. وعندما تماسك وتقوَى موقف المستوطنين عندها انقلب الموقف بصورة معاكسة تماما. وأصبح الهنود الحمر في موقف الضحية. وفي زمننا هذا ينسى أحفاد " ذوو الجلد الأحمر" نهائياً الفترات الأولى "هذا أذكره – وهذا لا أذكره" ويبنون مواقفهم حول ضحايا الإبادة الجماعية فقط على الجزء الثاني من غزو القارة والذي يبدو فيه أسلافهم بدور المُذلين والمُدمرين.

حتى أواخر العام 1810 كانت السياسة الروسية دفاعية واضحة. وخلال ما يقارب 50 عاماً التي شملت الأديغة في الحرب القفقاسية والتي يُعزوا إليها الإبادة الجماعية التي لا مثيل لها في التاريخ كانت روسيا تقف على الضفة اليمنى لنهر الكوبان على الأراضي السابقة للناغويين, ولم تتطاول و لا بشكل على أراضي تشيركيسيا, ولم تكن تعبر الكوبان و لابا إلا في الحالات القصوى, على مضض وفقط رداً على غارات الجبليين. وفي ذلك الوقت لم يكن هناك سوى حصن (مزدوك) والذي بُني هناك بناءاً على طلب مالك تلك الأماكن الأمير الكابارديني كورغوك كإنجوكينا.

خلال تلك الفترة كلها كانت روسيا تتكلم عن السلام مع الجبليين وتحاول الوصول إلى حلول معهم دون الدخول في الصراعات , وحتى عندما كانت تقوم بذلك فإنها كانت فقط كرد على هجماتهم وفقط على الأراضي الروسية, و لا تدخل أراضي الجبليين. حتى إنه وفي أحد الأوقات كانت هناك قاعدة تمنع القوات من عبور الكوبان إلا بموافقة شخصية من القيصر بآفل الأول.وكان مخالفو هذه القاعدة يُعاقبون بقسوة بغض النظر عن الظروف التي تمت فيها هذه المخالفات.

فعلى سبيل المثال : في عام 1797 قام حوالي 300 من قوزاق الكوبان عبور نهر الكوبان و ذلك رداً على الهجمات المتكررة للجبليين والتي أوصلت القوزاق إلى وضع شبه بائس, عبروا النهر بشكل ذاتي وهجموا على قرية شركسية وأخذوا منه ما يقارب 5 آلاف رأس غنم, وعندما علم القيصر بافل الأول بذلك أمر بإعادة الأغنام إلى الشراكسة وبتقديم قائد الفوج إلى المحاكمة, و بإبلاغ القوزاقيين باسمه بأنه في حال تكرار المشاركة في مثل هذه الهجمات فإنه سيسلمهم إلى الشراكسة.

من المثير للاهتمام قراءة المراسلات الروسية التي تعود لتلك الفترة. سنجد إن كل المراسلات العسكرية تقريباً في القفقاس الغربي كانت مُشبعة بروح إن لم نقل بأنها روح تولوستوي فإنها على الأقل لم تكن روحاً استفزازية للأديغة. وإن مثل الغارات المذكورة في الأعلى فإنه يُشار إليها " كدعابة" وكان القادة العسكريين يُنصحون بمنعها, وبالضغط على الشراكسة الذين يدخلون الأراضي الروسية وعدم قتلهم إلا في الحالات القصوى.

ووفقاً للكثير من الأدلة فإن كل ما كان يحدث حينها لم يكن يعتبره الأديغة أنفسهم حرباً وطنية وكفاحاً من أجل الحرية – عن أية حرية, من الذي اعتدى عليها؟ خلال عقود طويلة كانت العالم الروسي ينتهي عند الضفة اليمنى للكوبان و لم يكن يكن هناك رغبة عند الروس لاحتلال أراضي الأديغة, و لا لضمها وإعادة ترتيبها. وعلاوة على ذلك فإن الشراكسة حينها كانوا يرون في قرى الجيران الروس الغير محميين جيداً هدفاً ممتازاً وكان أمراً عادياً بالنسبة لهم الإغارة على النظام الاقتصادي حيث كان نهب الجيران يشكل جزءاً أساسياً من أشكال تامين الحياة المعيشية, و كان شكلاً من أشكال النشاط الذي تشارك فيه كل الطبقة الحاكمة في المجتمع الأديغي تقريباً – الأمراء والنبلاء .

في ذلك الزمن كان الوعي العام في مجتمع الجبليين يبرر ويمجد الغارات ويعتبرها أمراً طبيعياً وضرورياً. وكانت المفاهيم الشائعة عند الأديغة لا تعتبر النهب والاستيلاء على الناس جريمة بل شجاعة وبسالة وكانت أكثر مهنة تحظى بالاحترام في المجتمع, وكانت إلى حد كبير ترقى إلى مرتبة التقديس والعبادة. عدا عن إنها لم تكن تخص النبلاء فقط -فطبقة النبلاء وببساطة كانت لا تقوم سوى بهذه الأفعال ولم تقم بغيرها – وهي كانت تخص حتى طبقة الفلاحين الأحرار. وقد كان مفهوم " الغارات الموسمية" معروفاً بين القوقازيين, والتي كانت تقوم عادة في فترة الخريف والشتاء عندما تنتهي أعمال الأرض ويمكن للفلاح عندها بالقيام بأعمال أخرى.

وصف خانجري تلك الفترة بشكل جيد – وهو أحد الكُتاب الأديغة وهو من المعاصرين تقريباً : "الخيالة في السهول مابين الكوبان والدون, كما الشُهب كانوا يطيرون في السهول ويتركون آثار الدماء وراءهم في كل مكان" وكمثال على مثل هذه الآثار لنتذكر الغارة التي قام بها الأمير سوكور أرسلانبيك حجي عام 1771 على الموقع الدوني رامانوفسك ,وقتها لقي ما يقارب نصف سكانها مصرعهم ووقع النصف الثاني في الأسر وتم سوقهم إلى ما وراء الكوبان. وكقاعدة عامة فقد كان مصير مثل هؤلاء الأسرى حزيناً – فقد تم سوقهم إلى الشاطئ وبيعهم إلى تركيا. أتذكرون بوشكين "يحملون العبيد الذين أُسروا في المعركة بسفن إلى أنابا".

تتغير كل الأمور بوصول يرملوف إلى القفقاس, هو تحديداً وكذلك مؤسس أرمافير –الجنرال زاس كانوا يكرهون أهالي شمال القفقاس , جاؤوا مع قوات خاصة ,- كهنود حمر بيكون-, وتماثيلهم بالتحديد هي التي كانت تُدمر في غروزني بشكل دوري في العهد السوفيتي من قِبل الشيشان " الممنونين ."

مع قدوم يرملوف إلى القفقاس اختلفت سياسة روسيا تجاه القفقاس كلياً, ولكن أساس مفهوم هذا التغيير لم يكن أبداً كما ينتقده الكثيرون من الإنسانيين القوميين الحاليين في كتاباتهم. – لم يكن الإفراط في العنف ولا في قتل الناس الأبرياء – فيرملوف كان أول من فهم بأنه لا يمكن إدارة الحرب في القفقاس على المبادئ الأوروبية وانتقل إلى القواعد والأعراف المحلية في أعماله العسكرية.وهذا يشمل أوامره التي كانت تنص على ضرورة الرد والعقاب القاسي على كل هجمة, وعلى سياسته المتمثلة في أخذ الرهائن) الأمانات) من القرى, والتي لم يكن متعارفاً عليها أبداً في

أوروبا, وتحولت عمليات القوات الروسية معه إلى غارات مماثلة والتي كانت تؤدي حتماً إلى قتل المدنيين ,وبالطبع فقد كانت إحدى أساليب تكتيكه الحربي تتمثل في استمالة الجبليين كي يقاتلوا أنفسهم.

هل كان ما يقوم به عنفاً؟ نعم بدون شك ! ولكنها كانت نفس السياسة التي اعتمدها الجبليون أنفسهم ولعقود طويلة. لقد كانت تلك سياسة وكان هدفها (وبالتأكيد ليس الهدف الوحيد) إلى حد كبير هو تحييد الغارات الأديغية!

هل يمكننا الآن أن ننسى الهجمات الكثيرة العدد والمستمرة للشراكسة على الخط الكوباني في المرحلة الأولى من الحرب والتي لم تكن تشكل تهديداً للأراضي الشركسية, وإن نتذكر فقط معاناة الأديغة في المرحلة الثاني ة من الحرب؟

وهل من العدل إن نرى فقط الرؤوس الشركسية المعلقة على قمم رماح الجنرال زاس ونُجبر أحفاد مئات القتلى أو الذين أرسلوا إلى العبودية من سكان قرية رومانوف أن ينسوا كلياً معاناة أسلافهم ويعتبروا ما قام به زاس إبادة جماعية فظيعة فقط؟

عدل ! يقول لنا القادة المعاصرون للمجتمع الأديغي... غير عادل – يقول لنا العلماء والسياسيين الأمريكان حول الوضع نفسه الذي كان عليه خلال فترة استعمار القارة الأمريكية الشمالية .
لجأ كلا الطرفان في أعمالهما إلى العنف والبربرية وتحت هذه الظروف لا نستطيع إن نعتبر أي طرف كضحية مطلقة والطرف الآخر كجلاد معتد مطلق.

هكذا يجادل القادة الأديغة -ولكن الشراكسة كانوا على أراضيهم ودافعوا عن وطنهم, مما يعني إنهم قاموا بحرب عادلة ! ...نعم ولا..! في الواقع ومن وجهة نظر الأخلاق في عصرنا ممكن القول بأن الشراكسة في المرحلة الثانية من الحرب القفقاسية دافعوا عن أرضهم ضد القوات الروسية الغازية .و لكن عن أي وطن دافعوا خلال 50 عاماً قبل ذلك؟ عن أي وطن دافعوا في قرية رومانوفسك وقرية كامينوبرودسك؟ حماية أي وطن حققت لهم مبيعات سنوية لآلاف العبيد في تركيا؟

كل ذلك لا يهم ! فإنه غير مرتبط بمسألة الاعتراف بالإبادة الجماعية بحال من الأحوال – فالإبادة الجماعية لا تعرف حروباً عادلة أو غير عادلة, إنها لا تعترف بالنفعية السياسية للصراع وتعتمد فقط على مفاهيم الأعمال المقصودة والواعية في تدمير شعب بأكمله.

افهموني بشكل صحيح, فأنا أبعد ما يكون عن التفكير بتبرير الحرب القفقاسية بأنها محاولات روسيا الرامية إلى تأمين حدودها ضد الغارات الشركسية ووقف تجارة الرقيق في القفقاس, رغم أن هذه النظريات لا تعاني من النقص. أنا واثق بأن أساس الحرب هي أمور أعمق بكثير من ذلك .

لا يجوز – غير صحيح وجنائي ! –أن نغلق أعيننا كلياً عن الفظائع التي ارتكبها أحد أطراف

النزاع و أن نحمل العدسة المكبرة باحثين عن أي مفسدين في جهة واحدة فقط ونُحملها كلها على الطرف الآخر!

إن إفلاس و بطلان نظرية الإبادة الجماعية للشركس واضحة عند مقارنة الوضع في القفقاس مع أي اعتراف لإبادة جماعية لا جدل فيها. مثلاً مع مقارنتها مع الإبادة الجماعية لليهود خلال الحرب العالمية الثاني ة. من الآن و صاعداً سنقارن كثيراً بين هاتين الحالتين في محاولة لمقارنة ما حصل في الحالة الأولى مع مثيلتها في الحالة الثاني ة, فإنه في حال تكلمنا عن الإبادة الجماعية هنا وهناك فيجب أن تكون هناك حالات للمقارنة و التطابق.

وهكذا دعونا نتصور العام 1942 واليهود الذين تعرضوا للإبادة الجماعية ونقارنهم بالأديغة...لنقل بأن اليهود نظموا هجمات على ..لنقل على المنطقة الحدودية الألمانية كينيغسبيرغ. العسكر اليهود الجامحون غزو المدينة, و الوحدات المؤلفة من محاربين يهود عظماء و مشهورين و يعيشون مع" السيف" يطيرون إلى المدينة الألمانية النائمة و الغير محمية. اليهود يقتلون و يحرقون و يحتلون و يستولون بصورة عشوائية على النساء والأطفال كي يأخذوهم إلى بلادهم اليهودية و يقتلون قسماً منهم بسبب عدم انتمائهم إلى القومية الألمانية,و يجبرون قسماً منهم على العمل لحسابهم كوحوش بكماء ويبيعون قسماً منهم. وبعد حصولهم على عدد وافر من الأسرى يغادر اليهود و تلاحقهم الفصائل الألمانية أقارب الأسرى. يتم قتل بعض الأسرى الجرحى, وهم يعلمون بأنه لا يمكن أخذ جميع الأسرى, فيقتل اليهود قسماً من الألمان عند الخط الأمامي ويأخذون القسم المتبقي معهم.

هل تصورتم ذلك؟ إنني على يقين بأنكم لم تتصوروا ذلك, حتى لو كنتم تتمتعون بخيال واسع و واسع جداً... وهذا هو سبب اعترافنا بالإبادة الجماعية لليهود.. أما بالنسبة لحالة الأديغة ..فانتظروا.. لنتابع !

الأمراض :

إنها إحدى الحقائق التي يتناساها مؤيدو نظرية الإبادة الجماعية للهنود الحمر. و الحقيقة أن الذين يتهمون أمريكا و المستعمرين الأوربيين بمقتل ملايين الهنود الحمر لا يأخذون بعين الاعتبار مطلقاً حقيقة موت ما لا يقل عن نصف السكان الأصليين للقارة الأمريكية بغير رصاص الأوربيين أو بضربات سيوف الفرسان الأمريكيين , بل توفوا نتيجة الأوبئة و الجوع و الحرمان و غيرها. و بطبيعة الحال فإن الأوبئة و الجوع و الحرمان كانت موجودة في أمريكا حتى قبل اكتشاف كولومبوس للقارة, و لكن المستوطنين البيض جلبوا معهم عدداً من الأمراض التي لم تكن تعرفها شعوب الهنود الحمر من قبل, و لم تكن لديهم الحصانة ضدها و لا يعرفون طرق علاجها. مثل التيفوئيد و الطاعون و غيرها..-و التي أدت إلى موت الهنود واحداً تلو الآخر و بالعشرات و المئات أو قرى و قبائل بأكملها .

و لماذا؟ يسأل معارضو نظرية الإبادة الجماعية ,لماذا يتهمون المستعمرين البيض بموت الهنود الحمر بالأمراض؟ كيف يمكن أن يتساوى قتل الإنسان بالطرق الوحشية مع وفاته بالأوبئة؟ حيث

أن الأوربيون لم يتعمدوا جلب الأمراض الرهيبة إلى أمريكا, و باستثناء حالة معروفة وحيدة فهم لم يقوموا بعدوى الهنود الحمر بشكل مقصود. ونحن لا نتهم مثلاً الأفارقة الآن في أن مرض الإيدز قد ظهر أو ولد عندهم؟ و لا نتهم الهندوس بشأن إحدى الروايات التي تتكلم عن أصل الجذام وتقول بأن الهندوس قد قاموا بعدوى جنود في جيش الكسندر المقدوني, وحمل الجنود هذا المرض الرهيب معهم إلى أوروبا. إن مات شخص ما في مكان ما فإننا لا نتهم جاره بموته!

هل يمكن أن نعزو ما قلناه إلى الوضع في القفقاس؟ تقول رسالة الشراكسة إلى البرلمان الأوروبي " أنه قد توفي أكثر من 400 ألف شخص في الحرب من أصل ما يقارب المليون شخص" إنه رقم كبير ! وكم عدد الذين لقوا حتفهم في القتال؟ كم عدد الأشخاص الذين قتلهم الروس من أصل هذا العدد؟

10 % فقط من أصل 400 ألف ماتوا نتيجة الاشتباكات المباشرة مع القوات الروسية. وقد ترك الجنرال ر. أ. فادييف مذكرات مثيرة للاهتمام بهذا الخصوص – وهو ضابط روسي رائع, و كان شجاعاً وذكياً و يشارك شخصياً في الهجمات و كان ماهراً في التخطيط العسكري. وبالمناسبة فقد كان فادييف ضابط أركان عند الجنرال بارياتينسكي وقد خطط شخصياً لعملية احتلال قرية غونيب التي أسر فيها شامل .وهو الذي وضع الأمر الذي أصدره بارياتينسكي والذي وضع نهاية للحرب في القفقاس الشرقي :"لقد أخذنا قرية غونيب. و شامل في الأسر. أهنيء الجيش القوقازي."

لقد كان رجلاً, وكان يعتبر علم شامل الذي أهداه إياه الأمير بارياتينسكي الوسام الأغلى بالنسبة له من بين الأوسمة الكثيرة التي حصل عليها. وهكذا فقد كان الجنرال فيدوف يعتبر" لم يمت أكثر من 10% نتيجة الحرب, أما الباقي فقد توفوا نتيجة الحرمان و الشتاءات القاسية التي قضوها تحت العواصف الثلجية في الغابات وعلى الصخور العارية ".. و بالمناسبة نقول بأن المؤرخين الأديغة وشخصياتهم الاجتماعية تحب جداً الاقتباس من الجنرال فيدوف. ولكن الحقيقة أنهم يأخذون من تراثه الأدبي الكبير جملتين أو ثلاثة, وينسون كل الأمور الأخرى. ومن الآن فصاعداً سأقوم مراراً باقتباس جمل فيدوف و التي لا يقومون بذكرها. ولكن دعونا نتكلم عن كل شيء بالترتيب.

و لحسن الحظ لم تكن الأوبئة الجماعية الغير معروفة منتشرة في القفقاس كما كانت في أمريكا, ولكنها لعبت دوراً كذلك في "إخضاع" المنطقة. كان وباء الطاعون هو المرض الأكثر خطورة في ذلك الوقت. ولم يكن هذا المرض جديداً بالنسبة للشراكسة, و كان ينتشر بشكل دوري في شمالي القفقاس قبل تغلغل الروس, حيث اجتاح هذا الوباء منطقة القبردي أعوام 1736 – 1737 .و على سبيل المثال فإن يوهان بلارامبيرغ يعتقد بتغلغل وباء الطاعون إلى أراضي تشيركيسيا عن طريق تركيا التي كانت تتعرض مراراً إلى اجتياحات كبيرة لهذا الوباء ,ومنها تغلغلت مراراً إلى البلدان الأوروبية بما فيها روسيا. "بسبب هذه التجارة تغلغل إليهم الطاعون و قتل أطفالهم مما أدى إلى انخفاض ملحوظ في عدد السكان".

اجتاح الطاعون العنيف القبردي منذ عام 1804 حتى 1826 وقضى حسب بعض البيانات على نصف أو ثلثي سكانها, وهذا ما أدى إلى هجرات خطيرة للقباردينيين إلى مناطق أخرى في

القفقاس سواء تلك التي كان يشغلها الروس أو لا يشغلونها بما فيها الشيشان, ولعبت هذه الهجرات دوراً في "تهدئة" المنطقة .

ونتيجة للأعمال الحربية وللوباء القاسي الطويل والهجرة الواسعة فقد تبقى في منطقة القبردي حسب بعض المعطيات من 30 ألفاً –إلى 60 ألفاً من السكان الأصليين وذلك من أصل 350 ألفاً. كتب يرملوف " لقد كان وباء الطاعون حليفنا ضد القبردي, حيث أدى إلى تدمير سكان كاباردا الصغرى, واجتاح كاباردا الكبرى وأضعفها بحيث لم تعد قادرة إن تتجمع بقوى كبيرة كالسابق"... ولكن كما تعلمون فإنه لا يمكن الادعاء على الطاعون في البرلمان الأوروبي ولذلك يقوم الوطنيون القوميون المعاصرون الآن بتحميل الروس أعداد قتلى القباردي الذين فتك بهم الطاعون.

المرض المنتشر الآخر في ذلك الوقت كان الملاريا. حالياً فإن عدداً قليلاً جداً من الناس يعرفون بأن كثير من المناطق التي تعتبر مفيدة ومناخها مفيد حالياً كانت قبل أقل من قرن تشكل خطراً على الصحة وكانت وبدون مبالغة تُعد مناطق قاتلة. في ذلك الوقت كان في القفقاس الكثير من مناطق المياه التي نسميها الآن – إنافيلوغيا- أي تلك التي يتواجد فيها البعوض حامل الملاريا. كانت تلك المياه والمستنقعات كثيرة ,مثلاً في مناطق سوتشي و سوخومي الحالية. ومن المعروف بأن الأبخاز و الوبيخ لم يرغبوا بالعيش في المناطق المنخفضة بسبب الملاريا- وكانوا يرغبون بالعيش في أماكن مرتفعة .

كان هنالك الكثير من هذه المياه كذلك في المنتجع الحالي بيتيكورسك..الخ. وتم تجفيف الكثير منها مابين 1920 -1930, ولكن بقي البعض منها حتى عام 1950, أي في ذاكرة جيل لا يزال حياً. وحسب ذكريات سكان سوتشي فإن نصف الذين يرتادون الأطباء كانوا يحملون تشخيص هذا المرض. كانت الملاريا مرضاً واسع الانتشار. وببساطة نقول بأنها كانت مندلعة في القفقاس, وخصوصاً في مناطق تواجد المياه, وهناك الكثير من الحالات المعروفة التي كان يتخلى فيها الشراكسة عن قراهم ويذهبون إلى الأماكن التي تخلو من بعوض الملاريا.

ولم تكن حالات المجاعة نادرة في الجبال. ففي النصف الأول من القرن 19 حصلت الكثير من حالات المجاعة الشديدة – في 1829, 1840 , 1845, 1846 .1859 , وكقاعدة فهي تحدث نتيجة سوء المحاصيل وتؤثر بشكل عام على الشعوب الشركسية التي تعيش في الجبال الذين يملكون كمية محدودة من الأراضي الصالحة للزراعة لأسباب طبيعية بحتة –و هم الأبازيخ و الماخوشيف و يغيروخاييف .

ربما يمكنك أن تقول بأن فشل المحاصيل الزراعية كان إلى حد ما ناجماً عن انشغال الشعب بالأعمال الحربية وبالشوق للقتال, ولكن الاقتصار على هذا السبب فقط هو خاطئ تماماً. فعلى سبيل المثال فقد حصلت المجاعة الشديدة جداً عام 1859 بسبب الجراد الذي أتلف المحاصيل.كما توفي الكثير من الشراكسة أثناء الترحيل المأساوي عام 1864 بسبب الجوع والحرمان. (سنتكلم عن هذا لاحقاً بشكل مفصل).

إن وصف معاناة الناس الذين يريدون ترك وطنهم ويعيشون في تركيا لا أظن أنها ستدع أحداً في

حالة من عدم اللامبالة. يصف يا. أبراموف عملية طرد الشراكسة في كتاب " الجبليون القفقاس" قائلاً :"لا يمكن وصف المعاناة التي عاناها الجبليون في ذلك الوقت..يتحدث أحدهم عن جثة الوالدة التي يمص الرضيع صدرها , وآخر –عن أم تحمل بين يديها طفلين ماتا تجمداً من البرد وهي لا تريد إن تفارقهما ,وثالث – عن كومة من الجثث البشرية المتلاصقة أملاً في الحفاظ على الحرارة الداخلية والذين ماتوا تجمداً على وضعهم هذا".

يصف هذا الكتاب كيف كان الشراكسة يتوجهون إلى المدن الساحلية –أنابا, طوابسه , نوفوروسيسك وإلى الخلجان الصغيرة التي لم تكن تشغلها القوات القيصرية بعد. وكان من الممكن انتظار وصول السفن ووصول دورهم بعد أشهر من الانتظار تحت الهواء الطلق, وغالباً بدون وسائل معيشية. هلك الآلاف من الناس نتيجة الجوع والمرض, ويُضاف البرد شتاءاً لهذه الآفات. يقول شهود عيان بأن جثث المتوفين والمحتضرين تناثرت على طول شاطئ البحر الأسود, وكان يرقد بينهم أحياء ينتظرون إرسالهم إلى تركيا. ولكن ويلاتهم استمرت في تركيا, حتى إنها تضاعفت.

بدون شك, فإن ترحيل الشركس وإعادة توطينهم ينبغي إن تُعتبر واحدة من أكبر مآسي الشعب الأديغي, ونتيجة طبيعية للحرب القفقاسية ولجميع الأخطاء التي ارتكبها الأشخاص من طرفي الحرب.

هل يمكن اعتبار موت الآلاف الكثيرة من الشراكسة نتيجة الأمراض والحرمان الحاصل خلال فترة حربية طويلة (والتي كانت إلى حد كبير نتيجة للأعمال الحربية والهزيمة العسكرية للشراكسة) دليلاً على إبادة جماعية شنتها عليهم روسيا بهدف تدمير كل الجبليين من جذورهم؟

دعونا نسأل أنفسنا – هل جلب الروس هذه الأمراض إلى القفقاس؟ هل قاموا بعدوى الأديغة عمداً بها؟ هل خلقوا وعن قصد وضعاً ميؤوساً منه وبدون خيارات أدت إلى موت الشراكسة لا محالة وبعلم ووعي من القيادات الروسية؟ ربما وقع المرض و الحرمان بشكل انتقائي ولم يمس سوى الشراكسة؟

لقد كان وضع القوات الروسية والمستوطنين يماثل وضع الشراكسة. و حصدتهم الأمراض تماماً كما حصدت الشراكسة. ويعتبر لديهم كذلك بأن 10 % فقط من الجنود والضباط الذين ماتوا في الحرب القفقاسية قد ماتوا أثناء العمليات الحربية. والباقي نتيجة الأمراض و الحرمان و انعدام الرعاية الطبية.

لقد كان مرض الإسقربوط و التيفوئيد و الملاريا يبيد صفوفاً من الجيش الروسي. و كان النقص والفقدان في صفوف غير المقاتلين يصل إلى 80% نتيجة لذلك. و كان الوضع مأساوياً بشكل خاص على الساحل- هناك حيث كانت القلاع الروسية – هناك حيث لم يستوطنها الشراكسة و الأبخاز بسبب الانتشار الواسع للملاريا .

مثلاً – في حصن روح القدس الذي كان في موقع مدينة أدلر الحالية, لقيت الحامية كلها المؤلفة

من 922 شخصاً مصرعها في غضون 5 سنوات. في عام 1845 قُتل 18 شخصاً فقط على كامل خط شاطئ البحر الأسود بينما توفي 2427 نتيجة الأمراض. وفي بداية عام 1840 كان العدد في كل القلاع الساحلية 2776 شخصاً فقط بدلاً من الحد الأدنى المطلوب وهو 25980 شخصاً.

إن الروس الديكابرستيين المنفيين أو الذين تطوعوا للذهاب إلى القفقاس شبَهوا الساحل مع تلك الأماكن التي كانوا بها في المنفى وأطلقوا عليها اسم "سيبيريا الدافئة". وبالمناسبة فإنه تحديداً في " سيبيريا" هذه – في لازاريف – البقعة الخصبة بالقرب من سوتشي توفي الديكابريستي والشاعر ألكسندر أدويفسكي مؤلف الأبيات "يشتعل اللهب من الشرارة" نتيجة مرض الملاريا.

هذا هو الوضع. هذا ما حدث. فهل من العدل الآن اتهام الروس بموت آلاف الأديغة الذين سقطوا خلال مائة عام نتيجة الأمراض و الحرمان, الروس الذين وقعوا أنفسهم تحت وطأة الوضع ذاته؟ هل يمكن اتهام المستوطن الروسي (ايفان مثلاً) الذي توفي هو نفسه بمرض الطاعون بموت الكاباردينى (أصلان مثلاً) الذي توفي نتيجة الطاعون؟ لماذا على روسيا أن تعترف بأنها مذنبة بشأن بقع التيفوئيد التي ظهرت على نفيسة الشركسية؟ وعلينا في نفس الوقت إن ننسى و لا نتذكر أبداً نفس تلك البقع التي ظهرت على نتاليا؟

نصل إلى السخافة التامة – علينا إن نعتبر القرية التي توفي أفرادها نتيجة الطاعون و الملاريا إبادة جماعية لم يشهد لها التاريخ مثيلاً, وإن لا نلاحظ مطلقاً القرية القوزاقية التي كانت بجانبها والتي عانت وعلى نفس الدرجة من هذه الأمراض, وعلاوة عن ذلك علينا إن نعتبرها مذنبة وإن ندمغ على ذلك من منصة عالية ومعاقبتها على ذلك؟ إن أسقطناها على عصرنا فهذا يشبه محاكمة الجار على موت جاره بالقصور القلبي.

إن المدخل والنهج الذي تقدم به الشراكسة إلى البرلمان الأوربي في مسألة الإبادة الجماعية لا يقدم أجوبة لهذه الأسئلة. كما لا يقدم المؤرخون الشراكسة و النشطاء الاجتماعيين أجوبة لذلك. وهم ببساطة لا يطرحونها. إن هذه المسألة يتجنبها وطنيو القومية لسنوات, وبشكل مخجل لا يعيرونها أهمية ويضيفون 360 ألف شخص ماتوا نتيجة الأمراض و الجوع و الحرمان إلى ال 40 ألفاً الذين سقطوا نتيجة الأعمال الحربية.

بدون شك فإن هذا النسيان أو التناسي من جانب واحد مريح جداً وهو فعال بالنسبة للشعب الأديغي, إنهم يصدقونه ! والأمر الآخر –كيف يمكن النظر الجاد والعلمي والتاريخي لموضوع الإبادة الجماعية عندما لا يمكنك إثبات موقفك إلا بصرخات من المنصة تقول " حسناً وكيف للمرء ألاَ يصدق بإبادة الشركس الجماعية؟ "

إن هذا السؤال يرتفع حتماً وبنفس الحالة في حالة الإبادة الجماعية للهنود الحمر والتي تشابه تماماً حالة الشراكسة, وتخول أمريكا الرسمية بألا تعترف بمطالب أحفادهم.

التجارة :

ولكن لنعد أيها الأصدقاء إلى الهنود الحمر ! لقد نسيناهم بالمرة – نسينا إن نتكلم عن جينغاجغوك , و أونكاسا, و فينيتو, و عيون سوكالين. في البراري أيها الأصدقاء, في البراري ! أذكر بأن إحدى اتهامات أحفاد أول سكان القارة الأمريكية تجاه " السكان الآخرين(التاليين), تستند إلى حقيقة إن المستوطنين كانوا بحاجة للأرض في البداية ,ولم يكن الهنود الحمر بحاجة لهذه الأرض, وبالنتيجة أرادوا القضاء عليهم بكل الوسائل ومسحهم عن وجه القارة كعرق أو كشعب وهذه إبادة جماعية صريحة.

يرد معارضو هذا الرأي بأن الوضع كان مختلفاً كلياً. نعم فقد كان المستعمرون بحاجة للأرض ولكنهم لم يضعوا إبادة الهنود الحمر هدفاً لهم. فعملياً عندما كان السكان الأصليون يتوصلون إلى حلول وسط مع البريطانيين والفرنسيين لم يكن أحد يقتلهم وكانوا يوفرون للهنود الحمر أراض جديدة للسكن وتعويضات مادية وغير مادية سواء لمرة واحدة أو بانتظام واستمرار حتى يومنا هذا.

كيف كان الحال في القفقاس في هذا الشأن؟

في البداية يجدر القول بأن اتهامات الأديغة للحكومة الروسية تبدو متطابقة تماماً مع مواقف الهنود الحمر .لدرجة إنه لا يمكن إن نجعلها أكثر تشابهاً مما هي عليه في اتهام الهنود الحمر حتى لو حاولنا ورغبنا بذلك.

لنأخذ أهم خلاصة للبيان إلى الاتحاد الأوربي :" لا يجوز النظر إلى الحرب التي قامت بها الحكومة الروسية في القرون 18 19 – ضد الأديغة (الشراكسة) على أرضهم التاريخية كأعمال حربية تقليدية واعتيادية.لم يكن هدف روسيا فقط هو احتلال الأراضي ولكن التدمير الكامل أو الطرد الكامل للسكان الأصليين من أراضيهم التاريخية. وبغير ذلك لا يمكن تفسير هذا العنف اللاإنساني الذي أبدته القوات الروسية في شمال غرب القفقاس".

تجدر الإشارة هنا بأننا سوف نلقى بعض الصعوبات لدى النظر إلى هذا البند. كيف يمكن إثباته أو دحضه؟
كيف يمكن إن نثبت بأن روسيا كانت بحاجة إلى تشيركيسيا وليس إلى الشراكسة؟ هل نبحث عن اتفاقيات الكسندر الثاني مع الشيطان والتي من شأنها إن تكون مكتوبة بدقة وتشرح بالضبط لماذا باع روحه؟ هنا أيضاً نعود لمساعدة المقارنة. نحن نعلم ما الذي فعله الألمان مع اليهود كي يدمروهم بالكامل, نعلم الخطوات التي اتخذها الأتراك للحصول على الأراضي الأرمينية خالية من الأرمن. فما الذي فعله الروس؟ دعونا نرى.

نبدأ بسؤال: ما الذي تقوم به أية قوة تريد تنفيذ إبادة جماعية على شعب مجاور وتدمير شعبه"على أساس قومي أو عرقي – "تجارياً.

التجارة –هي أداة معروفة في الإبادة الجماعية ! ففي أعوام 1930 – 1940 كانت ألمانيا النازية التي ارتكبت الإبادة الجماعية بحق اليهود, كانت تتاجر معهم بشكل واسع, ففي المدن الألمانية ظهرت أسواق خاصة بترتيب حكومي و كان بإمكان أي يهودي ومن أي بلد كان إن يبيع فيها منتجاته البسيطة. وكانت الحكومة الألمانية تسيطر على أسعار بيع السلع لليهود. وكانت قبائل بوتو و توتسي تشتهران بالتجارة. خلال الإبادة الجماعية لتوتسي كان بإمكان أي شخص منهم إن يأتي بقطيعه ويبيعه إلى قبيلة بوتو. ولم يتخلف في هذه المسألة الصرب مع الكروات- فمن المعروف من خلال التاريخ إنه أثناء قتل الصربيين للأوستاش عام 1941 ارتفعت وتيرة ومستوى التجارة الصربية الكرواتية بشكل كبير.

هكذا كان . هل كان فعلاً؟ وفي القفقاس وأثناء"الإبادة الجماعية الرهيبة "كان نفس الوضع تماماً . في البداية ومنذ مزدوك و استيطان قوزاق زابوروجيه كانت التجارة تعتبر عنصراً هاماً جداً في العلاقات بين الروس و الأديغة. وكانت السلطات الروسية تشجعها وتحفزها على الدوام. وفي ظل ظروف قانون الأحكام العرفية سعت روسيا إلى ترشيد العلاقات التجارية وجعلها تحت سيطرتها وجعلها أداة لسياستها في القفقاس .و كان أمام عيونهم هدفاً بأن التجارة يجب أن تكون أداة يخدم التقارب مع الجبليين المدنيين و إغنائهم عن طريق علاقات المنفعة المتبادلة مع روسيا الغنية والقوية, وفي نفس الوقت كانت التجارة –أو بالأحرى غياب التجارة (الحصار التجاري) كان من المفترض إن تكون أداة للتأثير على القرى الغير مسالمة وإضعافها.

أعرب بوشكين عن أفكار عامة حول التجارة مع الشركس في كتابه "رحلة إلى أرزروم" عام 1829 :"لابد مع ذلك بالأمل, بأنه في حال التمكن من الحصول على الحافة الشرقية للبحر الأسود وقطع تجارة الشراكسة مع تركيا فإن ذلك سيضطرهم إلى التقارب معنا" . .ومن المثير للاهتمام كلام المؤرخ و الإثنوغرافي برونيفسكي الذي قدَم برنامجاً كاملاً "لتصحيح" الجبليين. وحسب رأيه فإنه كان يتوجب على روسيا إن تكافح باستمرار غارات وعمليات السطو المسلح وإن " تلاحق اللصوص دون كلل" ..و" إن العقوبة تتناسب مع الجريمة" ..وتعزيز التجارة مع الجبليين و إزالة جميع مخافر الجمارك في شمال القفقاس باستثناء مخفر كيزليارسك, وعدم السماح بتجارة الرقيق وذلك بتمركز المحاكم العسكرية على ساحل البحر الأسود واعتراض السفن التي تحوي العبيد.

على الواقع كان الوضع أكثر عمقاً وتعقيداً :فقد كان الاقتصاد الأديغي يقوم على ثلاثة "أركان" رئيسية هي: المنتجات الزراعية(التقليدية بالنسبة إلى هذه المنطقة, وهي منتجات ليست على مستو عال من التطور), والحِرف والعبيد. وعلاوة على ذلك فقد كانت التجارة الخارجية حرجة جداً بالنسبة للأديغة لأن الكثير من السلع الضرورية لضمان حياة معيشية طبيعية والضرورية للاستمرار في الحرب في شمال القفقاس لم تكن تُنتج عندهم أو إنها كانت تُنتج بكميات ضئيلة للغاية ,وبالتالي كان عليهم شراءها ومبادلتها مقابل سلعهم الخاصة ومقابل العبيد. هذه المواد هي: الحديد وتجهيزات الأسلحة البيضاء, والبارود, والملح وغيرها..وبطبيعة الحال فإن مثل هذا الاقتصاد لم يكن مكتفياً ذاتياً و كان ضعيفاً للغاية. لم يكن هناك أسهل من الحد من تدفق السلع الأساسية عن طريق الحصار لكي يضطر عدد كبير من الجبليين عاجلاً أم أجلا إلى وقف المقاومة.

حتى بداية القرن 19 كانت النقاط الرئيسية للتجارة بين الروس والجبليين هي ثلاثة مدن – يكاتيرينودار, و مزدوك, و كيزليار. ومابين أعوام 1810- 1820 تُضاف لهم عدة مراكز مبادلة –أوست لابينسك, و بروجنوأكوبسكي, و بروخلادنينسكي, و كونستإنتينوغورسكي ,و ريدوتسكي, و مالولاغيرني, و فيليكولاغيرني, و نوفويكاتيرينينسكي, و سلافيإنسكي و غيرها .وكذلك كانت مرافئ كيرتشي وبوغازيه مراكز يتم فيها وصول البضاعة إلى الأديغة الساحليين...في عام 1811 تصدر قوانين موافقة من قِبل القيصر"قواعد خاصة بالنسبة للتجارة مع الشراكسة والأبازين" والتي تنص على إن الحكومة تريد "إن تحث بقدر المستطاع وبعلاقات أكبر ومن خلال الأنشطة والمنافع المترتبة من التجارة إن تُلهم الناس بمنافعها وتعلمها استخدام منتجاتنا وسلعنا" . ومن الطبيعي إن الإدارة الروسية كانت تسمح بالتجارة في هذه المراكز فقط مع الأديغة " المسالمين" وتبيعهم السلع المسموح ببيعها فقط. فإن كان الملح هو ما ينقص الأديغة فلا بأس, أما بالنسبة للحديد فقد كان الوضع أصعب – نعلم بأن حاجة الأديغة للحديد كانت مُلحة ولم تكن السلطات الروسية ترغب بانخفاض الزراعة بسبب غياب الحديد ولكنها رغم ذلك كانت تعتبر أن الحديد المباع للأديغة لن يذهب فقط لتحضير المحاريث والأمشاط ولكن لتحضير الأسلحة أيضاً ولذلك حاولوا الحد من بيعه لهم. حتى إنه كانت هناك حسابات خاصة لدراسة احتياجاتهم للحديد الذي سيستخدم لغير الأغراض العسكرية.

ومن ناحية أخرى تجدر الإشارة إلى أن القوات الروسية والمستوطنين الذين لم يكونوا قد ثبتوا أقدامهم بعد في المنطقة لم يكونوا بأقل حاجة من الشراكسة للمنتجات الزراعية والعمل الحرفي. وكانت السلع الأساسية التي كانوا يقومون باقتنائها من الشراكسة في مراكز التبادل هي الحبوب و الأبقار والخيول الشركسية الأصيلة الرائعة والعسل والشمع والألبسة و أطقم الخيول والحطب وغيرها.. ويمكننا الحكم على حجم هذه التجارة من المعطيات التالية: في شهر نيسان من عام 1823 قايض الأديغة الملح مقابل 6888 بود من الحبوب(البود وحدة وزن تعادل 16.38 كغ). وفي عام 1824 وبناءاً على أوامر من محافظ القرم اشترى رجال الأعمال الروس من الناتوخاي و الشابسوغ الخبز لإطعام سكان مقاطعة فيودوسيسك الجائعين. وفي عام 1841 أحضر الناتوخاييين إلى أنابا الحطب في 5138 عربة واشتروا 1500 بود (24 طن)من الملح. وفي عام 1838 بلغت الإيرادات الإجمالية لمراكز التبادل أكثر من 193800 روبل بما في ذلك 117450 روبل من منتجات الجبليين. في عام 1839 جلب الجبليون فقط عبر طريق المحجر الصحي يكاتيرينودارسك بضائع بقيمة 175 ألف روبل إلى مراكز التبادل, وعن طريقهم خرجت البضائع الروسية إلى حدود ما وراء الكوبان بقيمة 101 ألف روبل.

كانت التجارة تقوم أيضاً في المعارض التجارية الموسمية والتي كانت تقام بشكل دوري في يكاتيرينودار وأماكن أخرى في منطقة ما وراء الكوبان. على سبيل المثال: في عام 1837 تم بيع سلع بقيمة مليون و 335 ألف روبل في معارض يكاتيرينودار ,و كان للأديغة نصيب الأسد منها. في ذلك الوقت كان مثل هذا الدوران التجاري متأصلاً في المعارض الموجودة في المدن الروسية المتوسطة والكبيرة, فعلى سبيل المثال: لم يكن التبادل التجاري كبيراً في عشرينات وثلاثينات القرن 19 ومع ذلك بلغ في معرض كجاتسكي المعروف 500 ألف روبل.

بالإضافة إلى التجارة فقد كانت مراكز التبادل تشكل مركزاً لعمالة أفقر الجبليين في مجال الأعمال الموسمية الروسية و القوزاقية. وللأسف لم يحص عددهم في ذلك الوقت, ولكن على سبيل المثال: معلوم إنه في منتصف القرن 19 في منطقة كيزليار كان يعيش خريفاً مابين 20 -25 ألف من العمال الموسميين – الشراكسة و الناغوي وغيرهم..لقد كان عددهم كبيراً لدرجه إنه في عام 1842 تم إنشاء وكالة ديوان (إدارة) خاص بهم من أجل "الوصاية على الجبليين المسالمين الوافدين إلى المدينة ."

وفي أيام المعارض و الأسواق الكبيرة كانت تلاحظ أعداد كبيرة من الشراكسة في المدن الكبيرة حسب المقاييس القفقاسية مثل كيزليار وموزدوك و يكاتيرينودار.

كتب الرحالة الألماني موريتس فاغنر الذي زار يكاتيرينودار عام 1847 حول أعداد الشراكسة: "من الغريب إن نرى هؤلاء الناس الذين كانوا قبل بضعة أيام يقومون بالهجمات والغارات ,وربما كانوا قد سرقوا أو قتلوا أحداً من القوزاق الذين يتسكعون سلمياً الآن بينهم".

علاوة على ذلك فإن مثل هذا الوضع لم يكن فقط في المناطق السهلية التي كان موقف الروس فيها قوياً, بل في بعض حصون وقلاع البحر الأسود كذلك والتي كانت معزولة ومقطوعة حينها عن "الأرض الكبيرة". على سبيل المثال: لقد كتب الضباط الذين خدموا في قلعة نافوغينسك والتي تقع مكان سوتشي الحالية, كتبوا مراراً عن الوبيخ و الفرسان الذين كانوا يأتون إلى القلعة بحثاً عن العمل, حتى إنهم في السنوات العجاف كانوا يأتونهم للتسول, و أحيانا كانوا يعرضون أطفالهم للبيع.

لم تقتصر العلاقات بين الأديغة و الروس على التجارة فقط. فقد بدأت الإدارة الروسية وبدون التدخل في التفاصيل الداخلية بغرس (وتطعيم) أساليب أكثر تقدماً في الاقتصاد والزراعة ومعداتها على الأراضي"التي تم إخضاعها", وشمل ذلك إدخال معدات زراعية جديدة و أنواع جديدة من النباتات والتي لم تكن موجودة عند الشراكس سابقاً مثل البطاطا و البندورة والذرة .وعلاوة على ذلك فغالباً ما كانت السلطة تصطدم بعزوف الفلاحين عن الانخراط في الأمور الجديدة, فكانت عندها توزع البذور والشتلات مجانا – "نُعلن في كل مكان إنه بإمكان الأمراء والخيالة .إن يأتوا للحصول على البذور" . إنها لإبادة جماعية رهيبة!

هل تتخيلون, كيف يمكن للألمان في بيلاروسيا إن يدخلوا المناطق اليهودية ويبدؤوا "بقسوة لاإنسانية" بتوزيع البذور ! – "نعلن في كل مكان, إنه بإمكان اليهود والغجر المجيء للحصول على البذور " !

مرة أخرى لي وقفة قصيرة لكي ألفت انتباهكم إلى أن هذا النص – ليس مجرد اختيار كلمات – إنها حقائق تقف وراء الحالة التي تُسمى "إبادة جماعية رهيبة لم يسبق لها مثيل في التاريخ" " تدمير كامل أو طرد للسكان الأصليين" و" عنف لاإنساني أظهرته القوات الروسية في شمال غرب القفقاس ".

لدى قراءتكم هذا النص أرجو منكم مقارنته مع هذه الكلمات , و انظروا – هل تتطابق؟

الطريقة الأخرى "للإبادة الجماعية" من قِبل الإدارة الروسية على الأديغة كانت التعليم.

وتجدر الإشارة هنا إلى إنه إن نظرنا إلى التعليم "قبل" و"بعد" الحرب القفقاسية فإننا نحصل على وضع سخيف. فالمجتمع الشركسي "قبل" وصول روسيا إلى القفقاس لم يكن فيه ما يسمى بمحو الأمية والتعليم. لم تكن موجودة. لم يكن هناك مثقفين أو مُربين أو حروف أبجدية ..الخ.

كان يمكن مصادفة بعض الأشخاص في القرى القادرين إلى حد معين على القراءة والكتابة باللغة العربية. وعادة هم من رجال الدين – وألفت انتباهكم هنا – إلى إن الفتاة في سن الزواج كانت تعتبر حسنة التأديب والتربية إن كانت من عائلة محترمة وتعرف القراءة. ولم يكن النبلاء والأمراء يتقنون القراءة والكتابة. وعلاوة على ذلك فإن الخابزه(العادات) كانت تحد من مجال طبقة النبلاء و تقصرها على الحروب والغزوات, وكانت هذه المعارف(القراءة والكتابة) تسبب لهم ازدراء وسخرية الآخرين فقط. ولهذا السبب ولأسباب كثيرة آخري لم يكن هناك وجود لطبقة المثقفين في المجتمع الأديغي, مما لم يسمح لهم في الأوقات الحرجة والمنعطفات الجذرية التاريخية إن يجدوا مكانا للشعب الشركسي في ظل الظروف العالمية المتغيرة ,كما إن ذلك أدى وبشكل كبير إلى كثير من المآسي التي نتجت عن الحرب.

تغير كل شيء مع مجيء روسيا. إن روسيا" المبيدة الجماعية" التي نشرت "العنف الذي لا مثيل له "والتي كانت ترغب بالقضاء على الأديغة كقومية, تبدأ بتعليم أطفال الأديغة وتضع الكتابة الأديغية ! يتم إنشاء عدد من المدارس في جنوب روسيا, مثل ستافروبلسكايا و يكاترينودارسكايا, وتُفتح فيها دور (بانسيون) لأطفال الجبليين. كانت الحصص الدراسية لأطفال الأديغة في ستافروبلسكايا 65 شخصاً, وفي يكاترينودارسكايا 25 شخصاً. وعلى سبيل المثال: حسب الأوامر الرسمية كانت تُحجز أماكن للأطفال الشراكس في مدارس القرى القوزاقية الضخمة مثل بافلوفسكي و أومإنسك.

في عام 1859 صادق القيصر الكسندر الثاني (وهو الذي يسميه الأساتذة والمؤرخين الشراكسة المعاصرين باسم"جلاد الشعب الأديغي") على ميثاق خاص لمدارس الجبليين, و بموجب الميثاق كان الغرض من هذه المدارس" نشر التربية المدنية والتعليم بين الجبليين الخاضعين المسالمين و إحضار المواد اللازمة لعائلات الضباط والموظفين الذين يخدمون في القفقاس لأجل تنشئة وتعليم الأطفال " كما صدر تعميم من وزارة التعليم عام 1867 جاء فيه "إن تثقيف مواطني الجنسيات الأخرى(الغير روسية) بالتدريج, وتقريبهم من الروح الروسية ومن روسيا –هي مسألة ذات أهمية سياسية قصوى."

بطبيعة الحال كان أولاد النبلاء هم الذين يدرسون في المدارس. وبعد انتهائهم من المدرسة كان لهم الحق بالالتحاق في الكليات الحربية العليا والتي كانوا يتخرجون منها كضباط ويذهبون لخدمة

الجيش. يلتحق عدد معين من الأديغة في أفضل المعاهد المدنية في البلاد. مثلاً شوماف تاتلوك – يتخرج في عام 1859 من جامعة موسكو ويصبح مرشحاً في القانون ويبقى للعمل في موسكو.

يتخرج من نفس الجامعة أيضاً الناشط والشخصية القاباردينية المعروفة كودزوكوف. أما غيرهم من المربين الأديغة مثل غازي أتاجوكين, عادل جيري كيشيف, سلطان كريم جيري ايناتوف, فقد درسوا في جامعة بطروسبورغ.

عملياً فقد بدأ عدة أشخاص منهم في نفس الوقت بوضع الأبجدية الأديغية.ويظهر لدى الشراكسة حتى قبل إن تنتهي الحرب القفقاسية كُتابهم وأطباءهم ومعلميهم ومؤرخيهم ولغوييهم وعلماء الرياضيات –إنهم يثقفون الشعب ويقدمون له كتابته وقراءته الخاصة, ويعالجون أمراضه ويكتبون تاريخه, ويخففون من الصدمة الثقافية الاجتماعية الكبيرة التي ضربت تشيركيسيا .

ولكن يقع عليهم جميعاً ذنب كبير لا يُغتفر – حيث إنهم جميعاً بشكل أو بآخر يخرجون من رحم التعليم الروسي وجميعهم تقريباً يخدمون في الجيش الروسي, مما يخول الوطنيين الأديغة من تسميتهم خونة لشعبهم الأصلي.

إنها لمن المفارقات والتناقضات, ولكنها هكذا بالضبط – في البداية – مجتمع"غير مثقف" و الآن تُعبد الثقافة القومية المكتوبة المعاصرة. فهي تحديداً التي يتم وضعها كمثال يجب تبنيه واصفة كل ما حدث "بعد" مجيء روسيا إلى القفقاس –إبادة جماعية, وإبادة للشعب على أسس عرقية و"هضم ثقافي قسري للسكان الأصليين المتبقين".

دعونا نسأل أنفسنا – هل تنمية معرفة القراءة والكتابة باللغة الشركسية –يعتبر هضماً واستيعاباً؟ بمعنى إن العالم الإثنوغرافي ليونتي ياكوفليفيتش ليوليه الذي ألف في عام 1846"المعجم الشركسي مع القواعد المختصرة" والذي قدم فيه طُرقه ونسخته حول الأبجدية الأديغية -...كان هدفه تدمير اللغة الشركسية وهضمها, أما أولئك الأمراء والنبلاء الذين استخفوا واحتقروا الكتابة والقراءة ولم يفكروا أبداً بضرورة وجود كتابة خاصة لشعبهم – ساهموا في ازدهار وتنمية شعبهم؟

لوليه- صاحب إبادة جماعية ومؤيد للهضم والاستيعاب, أما الأمير سوكور أرسلانبيك حجي الذي لم يكن يعرف القراءة والكتابة والذي هجم على قرية رامانوفسكي –فهو منارة للتطوير ورجل قدم الكثير لتطوير ونشر اللغة الشركسية؟ أهذا ما يريدون تقديمه إلى البرلمان؟

من أجل إتمام هذا الشعور أقترح إن نأخذ مثالاً عن الاستيعاب والهضم القسري ونقارنه بما يجري في الجمهوريات القفقاسية. أفهم إن مثال الألمان واليهود قد أصابكم نوعاً ما بالملل ومازال لديه الوقت لكي يصيبكم بملل أكبر, وبالتالي:

جورجيا ! في جورجيا ومنذ بداية القرن الماضي تم اعتماد سياسة إنشاء أمة جورجية موحدة. و لا يدخل فيها المنغريليون و لا بأي شكل. في حال كان الكارتفيل يعتبرون بشكل أو بآخر من أصل

المملكة الايفيرية ويتكلمون بلغة جماعات الكارتفيل فإن تاريخ المنغريل يعود إلى الإمبراطورية الكولخيديه ويتكلمون بلغة هي جزء من مجموعات الجانس اللغوية والتي تختلف كلياً عن لغة الكارتفيل. لا يوجد شيء مشترك بين اللغة الجورجية و المنغريليه ,وفي نفس الوقت هناك اختلاف كبير بين المنغريلين و الجورجيين في الثقافة والعقلية وحتى في الملامح الخارجية ! ولكن ذلك لا يبدو مهماً, يعلنون أن اللهجة المنغريليه هي لهجة جورجية, و المنغريليون أنفسهم – هم جورجيون. هذا يشبه مثلاً عندما نعلن بأن اللغة الألمانية هي لهجة روسية, والألمان أنفسهم هم – روس. عندما يبلغ الشخص المنغريلي 16 عاماً يضعون في جوازه ختم "جورجي" تلقائياً. حتى إنه هناك نكتة تقول" المنغريليون- هم أمة تتمتع بأقصر حياة, فهم يصبحون جورجيون في عامهم ال 16".

في 1920 حاول المنغريليون خلق حكم ذاتي لهم ضمن جمهورية جورجيا, قام الجورجيون بسجن جميع القادة القوميين وجميع المثقفين القوميين تقريباً. ومنذ ذلك الوقت ولغاية الآن لا توجد مدارس قومية لهم و لا مسارح و لا تلفزيون و لا راديو و لا معاهد , وليس هناك تدريس وتعليم للغة المنغريليه, و لا تصدر صحف أو كتب أو أي شيء آخر باللغة المنغريلية. لا وجود لهذه اللغة. وحالما يتكلم أحد أي شيء حول الهوية الوطنية المنغريلية فإنه يُسجن على الفور, يقومون بمراقبته أولاً, وإن لم يهدأ – يُسجن .لا وجود للمثقفين الوطنيين ! هذا هو الهضم والاستيعاب, ومن الممكن إيراد غيرها من الأمثل.

ولننقل تركيا. فوفقاً للدستور التركي لا يُسمح على المستوى الحكومي استخدام سوى لغة واحدة – التركية. وتم إتباع هذه القاعدة بشكل صارم جداً, مثلاً: في آذار من هذا العام قطعت التلفزة التركية بثاً مباشراً لنقل كلمة لزعيم الحزب الديمقراطي الكردي أحمد ترك بعدما تحدث باللغة الكردية. أي إنه حالما ظهرت لغة غير تركية على الهواء قُطع البث ووضعت لوحة فنية على الشاشة. كيف هو الحال بالنسبة إلى هذه الأمور في الجمهوريات الشركسية؟ منذ 1920 هناك مقاطعة ذات استقلال ذاتي للجبليين. باللهجات الكاباردينية و الأديغية صدرت وتصدر جرائد ومجلات وكتب وصحف فنية وتعليمية وأدبية. هناك بث تلفزيوني وإذاعي, وتقام العروض المسرحية. والكثير من مجموعات الرقص والغناء. تُدرس اللغة باستمرار في المدارس والمعاهد العلمية. وليست هناك قيود مفروضة للحد من استخدام اللغة. وفي ظل هذه الظروف يطالب القادة القوميون الأديغة البرلمان الأوروبي بالاعتراف بالاستيعاب والهضم القسري؟

من المثير للاهتمام إن نسأل, أية حجج لديهم من أجل هذه القضية وخصوصاً عند رؤية الفرق بين ما يحدث مثلاً في جورجيا وفي كاباردينيا؟ ..آه...لا فرق ! إنهم يقترحون الاعتراف ببساطة ..وكفى! كما يُقال –"لماذا 10؟ لأن 10 أكثر"!

هل الوضع القائم في جورجيا وتركيا مشابه لما يحدث في الجمهوريات الأديغية؟ هل وضع لوحة فنية على الشاشة لمجرد بضعة جمل باللغة الكردية يشبه التلفزيون الحكومي الأديغي؟ بالطبع لا. ولذلك يُعترف بالإبادة الجماعية للأرمن في تركيا, و لا يعترف للشراكسة. لنمضي قدماً!

الأديغة في الجانب الروسي :

هناك سبب آخر أيضاً يجعل أغلب الأمريكيين يرفضون الاعتراف بالإبادة الجماعية للهنود الحمر وهو إنه ليست كل ملايين الهنود الذين لاقوا حتفهم خلال احتلال البيض لقارة أمريكا الشمالية قد لقوا مصرعهم على يد الأوربيين. فهناك نسبة كبيرة من الهنود الذين ماتوا ميتة عنيفة على يد...الهنود أنفسهم!

حقيقة الأمر إن السكان الأصليين للقارة الأمريكية لم يكونوا موحدين بالمرة لم يكونوا جماعة متعاضدة صلبة تقف يداً واحدة ضد المعتدين و لا حتى مجرد مجموعات يائسة, ولكنهم كانوا يُقتلون كذلك بضربات سيوفهم, كيف تتصور نظرية الإبادة الجماعية هذا الأمر؟

لا, لقد كان الهنود محاربين أشداء, كانوا مقسمين بشكل رهيب , كانوا يحاربون بعضهم البعض بشكل رهيب..كان ذلك حتى قبل عهد كولومبوس, وزاد وصول البيض هذا الصراع الداخلي تفاقماً. وشعرت الكثير من القبائل بظهور قوة جديدة في المنطقة وإنه باستطاعتهم من خلال هذه القوة حل مشاكلهم. وعرض الكثير والكثير من الهنود أنفسهم وبمبادرة منهم على البيض "الحب والصداقة", وبأن يصبحوا حلفاءهم وعرضوا مساعداتهم والقتال إلى جانبهم ولصالحهم, ومقابل ذلك بالطبع كانوا يحصلون على المال و اللوازم و الأسلحة المتطورة كي يتمكنوا من التغلب على منافسيهم وعلى أعدائهم القدماء الذين أصبحوا في ظل الظروف الجديدة الأضعف عسكرياً واقتصادياً.

يتخيل الكثير منَا ذلك العصر حسب كتب فينيمور كوبير "مقتفي الآثار "و"القتال الوحشي" "الطلائع" "المرج" . و انهمك الكثير من الأطفال في قراءة هذه الروايات حيث إنها كانت مثيرة للاهتمام – فهناك يقف المستعمرون الإنكليز الطيبون مع حلفائهم –الهنود"الجيدين" (الديلافار و موغيكان) في مواجهة القوات الفرنسية السيئة   وحلفائهم – الهنود"السيئين"(الغورون و ايروكيزام). لم يكن ذلك بعيداً تماماً عن الواقع, ولم يكن الواقع رومانسيا. فعلى أرض الواقع لم يحارب الهنود معاً ضد الفرنسيين والإنكليز بقدر ما حاربوا ضد بعضهم البعض, ولم تكن تلك المعارك تخضع لما يسمى بالمواقف الأخلاقية في عصرنا الحالي ولم يقهروا أنفسهم بالقضايا الإنسانية – بكل بساطة, كانوا يدمرون منافسهم وكفى.

في وقت ما, عندما كان الايروكيز أقوى من باقي القبائل فإنهم قتلوا على الفور جزءاً كبيراً من الموغيكان, وطردوا الباقي إلى أماكن غير صالحة للعيش, كما إنهم أبادوا الغورونيين تقريباً , وببساطة ذبحوهم دون رحمة, ولم يتبق سوى 150 شخصاً تقريباً في عداد الأحياء من أصل 20 ألف شخص منهم. وفي مثال آخر أوردته سابقاً والذي يقدمونه كدليل على عنف البيض وإبادة الهنود – هو إبادة قبيلة بيكفوت عندما أُحرق 600-700 هندياً أحمراً وهم أحياء, لقد اشترك البيض مع قبيلتين هنديتين في هذا العمل-المغيكان و نارانغاسيت, ويؤكد بعض المؤرخين بأن البيض حاولوا منع الهنود " الطيبين" من ارتكاب المذابح.

واحد من أشهر القادة الهنود والذي قاد انتفاضة عظيمة للسكان الأصليين في القارة ضد البريطانيين, الرجل المعروف جداً بفضل السيارة التي سميت على شرفه – بونتياك- ..قُتله مواطنوه دون أي تدخل من قبل البيض.

كل هذا يمنح حقاً أخلاقياً هاماً لمعارضي نظرية الإبادة الجماعية على التساؤل –إن كان بعض الهنود يقتل هنوداً آخرين فكيف يمكن اتهام البيض بذلك؟ إن خدمت قبيلة هندية مع البيض حصراً من أجل التخلص من قبيلة أخرى, فما الذي يندرج في إطار الإبادة الجماعية, كيف يمكن إن نسجل هذه الإبادة على حساب البيض؟ كيف يمكن تصنيف الذين قُتلوا على يد المستعمرين الأوربيين عن الذين قُتلوا بيد جماعتهم؟ وفي حال اتهام المستوطنين بالإبادة أليس من العدل إذا أن نطبق المبدأ نفسه فيما يتعلق بالهنود أنفسهم؟
كيف كان الحال بالنسبة إلى هذا الأمر في شمالي القفقاس؟
هل من العدل إن نساوي بين الوضع في القارة الأمريكية والوضع الشركسي في هذه المسألة؟ ينبغي القول هنا بأن موضوع انقسام المجتمع الشركسي, وموضوع مشاركة الشراكسة في الحرب على الجانب ين المتقابلين, وموضوع المواجهة بين أبناء الشعب الواحد يعد واحداً من أخطر وأهم القضايا وأكثرها عرضة للإهمال وأقلها دراسة.

إن محاولة طرحه أو مجرد صياغته بشكل آخر "غير صحيح سياسياً" بأسلوب تقليدي يسبب رد فعل حاد من جانب المثقفين الشراكسة,والاتهام بالأديغا فوبيا, و الإساءة للمشاعر الوطنية لشعب بأكمله.

لسنوات عديدة تُفرض على المجتمع الأديغي صورة "صحيحة "للحرب, ويبدو فيها الشعب الأديغي متحداً في مواجهة الغزاة الروس, ويناضل ضدهم بكل قواه لعقود طويلة , وبسبب التفوق العددي الساحق للغزاة يعاني من الكارثة المروعة ,وعليه الآن إن يلعب دور الشعب الذي تعرض للإبادة الجماعية من قِبل الروس. وعند ذلك يصبح مصطلح"الحرب القفقاسية" نفسه موضع تساؤل..."عن أية حرب قفقاسية نتكلم؟" "وهل القفقاسيون قاتلوا القفقاسيين أنفسهم؟ لا, إن الروس قاتلوا القفقاسيين وبالتالي علينا تسمية الحرب –الحرب الروسية القفقاسية" وبالمناسبة تم إنشاء نصب تذكاري يحمل هذه العبارة –"ضحايا الحرب الروسية القفقاسية" عام 2004 في نالتشيك.

منذ زمن ليس بالبعيد افتتح معرض في متحف مايكوب مكرس للحرب القفقاسية , لم أستطع منع نفسي من الدخول, لعدة دقائق جابت بنا الفتاة –الدليل السياحي- المعرض وهي تُرينا صور الجنرالات الروس الذين تحدثوا عن ضرورة إبادة وتهجير الأديغة , سمَت القرى التي دمرتها القوات القيصرية , تكلمت عن البعثات الروسية إلى تشيركيسيا, تحدثت عن معاناة المبعدين من الشراكسة إلى شواطئ البحر...الخ.

عند نهاية حديثها طرحت عليها سؤالاً و كان واضحاً بأنها لم تكن تتوقع إن تسمعه : ولماذا يجري الحديث هنا عن معاناة الأديغة فقط؟ ألم يكن أكثر عدلاً وصدقاً ألا نتكلم فقط عن البعثات الروسية , بل عن الغارات الشركسية على الأراضي المجاورة كذلك, وعن آلاف العبيد الذين كان يبيعهم

الشركس إلى تركيا سنوياً, ووضع صور الجنرالات و العقداء الشراكسة الذين خدموا في الجيش الروسي وقاموا بأدوار نشطة جداً في الحرب القفقاسية إلى جانب الجنرالات الروس على رفوف المعرض؟ وفي حديثنا عن ترحيل الشراكسة إن تقولوا بأنه مع ذلك كان لهم خيار و بأن سبب الهجرة لم يكن فقط العدوان الروسي. بل سياسة تركيا أيضاً وتحريض الارستقراطية الشركسية؟ ألم يكن ذلك بالمفهوم الإنساني أكثر صدقاً, وبالمفهوم التاريخي أكثر موضوعية؟

كان رد فعل الفتاة فورياً, لقد احمرت خجلاً, وأحرجت و أحنت رأسها لسبب ما, وقالت بهدوء وهي تتجنب نظراتي: - حسناً إنك تفهم ..لسنا نحن من يضع العرض بأنفسنا...ولدي برنامج عرض وشرح مثبت...

إن الحقيقة التي تقول بأن الشراكسة في الواقع قد تواجدوا في طرفي المواجهة و بأن الجنود الروس ليسوا هم فقط من قتل الأديغة هي حقيقة موجودة ولكنها غير معلنة ,ولكنها لا تُرفض و يُعترف بها, ولكن يُعترف بأن "البعض" كانوا في الجانب الروسي ,ولكنهم قلائل جداً. وفي كتاب "أرض الأديغة" هناك ذكر حتى لأسماء هؤلاء"البعض" وكما يسمونهم –الخونة الذين خانوا وباعوا شعبهم"هل كان الواقع كما يقال؟ هل كان عددهم 71 شخصاً؟ وهل كانوا خونة؟

إن السبب الرئيسي لرفض أنصار مؤيدي نظرية الإبادة الجماعية النظر إلى هذه الجهة يكمن برأي في إن وضع المجتمع الأديغي في تلك الفترة كان فظيعاً ويائساً وببساطة كان بعيداً بعد السماء عن الشكل الشعبي لصورة الشعب الموحد الذي يقاتل وبحماسة محتلاً يكرهه كرهاً شديداً "لأجل حريتك وحريتي "ويخضع لإبادة جماعية لا مثيل لها في التاريخ.

الواقع إنه في النصف الثاني من القرن 18 حصلت عمليات جيو-سياسية واجتماعية معقدة وأدت إلى إحداث تغيير جذري في البيئة السياسية , فالعالم الذي كان يعيش فيه الأديغة لقرون عديدة قد تغير ورحل ,ولم تتمكن النسج الاجتماعية التي تشكلت عليه من إن تتلاءم مع الظروف الجديدة , كما إن الظروف نفسها كانت تتغير بسرعة- فقد ضعُف حامي السراي "تركيا", وتم امتصاص أقرب المنافسين لتشيركيسيا"خانات القرم" من قِبل روسيا, وتتشكل مناطق نفوذ جديدة للقوى العظيمة في ذلك الوقت و كان لابد من سقوط الأديغة تحتها بشكل حتمي, وتتقوى اتصالات الشركس مع العالم الخارجي. ويقف قسم من الأديغة –كاباردا- على مرحلة أكثر تطوراً في التنمية, وتصل عملياً إلى شكل وثيق من إنشاء دولة كاملة. وتترك العمليات التي تجري داخل المجتمع الأديغي نفسه أثرها- حيث تتغير العلاقات الإقطاعية , وتجري عمليات قبلية معقدة ترتبط بتعزيز مواقف بعض الشعوب وبضعف بعضها الآخر, بما في ذلك استيعاب وهضم الشعوب الصغيرة..الخ. كان وقتاً عصيباً عندما كان الشركس يحاولون التكيف مع التحديات الداخلية والخارجية الجديدة, ولكن مع ذلك فهم لم يجدوا إجابة موحدة ولم يختاروا مساراً واحداً من أجل التطوير المقبل. لقد كان المجتمع الشركسي منقسماً للغاية في تلك الحقبة. ومن حيث المبدأ فهم لم يكونوا أبداً متحدين حتى ما قبل وصول الروس إلى القفقاس, وهذا ما يذكره فعلياً جميع العلماء والرحالة في ذلك الوقت والذين تركوا لنا مذكرات وكتابات عن الشراكسة –"إن الباي(النبلاء) الشراكسة والقبائل هم في حالة خصومة وصراع مستمر فيما بينهم".

ولكن ظهور الروس في القفقاس يمثل نقطة تحول رئيسية في ميزان القوى والمصالح في المنطقة, بما في ذلك بين الشراكسة أنفسهم(وربما في المقام الأول).

عملياً ومع بداية إنشاء مزدوك, وواقعياً قبل ذلك الوقت بكثير كانت هناك بعض الطبقات الاجتماعية والمجموعات الوطنية قد انتقلوا إلى الجانب الروسي لسبب ما. , وعلى وجه الخصوص نقول بأن إنشاء قلعة مزدوك 1763-1764 والتي كانت حسب رأي الكثير من العلماء سبباً وبداية للحرب القفقاسية قد تم إنشاءها بدعوة وبذريعة مساعدة القبارديني –الأمير كورغوكو كانجوكين وشعبه الذين ذهبوا إلى التبعية الروسية هرباً من اضطهاد أمراء آخرين يهددونهم بالقتل, ذهبوا إلى الروس و تعمدوا, و طلب الأمير كورغوكو من يكاترينا إن تبني على أرضه قلعة روسية لحمايته, و عاش فيها بعد الانتهاء من البناء.

لنأخذ الأمير كانجوكين على سبيل المثال, والذي أصبح بعد التعميد –أندريه ايفانوف- كمثال معبر جداً. إنه يوضح إن الناس الذين في ظل ظروف أزمة المجتمع الشركسي التقليدي, وظل ظروف التغييرات الحاصلة بين العالم القديم والجديد يشعرون بعدم الأمان أو يكونوا معرضين للخطر, أو ببساطة من الاكتئاب..يتوجهون في المقام الأول إلى السلطة الروسية.

بغض النظر عن الصورة الجميلة للوحدة الوطنية, علينا إن نفهم أن مثل أولئك الناس ومثل أولئك المجموعات كانت موجودة بشكل كاف ضمن واقع ذلك الزمان...في بداية الأمر- كان المجتمع والقيم التقليدية إما ترفض هؤلاء الناس أو تضغط عليهم, وكانوا إلى حد معين منبوذين ومرفوضين ومُذلين.

واقع جديد- وهو وصول لاعب جديد إلى المنطقة- روسيا, التي أعلنت عن مطالبها القيادية على الفور وبما في ذلك عن تفوقها على تركيا البلد الذي سيطر بوضوح على المنطقة لقرون عدة والذي بنى مصالحه على تعقيدات العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية وغيرها- وبدأ اللاعب الجديد بفرض شروط جديدة وبتوفير فرص جديدة وضخمة لأولئك الذين لم يكونوا يملكونها في المجتمع التقليدي الشركسي.

وهنا تبدأ التقسيمات. العالم الروسي الجديد يمثل التناقض المعاكس مع العالم القديم –التركي, القرم, الشركسي. ومنذ البداية يتشكل الموقف تحديداً بهذا الشكل: في حال حاولت روسيا دخول الكاباردا بشكل سلمي فإنها بدون شك ستكون عدوة لاسطنبول وباختشيسار. وفي مثل هذه الظروف يبدأ كل هؤلاء"المُذلون والمنبوذون "لإيجاد حلول حيوية لمشاكلهم الحياتية في إطار العالم الجديد وتحت رعاية قوة مهيمنة جديدة.

باصطدامهم بواقع جديد, انقسم المجتمع الشركسي أكثر كما حصل مع الهنود الحمر, عدا أن الانقسام لا يجري على محور واحد بل على عدة محاور دفعة واحدة. ممكن إن نقول: الانقسام على مستوى النبلاء, والشعب البسيط, ومالكي العبيد- والعبيد, وبين شعوب أديغية مختلفة ..وعلى محاور عديدة أخرى أقل وضوحاً.

على المحور الأول يقف الأمراء الأديغة الذين يملكون علاقات "سياسية غير صحيحة" مع روسيا. ينبغي القول هنا بأنه ومنذ اللحظة الأولى لدخول روسيا إلى القفقاس شهد البناء الهيكلي الاجتماعي للمجتمع الأديغي تغييرات عميقة. فقد حاولت الكثير من الشعوب الحد من سلطة ونفوذ النبلاء, بطرق عنيفة جداً أحيانا و أحيانا بمجرد طردهم أو التخلص منهم بأية طريقة .واستمرت الخصومات داخل طبقة النبلاء ذاتها و كان الارستقراطيون الضعفاء مهددين بفقدان ممتلكاتهم وأراضيهم ونفوذهم , وحتى حياتهم في نهاية المطاف.ومن الطبيعي إنه في مثل هذه الظروف وعند ظهور قوة جديدة في المنطقة فإن الكثير من النبلاء كانوا يحاولون تعزيز مواقعهم وذلك باستخدام روسيا كحليف وحام لهم .

وأية موارد كانت للنبلاء حينها إن قارناها بروسيا؟ ما الذي قد يهم روسيا منهم؟ إن مواردهم هي الولاء ,والمهارة العسكرية و ما تبقى لهم من تأثير على شعوبهم . ومن هذه الموارد بالتحديد كانوا يبدؤون المقايضة مع الروس.

في ذلك الوقت عندما لم يعترف قسم من نبلاء الأديغة بالتعزيزات الروسية ورفضت الاعتراف ببناء قلعة مزدوك على الأراضي الكاباردينية, كان قسم آخر يتقبل هذه الحقيقة بشكل ايجابي لا لبس فيه ويدخل في اتصال مع السلطات الروسية بمبادرة ذاتية ويطلب أخذه إلى الخدمة في الجيش الروسي..الخ.

مع ذلك ففي حال كان على النبلاء ذو المراتب الغير عالية الوصول إلى الدوريات القوزاقية والتعبير عن رغبتهم في دخولهم التبعية الروسية, فإن قادة الأديغة وزعمائهم ونبلائهم ذوو المراتب العليا كانوا يتصلون مباشرة مع يكاترينا الثانية. ففي عام 1795 دعت يكاترينا شخصياً قادة تحالف النبلاء و الأمراء البجدوغ و الشاب سوغ باتي غيري و علي شيريتلوكوف إلى سانت بطروسبورغ ,حيث طلبوا منها المساعدة و حصلوا عليها.

تبدأ روسيا على الفور وبصورة عمياء دعم القادة وزعماء الأديغة الذين يتحالفون معها. إن ذلك يحصل في كل مكان ودون رجعة ويتفق تماماً مع مفهوم المجتمع الارستقراطي الذي كان شائعاً في ذلك الوقت في روسيا. . إن صورة التغييرات والتحولات الحاصلة في المجتمع الأديغي (عندما يطرد الغوغائيون المسلحون قادتهم أو مشاهيرهم كما حصل ذلك بين العديد من الشعوب الأديغية (لم تكن مرغوبة من قِبل حكام سانت بطرسبورغ. وللسبب ذاته رفضت الإمبراطورية الروسية دعم فرنسا اليعقوبية التي أطاحت بلويس السادس عشر.

كان الكثير من الأمراء والنبلاء الشراكسة يقسمون يمين الولاء لروسيا, ويتحركون تحت حمايتها أو يذهبون إلى" الجانب الروسي" مع عائلاتهم وخدمهم وممتلكاتهم أو بدونها, ويلتحقون بالجيش ويقاتلون سواء في القفقاس أو خارجه ويرسلون أولادهم للدراسة في بيتربورغ أو غيرها من المدن الروسية..وهكذا.

كان الدعم ابتداء من الأمور المالية و انتهاءً بالأمور العسكرية..هناك شهادات عديدة معروفة حول

تقديم الدعم العسكري من قِبل القوات الروسية للأمراء الأديغة خلال النزاعات الداخلية الشركسية, في عام 1796 وخلال واحدة من أكبر المعارك الداخلية المعروفة والتي جرت بين البجدوغ و الشابسوغ, وبناءاً على طلب شخصي من الأمير البجدوغي المعروف باتي غيري إلى يكاإنرينا الثاني ة ,شاركت المدفعية الروسية مع مفرزة قوزاقية إلى جانب البجدوغ , وبالمناسبة هم من قرر النتيجة النهائية للمعركة وحسمها- لاحق الفلاحون الخيالة النبلاء وتطلعوا إلى النصر فوقعوا تحت شظايا المدفعية الروسية المميتة ووقعوا في الكمين-

في عام 1807 تخصص السلطات الروسية للأمراء بيزروقوه و أحمدوقه مفرزة العقيد يريمييف لمساعدتهم ضد المتمردين الأبازيخ. وفي عام 1830 تساعد القوات الروسية الأمير البجدوغي ألقاس الذي يبدأ الأبازيخ بحراثة أرضه, فيقومون بطردهم ودحرهم. كانت مثل هذه المساعدات تُقدم لغيرهم من الأمراء الشراكسة كذلك – حيث كانت القوات الروسية مراراً ما تنتقل إلى الضفة الأخرى للكوبان وتسحق خصوم أعداء الأمراء الموالين لها وتُعيد نفوذهم وتعود إلى أمكنتها, لتقديم المساعدة مرة أخرى في حال طلب الشراكسة ذلك .

في وقت ما وأثناء تفاقم الصراع بين الناس العاديين مع الطبقة الارستقراطية كانت هناك طلبات كثيرة من النبلاء للنجدة , لدرجة إن قامت الإدارة الروسية ببناء عبارة عبر نهر الكوبانفي عام 1832 في يكاترينودار لأجل تسهيل وسرعة تلبية الطلبات.

علاوة على ذلك , إن قلنا إنه في أعوام 1830 ولغاية 1840 لا نستطيع الجزم والقول بأن الأمراء الشراكسة الموالين لروسيا كانوا أقل أو أكثر بحيث إن القسم الأكبر من النبلاء كانت تعارض روسيا وتحارب ضدها, ولكن عام 1840 تميز بسعي جميع النبلاء و الأمراء الشابسوغ و الناتوخاي و البجدوغ إلى الجانب الروسي بكامل قوامهم. وفي هذه الفترة الزمنية حرم الأحرار الإقطاعية والارستقراطية الحربية من حقوقهم التقليدية التي تشكلت ضمن ظروف المجتمع الأديغي المغلق المعتمد على تركيا, وفي بعض الحالات كانوا يطردوهم أو يصفونهم جسدياً.

ويقرر النبلاء إما الانتقال إلى حدود الممتلكات الروسية كي يتمكن الجنود الروس و القوزاق من حمايتهم من شعبهم أو الذهاب مباشرة إلى الأراضي التي تسيطر عليها الإدارة الروسية.ولكن التحول والانتقال الكامل لم يحصل عندها بسبب رفض روسيا تأكيد حق امتلاك الشراكسة الارستقراطيين لعبيدهم, والتي أصر عليها النبلاء الشراكسة لسنوات عدة.

وكما نعلم فإن نظام الأقنان كان لا يزال موجوداً في روسيا وقتها ولكن فكرة إلغاء نظام الأقنان كانت مطروحة بقوة واعتبر حكام روسيا بأنهم لا يملكون الحق بإعطاء التزامات طويلة الأمد لحلفائهم فيما يخص هذه المسألة ,وخصوصاً إن هذا السؤال تحديداً كان أساسياً بالنسبة للنبلاء الأديغة عند اتخاذهم قرار الانتقال الكامل إلى الجانب الروسي.

وبسبب عدم تلقيهم الرد الايجابي يعود قسم من النبلاء ولكن يذهب قسم آخر رغم ذلك إلى الروس خوفاً على حياته. يحاول مشايخ الكوبان التوفيق والمهادنة بين الطرفين المتخاصمين-النبلاء والشعب, ويدعون إلى اجتماعات عامة ويجهزون الحُكام ويقومون بالمراسلات بين الطرفين,

ولكن المصالحة لا تحدث و تستمر حالات الانتقال إلى الطرف الروسي. ويزداد عدد حالات الانتقال بشدة بعد عام 1856 بسبب تفاقم العلاقات بين الفلاحين الأحرار والنبلاء وحدوث معركة داخلية كبرى والتي تسمى" بش ورق زاوه" والتي يطرد فيها البجدوغ النبلاء المتبقين بشكل كامل من أراضيهم. ويقطن الأمراء والنبلاء في قرى شركسية خاصة بالقرب من نوفوروسيسك و أنابا وفي عدة قرى قريبة من التحصينات العسكرية الروسية عند نهر الكوبان.

دعونا نأخذ استراحة ولنفكر مجدداً حول ما تحدثنا عنه للتو. ربما لم تلاحظوا, ولكننا كنا نتحدث للتو عن الإبادة الجماعية التي لم يشهد لها التاريخ مثيلاً. هذا بالضبط ما يردده قادة الأديغة المعاصرون.

كيف يمكن إن نسمي كل هذا إبادة جماعية؟ من وأين أبادت القوات الروسية في حالة النبلاء الشراكسة؟ إلى من سننسب الضحايا الذين لاقوا حتفهم خلال المواجهات الداخلية الطويلة بين الفلاحين والنبلاء؟ فعلى أساس نظرية الإبادة علينا أن نعترف بأنهم قُتلوا على يد الروس الذين حاولوا إبادة كل الشعب الشركسي!

أي في حال تطبيق كل ذلك على الحالة الراهنة- في حال قيام النبيل أصلان حاتساتسه بقتل الفلاح الحر محمد وجوخ ثم انتقل بنفسه إلى حماية القوات الروسية على أراضي روسيا حفاظاً على حياته, وصعد في حياته ونسي شيء اسمه حرب, فهل" ممكن" إن نقاضي روسيا على مخيلتها المذهلة في قتل الأول والثاني ؟

لا تُرهقوا أفكاركم, فالأجوبة على هذه الأسئلة قد صدرت "ممكن" – كما يخبرنا المؤرخون المعاصرون القوميون الأديغة- "من الممكن ومن الواجب محاكمتهم على قتل الاثنين معاً ! ولكن الأمير هو خائن" هكذا ممكن وهنا يكمن الحل؟ يعني إن الأمراء خونة, ولكن باقي الشعب, كل الشعب؟

"العدد تقريباً 10000 يسمون توكاشيفي, كبار السن , موسى بشيغاتيجيف ومريم بيجييف يتجهون إلى الجانب الآخر ويعلنون الوحدة, وإنهم تعمدوا , لا يريدون الذهاب إلى مزدوك و كيزلار, يريدون المجيء إلى الجانب الآخر.

(ملاحظة : هذا النص مكتوب بلغة روسية ركيكة)

من الصعب فهم هذه الكلمات مباشرة –حيث تغيرت مقاييس اللغة كما إن كاتبها هو الرائد بيتر باتاروف ضمن تقرير له ويقول بعض الشهود إنه كان كاباارديني الأصل وعلى ما يبدو إنه لم يكن يتقن بعد اللغة الروسية جيداً, الأمر هو كالتالي: في عام 1767 وبعد أربعة أعوام من بناء قلعة مزدوك, جاءت مجموعة كبيرة من الكاباردينيين إلى الجانب الروسي وبشكل مفاجئ للروس أنفسهم, كانوا متمردين على أمرائهم, كان عددهم 10 آلاف جاغار. وكانت تسمية جاغار تُطلق في داغستان و كاباردا على العبيد الذين يعملون في الأراضي ويُجبرون على تنفيذ الالتزامات الإقطاعية. أرسلت السلطات الروسية الرائد بيتر باتاروف إليهم كي يستفسر الأمر ويدعوهم

للاستيطان في مزدوك و كيزلار إن أرادوا ذلك, فابلغوا الرائد بأنهم يريدون إن يتعمدوا حسب العقيدة الأرثوذوكسية ولكنهم"لا يريدون الذهاب للعيش" في مزدوك و كيزلار. لم يكن بإمكان الأمراء حل المسألة بالوسائل الحربية حيث كان الفارون على الجانب الروسي ولذلك دخلوا في مفاوضات معهم ووعدوهم ببعض الأمور فعاد قسم كبير من الكاباردينيين , ولكن بقي قسم كبير آخر ! بغض النظر على إن الرقم 10 آلاف رقم كبير ويجب الاعتراف بأن مثل هذا العدد وخصوصاً في البدايات لم يكن معهوداً. ولكن واقعة الانتقال إلى الجانب الروسي نفسها كانت أمراً معهوداً!

قبل متابعة المزيد من القراءة أريد إن أذكركم مرة أخرى بألا تنسوا القضية الرئيسية التي نتكلم عنها وهي الإبادة وإن تكون هذه الكلمة في عقولكم دوماً أثناء القراءة.

منذ الأيام الأولى لوصول روسيا إلى شمال القفقاس تبدأ الانتقالات الجماعية من قِبل الشراكسة إلى الجانب الروسي. وكانت هذه المسألة هي تحديداً هي ما يشكو منه الأمراء الكاباردينيين عندما طلبوا من يكاترينا بناء قلعة مزدوك. إن الشعب يركض صوب الروس وينتقل إلى طرفهم ويقدمون يمين الولاء للتاج الروسي كأفراد أو عائلات أو مجموعات ولاحقاً –قرى وقوميات بأكملها .

إن دوافع الانتقال متنوعة, أولئك الذين يُضطهدون من الطبقة الارستقراطية, والذين يعانون من نزاعات أو صراعات مع أطراف أقوى منهم ويخشون على حياتهم, والفقراء الذين يأملون بالحصول على قطعة أرض كبيرة من الجانب الروسي, و أولئك الذين يرغبون بالتجارة ويعتبرون بأن التجارة مع الروس أكثر ربحاً ونفعاً من التجارة مع تركيا, و أولئك الذين يرغبون بتقديم العلم لأولادهم كي يتمكنوا بعد ذلك من إن يصبحوا ضباطاً في الجيش الروسي, و أولئك الذين أضنتهم الحرب أو العيش تحت خطر الحرب, يذهب الذين حاربوا الروس والذين لم يحاربوهم..الخ..الخ..الخ

((ومع ذلك فإن أهم سبب في انتقال الشركس إلى الجانب الروسي وخاصة خلال العقود الأولى من الحرب كان بطريقة أو بأخرى مرتبطاً بالعبودية)).

وعموماً ينبغي الاعتراف بأن أحد أهم الأسباب الرئيسية للكارثة الرهيبة التي حلت بالشركس نتيجة الحرب القفقاسية هي الرق و "بيع الأسرى". مع إن هذا النظام لم يكن موجوداً في المجتمع الشركسي فقط –فليس هنالك شيء غريب أو مستهجن في ذلك – فقد كان نظام العبيد عند أغلب البلدان في ذلك العصر(في وقت من الأوقات كان لدى بوشكين لوحده 200 عبداً وهذا الرقم لم يكن يتواجد في كل قرية شركسية) !

المشكلة الأساسية تكمن في إن كل القرارات المصيرية بدون استثناء التي كان يتبناها الأديغة والتي أدت إلى الكارثة كانت في جوهرها لا تنظر إلى اهتمامات ومصالح الشعب بشكلها النقي, بل بمصالح مالكي العبيد ومحاولاتهم الحصول أو الاحتفاظ بالعبيد.

دعونا نترك هذه الأفكار لدراسة مفصلة ولنعد إلى "الخونة"

يفر العبيد الذين تعبوا من مضايقات أربابهم إلى الجانب الروسي, يفر أؤلئك الذين يخشون العقاب الذين وعدهم به مالكهم, و أؤلئك الذين يريد مالكهم بيعهم إلى تركيا, يفر الأطفال الذين تيتموا ويخشون من إن يحولهم النبلاء إلى عبيد, يفر الناس الذين يريدون إن يكونوا أحراراً ! نظراً إلى إن عدد العبيد قد وصل في تشيركيسيا (وفقاً لتقديرات مختلفة) إلى "ربع" تعداد السكان ستدركون أسباب الهرب إلى الجانب الروسي ! وهناك وجود لبيانات حول وصول هؤلاء الناس, حتى إنه هناك نقش خاص بذلك: "الشراكسة كما يعلنون, وهرباً من اضطهاد وعبودية مالكهم, يطلبون الانضمام إلى لواء العرش الروسي "

وهذه نماذج تاريخية تقليدية للفرار "الذاتي " :

حدَث الأبازيخي موسى ذو ال 14 ربيعاً إدارة خط طوق منطقة البحر الأسود بما يلي: "كانت الأسرة التي نشأت وتربيت فيها حرة في البداية, ثم سُرقت ونُهبت وأصبحت تُباع وتُشرى, لقد ابتاعني شخص تركي كان يعيش على نهر شيبش, عشت عنده كعبد لمدة عام. وأخيراً أجبرتني معاملته اللاإنسانية بالهرب إلى الروس والسعي للحصول على حمايتهم".

في عام 1842 هرب خمسة عبيد من الثري الشابسوغي تسييوك وهم غاكار, علي بي, حسان, فيسيتل, أوكول إلى الروس وذكروا أن مالكهم "كان طاغية ويقمعهم وحشياً" ثم أخذ يتردد إلى زوجاتهم " بقصد الزنا", طلبوا منه في بداية الأمر إن "يتجنب ذلك" و" وذكروه بأدب بقوانين الدين ,ولكن تسييوك لم يتخلى عن مآربه بل أخذت تتوقد أكثر" وفي نهاية المطاف حدث شجار وجازف الأقنان برميه أرضاً وطعنه بالخناجر ثم فروا إلى الأراضي الروسية.

ولم تكن الأدلة من هذا النوع قليلة : "أراد مالكي بيع زوجتي وأولادي كعبيد للأتراك, وإنا لا أريد الانفصال عن أسرتي ولذلك قررت الاستسلام بشكل دائم تحت الحماية الروسية".

وفي هذه الحالة لا يكون كل الفارين من الفقراء أو العبيد . بل من كل الفئات الذين لم يعد بإمكانهم العيش في المناطق الروسية لسبب من الأسباب, أو إنهم كانوا يعتبرون أن ظروفهم ستكون أفضل في الجانب الروسي.

كانت الفروقات كبيرة جداً بين المنتقلين إلى الجانب الروسي, مثلاً : الذين فروا في عام 1834 من وراء الكوبان و الذين سكنوا قرية آدي كانوا عشرين عائلة من الأديغة الأقنان, ووفقاً لتقارير رسمية فإنهم" لم يكن لديهم ممتلكات خاصة وكانوا عراة" . أما الرق الفار في نيسان 1841 حسين فقد أحضر معه ماشيته الخاصة, 20 بقرة و 31 غنمة و3 أحصنة.

الفلاح الحر سيلمين بجاسو وهرباً من خطر النهب استطاع إن يجلب معه ليس عائلته فقط , بل عائلة العبد التابع له والمؤلفة من 4 أشخاص, وكذلك 6 رؤوس ماشية و22 غنمة .

كُسر في داخلي شيء ما
إنني لا أتذمر أبداً على المصير
آخذ من الواجب – القليل
أكتب الأغاني قليلاً
لا يهمني ما بيننا
كيلومتر من المطر. خلف العيون
وإنا أتصادق مع أعدائي
استمع إلى أصوات
وبمجرد إن أصحو من نومي
من الحياة والصحو من السكر,
والتصنع والحكمة المزورة
"هل كُنت إنا؟".. سوف أغني
يضيع اسمي
في أصداء إشاعات حمقاء
في صخب خطوط غير مفهومة
لا تبحث عن مصير آخر

إنها بجاسو أيضاً. ميلينا بجاسو, شاعرة شابة معاصرة, هل هي حفيدة سيلمين بجاسو؟ لا أعرف وأظن إنه في كل الأحوال أنها تعود بأصلها إليه بشكل ما. أتساءل, هل هي تتهم روسيا بالإبادة الجماعية المروعة بحق أسلافها؟

كم انضم إلى روسيا من عائلات علي بييف, حوسينوف, سيلمينوف ؟ لا يمكن حصرهم وأعتقد بأنه لم يضع أحداً تساؤلاً مثل هذا من قبل. منهم من سجل في السجلات المدنية, ومنهم لم يُسجل, وصلتنا معطيات عن بعضهم ولم تصلنا عن البعض الآخر.هناك بعض الأرقام التقديرية فقط والتي يمكنها مع ذلك إن تعطي صورة عن حجم "الخونة "الشراكس. ففي عام 1789 انتقل 381 شخصاً إلى مزدوك, و انتقلت حوالي 1000 أسرة إلى ما وراء الخط القفقاسي في عام 1790, وفي "القائمة التي وُضعت للكاباردينيين الفارين بمشيئتهم" في 8 أيار 1822- عشرات العائلات (ص 43), هذا من يوم واحد فقط, من قائمة واحدة وشعب أديغي واحد وهو ليس الأكبر عدداً بين الشعوب القفقاسية ! وتجري نفس العمليات بالضبط على امتداد خط الاتصال بين روسيا والجبليين , ففي منطقة السهوب في عام 1829 يدخل النبيل بيبيردا في المواطنة الروسية وينتقل إلى الضفة اليمنى من الكوبان مع خدمه و ناسه الذين كان عددهم 120 شخصاً. وفي نفس العام تعلن 596 عائلة 1724) شخصاً) ولاءها لروسيا.

تحاول روسيا توطين القادمين إليها بشكل متراص متقارب, إما على الجانب الأيسر من الكوبان مقابل الدفاعات و التحصينات الروسية مباشرة مشكّلة منهم قرى "مسالمة" (مثل قرية جاسوس) بالقرب من أرمافير "وتعني- قرية المنشقين-الفارّين), أو بشكل متراص في عُمق الأراضي

القوزاقية حيث توجد العديد من القرى الأديغية , وكثير منها موجودة حتى وقتنا الحالي, أو كانت تمنحهم الخيار بين العديد من قرى الكوبان والقرى التي يتواجد فيها الشراكسة.

أما المستوطنين"الإشكاليين" –والذين قد يُلهبون نزاعاً دبلوماسيا فقد كانت السلطات الروسية تُرسلهم إلى الدون للانخراط بين فئات القوزاق من عساكر الدون مع دفع القروض بدون فائدة لشراء الثيران والاحتياجات الاقتصادية الأخرى, كما كانوا يرسلون إلى الدون الأيتام الأديغة "لتوزيعهم" على العائلات القوزاقية التي لم تُنجب أولاداً مع دفع مبالغ سنوية لهم حتى سن البلوغ. ولكن بحلول عام 1850 يصبح عدد "الفارين طواعية "و" الخونة" كبيراً لدرجة إن تمتنع السلطات الروسية عن مراقبة توطينهم وتمنح العبيد الفارين أوراقاً تحوي أمراً بأن مالكها "بإذن من السلطات يمكنه إن يعيش في جميع إنحاء الإمبراطورية حيثما يرغب"..

اعذروني مرة أخرى على التذكير, لا تنسوا بأننا نتكلم عن الإبادة الجماعية؟

لم تتوقع روسيا في البداية مثل هذا التدفق الشركسي ,ويتضح ذلك من عدد المرات التي تغير فيها النهج المُتبع بشأن "الفارين طواعية" في بيتربورغ في المراحل الأولى من الصراع –أحيانا تقبلهم و أحيانا لا تقبلهم وتعيدهم من حيث أتوا, أحيانا تعطيهم للأمراء وتأخذ تعويضات عنهم وأحيانا لا...وهكذا.. وكل شيء يتعقد بسبب إنه حتى عام 1829 وإلى حين إبرام معاهدة إندريانوبولة للسلام لم يكن يحق لروسيا رسمياً بقبول العبيد الشراكسة و إيوائهم, حيث إن الكوبان و الشاطىء الشركسي للبحر الأسود كانت تابعة للنفوذ التركي. كان الأمراء والنبلاء يشتكون على روسيا للأتراك, ويكتب الأتراك رسائل تهديد إلى القيصر, ترد عليها روسيا بشيء ما , وفي حال تصاعد الأزمة فإن روسيا كانت تُعيد العبيد الفارين مسببي الأزمة أو تُرسلهم بهدوء إلى الدون وإلى مناطق داخلية أخرى وترد على تركيا تماماً كرد الشرطة المحليين في وقتنا المعاصر"حقاً, لقد كان الشخص هنا ولكننا أضعناه".

بعد عام 1829 تتولى القيادة الروسية مسألة التعامل مع الفارين حتى الأيام الأخيرة من الحرب القفقاسية .وتبدأ باستقبال العبيد الفارين من (مالكيهم الذين يخاصمون روسيا)بدون شروط, وتُعيد العبيد (الذين حلف مالكيهم يمين الولاء لروسيا). وفي حال فر العبد قبل إن يؤدي سيده يمين الولاء لم تكن روسيا تُعيده .

وبهدف تقويض القاعدة الاقتصادية للجبليين"الغير مسالمين" وعلى أساس هذا المبدأ تبدأ القيادة الروسية بتنظيم حملات عسكرية خاصة إلى القرى التي تضم النبلاء المعادين لها ,- وتقوم باحتلال القرية وتنظم فيها مذابح جماعية رهيبة – أي كما هو مذكور في الرسالة" بعنف لاإنساني" وتمنح كل العبيد الحرية.

ابتداء من عام 1820 يستمر الهروب الفردي ولكن الانقسامات تبدأ بالظهور بشكل أكبر. تبدأ قرى بأكملها بالانتقال إلى الجانب الروسي. إننا نعرف بدقة ملابسات اقتحام القرية البجدوغي ينم من قُبل قوات القيصر,والتي تقع بالقرب من كراسنودار الحالية, نعلم عدد الجنود المشاركين فيها, عدد القوزاق وعدد الأسلحة وقاذفات الصواريخ, نعلم التصرف البطولي للمدافعين عن القرية

وماذا حل بهم:"المتبقون في القرية هم الرجال حصراً, اختبؤوا في الأكواخ و دافعوا حتى إن لقوا حتفهم بلهب القرية المشتعلة"و في نفس الوقت نعلم بأن سكان قريتين مجاورتين –ينم الصغرى و بجيغوقواي قد ذهبوا إلى الروس على الضفة اليمنى للكوبان بكامل تعدادهم.وأعطوهم أماكن للسكن وأدوات زراعية وسمحوا لهم بحراثة الأرض.

بحلول نهاية عام 1820 ينقسم الشعب الكابارديني أو بالأحرى ما تبقى منه في الكاباردا بعد العمليات الحربية. وأدى الطاعون والهجرات الجماعية للكاباردينيين إلى الأراضي القفقاسية الأخرى –إن يخرج نصفه من كاباردا إلى الأراضي التي لم تكن خاضعة بعد للجيش الروسي كي يواصل القتال ضد الروس, والنصف الآخر يبقى في موطنه الأصلي ويوقف المقاومة. وبعد عدة سنوات يحذو البيسلانيه حذوهم –في عام 1844 وبرئاسة الأمير كورغوكوف يذهبون إلى الأراضي الروسية ويستقرون هناك وقراهم الرئيسية- كورغوكوفسك و كونجوكوفسك لا تزال موجودة حتى وقتنا هذا.

في عام 1851 يختار الحاتقواي قرارهم- وهم شعب أديغي صغير, يهجر 15 ألف من الحاتقواي (جميعهم تقريباً) أراضيهم التاريخية إلى منطقة خادجينسك الحالية ويقتربون من الحدود الروسية على خط الكوبان و ينشئون قرية جديدة –حاتقواي الموجودة إلى يومنا الحالي.

في عام 1856 يطرد البجدوغ أمراءهم كما يسمونهم-الخونة- وبعد عامين فقط في عام 1858 يبدؤون بأنفسهم المفاوضات من أجل انتقالهم جميعاً إلى الجانب الروسي.

كيف يمكن تسمية هؤلاء الناس بالخونة؟ من خان العبيد الذين هربوا من مالكيهم؟ هل يمكن تسمية إنقاذ العبيد الفارين من أسيادهم بالإبادة الجماعية؟ حماية المضطهدين والمقهورين؟ هل يعتبر سبارتاك مبيداً جماعياً؟ لمن خان كامل البجدوغيين؟ أو معظم الناتوخايين؟ ونصف الكاباردينيين؟ هل هناك فرق بين خيانة الفرد والاختيار التاريخي لشعب؟ عندما تطرح مثل هذه الأسئلة على دعاة الإبادة الجماعية فإننا غالباً ما نتلقى رداً : حسناً ليس هؤلاء الناس هم من نطلق عليهم تسمية خونة – هؤلاء أديغة اضطرتهم المحنة, ببساطة أجبرتهم للذهاب إلى الروس, لو قاتلوا ضد شعبهم فعندها –نعم خونة, أما بهذا الشكل فلا, هم ليسوا خونة.

هل تعبتم؟ فلنتوقف قليلاً لنسترح . وننتقل إلى أجمل الأشياء- إلى الأدب الكلاسيكي.

لننتقل إلى الأدب الكلاسيكي, يكون من المدهش أحيانا إن نرى كيف تعكس القراءة الدقيقة والصحيحة حقائق تاريخية معقدة وخطيرة. فسليمان في "الإلياذة" لهوميروس وجد تروي الخاصة به,(تروي في الإلياذة هي الاسم الإنكليزي لمدينة طروادة الواقعة في منطقة الأناضول-المترجم) و لا تزال النقاشات حول الصحة التاريخية للكتاب المقدس حتى يومنا هذا. ولدى أنصار الإبادة الجماعية في القفقاس تروي الخاصة بهم. إنها قصيدة" إسماعيل بيك" للشاعر ميخائيل ليرمانتوف , عمل ممتاز ! وفي الحقيقة لا يقوم النشطاء القوميين كالعادة سوى بنقل بضعة أسطر منها مثل:

"القرى تحترق, وليس هناك من يحميهم

الأعداء دمروا أبناء الوطن
كالوحش البري, يقتحم المنتصر
المسكن المتواضع بالحراب
يقتل الشيوخ والأطفال
العذارى البريئات والأمهات
ويداعب اليد المدماة

يقولون, أترون شاعر الروائع , شاهد العصر يصف الحرب في القفقاس. أليس هذا دليلاً على إبادة السكان المدنيين وإبادة جماعية لشعب بأكمله؟ " ليست هنالك حماية للقرى" " يقتحم المنتصر بالحراب" يقتل الشيوخ والأطفال "يتضح على الفور من يقاتل ضد من وأي أساليب يستخدمها. هذا وحده أساس كاف للاعتراف بالإبادة الجماعية!

بالفعل إنها لأسطر قوية, ولكن في ذلك يتلخص الجوهر اليسوعي-التافه للوصول إلى أي شيء تحت تسمية إجابة" صحيحة" كما هو الحال في اقتباس فادييف أو بيرغر, فبالنفخ على بعض الحقائق يخفي أنصار هذه الإجابة كلياً حقائق أخرى ويطلبون من الناس أن يقرروا بناءاً على معلومات غير كاملة تتناسب معهم وبالتالي فهي معلومات غير دقيقة. إن أردنا أن نقرأ ليرمنتوف فدعونا نقرأه حتى النهاية. إن أبطال قصيدة " إسماعيل بيك" هما الشقيقان إسماعيل بيك و روسلام بيك وبينهما تحديداً تتكشف كل تقلبات القصيدة, فلماذا لا يقول الناس الذين يضربون بالقصيدة مثلاً عن الإبادة (مع ذلك, مفهوم لماذا لا يقولون) بأن هذه الشخصيات تمثل نماذج حقيقية –أميران شركسيان- أبناء العمومة إسماعيل بيك أتاجوكين و روسلام بيك ميسوستوف- ممثلي ألمع وأرقى الأنساب الكاباردينيه وأجدادهم كانوا من الأمراء-الولاة في الكاباردا, و هذان النسبان يطابقان أنساب ريوريكوفيتش في روسيا..وهما عقيدان رائعان خدما وحاربا في الجيش الروسي بما في ذلك في القفقاس. عقيدان ملكيين رائعين !... نأتي هنا إلى الموضوع الواضح والذي هو من المحرمات التي لا لبس فيها بالنسبة لأنصار نظرية الإبادة الجماعية – وهي مشاركة الأديغة في الحرب ضد الأديغة.

مع أن أنصار نظرية الإبادة يعترفون بهذه الحقيقة ولكنهم يقولون أن عدد الشراكسة الذين حاربوا مع الجانب الروسي لا يُذكر. ..في كتاب "أرض الأديغة" مثلاً يتم ذكر أسماء 71 شخصاً"من خونة الشعب الأديغي", الناس الذين قاتلوا ضد شعبهم...71 شخص – هل هو عدد كبير أم صغير؟

إن انطلقنا من قاعدة إن عدد الشركس في منتصف القرن 18 كان تعدادهم مليون و 200 ألف شخص. و كان بإمكانهم تشكيل جيش من 200 ألف شخص فهذا بالتأكيد عدد لا يُذكر, في حال الوحدة الكاملة للشعب في صراعه ضد الاحتلال الروسي بالطبع ! هل كان الأمر على هذا النحو؟ لنوضح.

من الصعب القول بأن روسيا كانت لتستطيع إن تحتل القفقاس أم لا إن لم يخدم القفقاسيون ويحاربوا ضمن الجيش الروسي. كما هو الحال بالنسبة للشراكسة الفارين إلى الجانب الروسي

وعدد الجبليين الذين خدموا في الجيش الروسي, كل ذلك لا نعرفه بدقة, ولكن يمكن التوصل إلى فهم هذا الأمر من الأرقام الفردية التي بحوزتنا..منذ البداية ومنذ اليوم الأول للأعمال الحربية كان هناك عدد غير قليل من الأديغة الذين يحاربون مع الجانب الروسي. عند إنشاء قلعة مزدوك كان الروس والجبليون يخدمون معاً على حد سواء."تم تأسيس فرقة عسكرية جُمع أفرادها من الجبليين الذين اعتنقوا المسيحية مع تخصيص رواتب محددة, وكان كادر عام 1770 مؤلفاً من 214 شخصاً... "دعونا نتأمل في هذا الكلام مرة أخرى.. إن حرب المائة عام تبدأ مع بناء قلعة مزدوك والتي تم بناؤها رسمياً بطلب من أمير كابارديني, ولكن كما يقول المؤرخون الأديغة فإن الكاباردينيين أنفسهم يحتجون, ويُرسلون الوفود إلى سانت بطرسبورغ ويطالبون بهدم القلعة ويعتبرون ذلك إعلاناً للحرب..هل صحيح ما يقولونه؟ لقد جرى كل شيء تماماً كما يقولون, ولكنهم لا يذكرون القسم الثاني من "الأحجية" , وهو إن مزدوك – معقل للامبريالية الروسية في القفقاس و المكان الذي انطلقت منه "الإبادة الدموية للشعب الشركسي."

إن ممثلي الإمبراطورية الروسية لم يدافعوا فقط عن الروس بل عن الكاباردينيين أنفسهم وإن عددهم لم يكن أقل بكثير من عدد الجنود الروس ! نعم هذه هي الحرب –"التي يضع فيها الروس هدفاً وهو إبادة جميع الأديغة"

علاوة عن ذلك فإن مثل هذا الوضع كان يُلاحظ في كل مكان. يكتب بيتوغانوف في كتابه "تاريخ الأنساب الكاباردينية": "أشار دوبروليوبوف ضمن تحليله للتركيبة العرقية لقوزاق الكوبانفي نهاية القرن 18 بأنها كانت تتألف جزئياً من "1000 نسمة من الذكور من الشراكسة والتتار الذين خرجوا طواعية من ما وراء الكوبان" و" 500 من أهالي زابوروجيه العائدين من السلطنة التركية".

الكثير والكثير جداً من الأديغة الذين جاؤوا إلى الجانب الروسي لم يبدؤوا بالعمل في المجال الزراعي, بل كانوا يذهبون طواعية وبشكل استباقي للخدمة في الجيش الروسي. و كان لذلك أسباب كثيرة – التقاليد الحربية العميقة للشعب الأديغي, بالإضافة إلى بنية المجتمع الأديغي الخاصة جداً والتي قد لا تصادف مثلها في أي مكان والتي تقول بأن قسمة النبلاء هي الحرب, ولم يكن النبلاء بقادرين على القيام بأي عمل آخر ولم يفكروا في مجالات أخرى,.. بالإضافة إلى الغياب التقليدي للحواجز الأخلاقية والاجتماعية التي كان من الممكن أن تمنع الأديغي من أن يحمل السلاح بوجه الأديغي, فقد كان الأديغة مقسمون تقليدياً ويواجهون بعضهم البعض على مر العصور..بالإضافة إلى السعي للحصول على المخصصات من الأراضي والأموال والتي كانت تُمنح بشكل خاص للقوزاق...رغبة الوصول إلى رتبة الضباط والحصول على وضع اجتماعي ورواتب جيدة.. وأخيراً فإن الكثيرين من الذين انخرطوا في الجيش الروسي كانوا يرون ضمانة بأن الجيش لن يسلمهم إلى مالكهم السابق الذي فروا منه..الخ. بالمناسبة ,تحدثنا سابقاً بأن روسيا كانت تُعيد العبيد للمالكين الذين أقسموا يمين الولاء وأصبحوا كما كان يُقال وقتها "شركسي مسالم"أو للذين انتقلوا للخدمة في الجيش الروسي. كانت هناك استثناءات لهذه القاعدة, ففي عام 1846 قدم أمراء ونبلاء تشيرتشينيسك و خاميشكي الذين أدوا يمين الولاء طلباً إلى السلطات الروسية يطالبونهم فيها إعادة 125 شخصاً من الفلاحين الفارين التابعين لهم, وتبين عند التحقيق بأن جميع اؤلئك الفلاحين تقريباً كانوا يخدمون في الجيش الروسي

ضمن فوج قوزاقي في ذلك الوقت, حتى إن أربعة أشخاص منهم قد نالوا رتبة رقيب على خدماتهم القتالية في القفقاس أو قُلدوا وسام "صليب غيورغي", وبالطبع لم يُنفذ طلب الأمراء حينها.

كان الشراكسة عادة يخدمون ويحاربون في هذين النوعين من القوات العسكرية : في المدفعية وفي سلاح الفرسان بجميع أنواعه. مثلاً الجنرال موغوكوروف- الشخص الذي قرر نتيجة معركة كالاووسك التي قُتل فيها حوالي 2500 شخصاً كان ضابط مدفعية . وخلال حرب القرم كان كشافة أحد أفضل الجنرالات في ذلك الوقت –باكلانوف هم من الكاباردينيين.. . بطل آخر من أبطال حرب القرم – بيسلان أبوكوف الذي حارب ببسالة في منطقة بالاكلافوي وأصيب إصابات بالغة وظل فاقداً وعيه لثلاثة أيام وهو راقد مع الموتى في ساحة المعركة حتى اكتشفه البريطانيون وأرسلوه إلى لندن ثم عاد إلى روسيا- كان رائداً في فوج غوسار من كييف. ومع ذلك لم يكن هذا النوع من القوات هو مكان الخدمة الأساسي للشراكسة.

عند الحديث عن وحشية قوات الجيش القيصري, فإن الأديغة يتكلمون أكثر ما يتكلمون عن القوزاق, هنا وهناك يقول الأديغة أن القوزاق هم من قتَل الشراكسة واستوطنوا أراضيهم. على الأرجح إن وجهة النظر هذه مُحقة في كثير من الجوانب. هذا هو تاريخنا بدون تلميع ! غير صحيح سياسياً!

ولكن هناك أمر مثير للدهشة, هو إن الغالبية العظمى من الأديغة كانوا يخدمون تحديداً في الوحدات القوزاقية ! لقد كان روسلام بيك ميسوستوف عقيداً قوزاقياً- وهو نموذج مطابق لروستام بيك في رواية ليرمانتوف...يخدم الأديغة ضمن جميع وحدات القوات القوزاقية في جنوب روسيا- في الدون و الكوبانوتيرسك , وفي حال كان بعضهم يذهب إلى هناك حسب"الأوامر العسكرية" فإن البعض الآخر كان بنفسه يصر ويتوسل للسلطات لإلحاقه بالقوات القوزاقية.
تتشكل عدة قرى جبلية قوزاقية في الكوبان و ستافروبل – مثل قرى غريفينسكايا , بابوكوفسكايا, لوكوفسكايا, وقرية أدي والتي يقطن فيها حصراً القفقاسيين القوزاقيين- الشركس و الأبازين و الأوسيتين .

و بالمناسبة, إن قرية غريفينسكايا أسسها علي شيريتلوكوف- نصير الأمير البجدوغي الأسطوري باتي غيري, الذي ذهب إلى يكاترينا والذي لم يسمح له البجدوغ بالعودة إلى الوطن بعد التسوية مع الطبقة الارستقراطية ....أما القوزاقي المسؤول عن مدينة لوكوفسكي والتي في عام 1875 بلغ عدد القوزاق الشراكسة فيها 775 شخصاً وعدد القوزاق الأوسيتين 118 شخصاً كان الأمير زاو ربيك دوتوكوف–سيريبرياكوف- رئيس لجنة مكافحة الانتفاضة البلشفية في وسط وشمال القفقاس, قائد لواء البيض الكابارديني الذي قُضي عليه عام 1919 .

بالقرب من المدن" الشركسية" تبدأ المزارع الشركسية بالنمو مثل الفطر و لا يزال البعض منها حتى يومنا هذا, مثلاً مزرعة (عزبة) موغوكوروف في منطقة القرم. ويُسجل كثير من الشراكسة في القرى القوزاقية كسكان سلافيين حصراً. في منتصف القرن 19 يبلغ عدد المسلمين في

الوحدات الروسية القوزاقية حداً يضطر المجلس الحربي للإمبراطورية الروسية في عام 1855 إن يتخذ "قواعد خاصة لتنظيم الحياة الروحية لمحمديي الفئة القوزاقية."

يخدم الشراكسة بشكل جيد وبضمير, وتتكرر أسماؤهم ضمن قوائم الحاصلين على الأوسمة خلال الحرب القفقاسية بشكل مألوف, وهذه بعض الأمثلة المثيرة للاهتمام :عند الاستيلاء على قلعة أنابا في 12 حزيران 1828 يحصل قوزاقي على وسام صليب غيورغي "القوزاقي من نبلاء ما وراء الكوبان من قبيلة جينييف ذات العقيدة المحمدية" وهو بيسلان شاغان –غيري غوساروف يبلغ السادسة عشرة من عمره. وخلال نفس الحملة وبسبب المشاركة" في الكثير من المعارك ضد الأتراك و الشركس" يحصل محمد شيريتلو أوغلي ذو ال 17 ربيعاً على وسام القديس غيورغي..فارس الفصيل الأول لكتيبة الخيالة الجبلية في أنابا شيريتلوك سوباي يحصل على الوسام " لشجاعته الممتازة التي أبداها في تشرين الثاني 1851 على أراضي الناتوخاي العاصين "

منذ عام 1844 ولغاية 1864 كان عدد أوسمة الصلبان الممنوحة للمسلمين(مع النسر الإمبراطوري) لقاء تميزهم في حرب القفقاس أكثر من 750. والحق يقال بأن مكافأتهم كانت مُستحقة ! ففي عام 1846 صدت الميليشيات الكاباردينيه هجوم شامل الذي نظم حملة إلى كاباردا أملا في توحيد القوى مع الأديغة خصوم روسيا كما تهيأ له....في عام 1851 فقط تمت مكافأة حوالي 200 أمير ونبيل كاబارديني لتميزهم في العمليات الحربية ضد شامل. وقد منح القيصر نيكولاي الأول راية فخرية خاصة للكاباردينيين للشجاعة والبسالة التي أبدوها في هذه الحملة. وقد جاء في الكلمة الترحيبية للقيصر حينها :" إن الحرص الدائم و التفاني و الجاهزية الدائمة لحمل السلاح الذي أبداه الكاباردينيين في وجه الجبليين الأعداء قد لفتت انتباها إكرامياً خاصاً من قِبلنا تجاههم"...وفي وقت لاحق كان للأديغة مشاركة فعالة في المرحلة النهائية للحرب القفقاسية وفي طرد شعوب البحر الأسود الشركسية -الشابسوغ و الوبيخ و الناتوخاي.

إليكم على سبيل المثال ما يكتبه الملازم شيبشيف عام " :1896 إن رئاسة الإقليم الحالية لا تثق بالمثقفين الجبليين و لا تمنحهم المراتب ,ولكن في عام 1863 عينني يفدوكيموف رئيساً لمنطقة الشابسوغ الحربية برتبة نقيب رغم وجود مرشحين روس برتبة عقداء لهذا المنصب. ثم عينني رئيساً لفرقة متجولة تعنى بقمع الجبليين المتمردين. ثم منحني وظيفة إخلاء الشراكسة الشابسوغ إلى تركيا. وقد طردت 63 ألفاً من كلا الجنسين وقد تم ترحيل منطقة الشابسوغ دون أي عنف من قِبلي حسب أوامر النظام. وقد تلقيت الكثير من الشكر والأوسمة على تنفيذي لهذه المهمة "

بالمناسبة , في نهاية الحرب كان بين الأديغة عدد من الجنرالات وحوالي 15- 20 عقيداً وعدد كبير من الضباط الأقل رتبة. مثلاً الجنرال سلطان عادل غيري الأخ الأصغر للمؤرخ الأديغي والمربي المعروف خان غيري كان قائداً للعاصمة القيصرية الثالثة– وارسو.

ينتقل تدريجياً قسم كبير من الشراكسة إلى الجانب الروسي. ففي الفترة الثاني ة من العمليات العسكرية كانت تشكيلة القوات الروسية تضم الأقسام التالية و التي كان يخدم فيها فقط الشراكسة و بشكل حصري:

-الشرطة الجبلية الوافرة العدد التي تضطلع بمهام الحماية ووظائف الشرطة في الأراضي التي يشغلها الشراكسة " المسالمين" , وقد استخدمت القيادة الروسية ممثلي هذا القسم كمترجمين وكشَافة ومُرشدين .. الخ

-كتيبة أنابا الجبلية للخيالة
-كتيبة لابينسك للخيالة الغير نظامية.
-سرية حرس القفقاس الجبلي المتمركز في بيتربورغ والذي يتولى حماية القيصر , وهم قاتلوا في بولندا ضد الثوار عام 1831.
-فوج فرسان القفقاس الجبلي , والتي كان نصفها من الجبليين.
-فوج خيالة تيرسك, والتي كان يخدم فيها عدة مئات من الكاباردينيين على الدوام والتي كان يرأسها لوقت طويل شخص باسم تامبييف علي إنوبيكوفيتش.

وعدا عن التشكيلات الجبلية فقد تسجل الكثير من الأديغة باسم القوزاق وخدموا في أفواج القوزاق, فوج الدون والكوبان و تيريك بما في ذلك القفقاس.

عند نهاية الحرب كان مجموع الأديغة الذين يحاربون على طرفي النقيض متساو تقريباً. كيف تسمى الحرب التي يحارب فيها قسم مساو من الشعب ضد قسم آخر من الشعب ذاته؟ هل هي حرب أهلية؟ إن حاولنا الإجابة على سؤال: هل كانت الحرب القفقاسية حرباً أهلية بالنسبة للأديغة سيرتسم أمامنا وضع مثير و متناقض جداً- فمن جهة هنالك كمية كبرى من الحقائق التي تدعم هذا الاستنتاج, و لكن من ناحية أخرى ,ناحية نظرية بحتة فإنه لا يجوز قول مثل هذا الكلام. انظروا, إن مجريات و خصائص الحرب في القفقاس تملك عملياً كل بوادر الحرب الأهلية- تقسيم المجتمع إلى معسكرين مع قوى متساوية تقريباً, و لكن مع اختلاف جوهري في الرؤى المستقبلية , هذا في الخدمة الطوعية في معسكرات الأعداء لأفراد العائلة الواحدة و القيادة الفوضوية الغير منظمة و انتقال الناس من معسكر لآخر و تفريق الجبهات , و عدم وجود سجلات, و حرب العصابات و كثرة التغيرات في المواقف و فترات الهدنة و محاولات الاتفاق و العيش بسلام , و من ثم الحرب مجدداً, و الأعداد الكبيرة من الناس التي تقف موقف المحايد .

لقد كانت كل هذه الميزات و الدلائل بقعاً عامة و حرباً أهلية في روما القديمة و في الحرب الأهلية في أمريكا, وفي حرب 1918- 1922 في روسيا , و اسمحوا لي, الحرب في القفقاس. إن هذا الموضوع مثير للاهتمام للغاية و آمل أن تجد باحثاً متعمقاً.

و من ناحية أخرى فإن التأكيد على أن الحرب في القفقاس كانت تحمل مواصفات الحرب الأهلية, فمن وجهة نظري و رغم حجم الأدلة فإن هذا ليس صحيحاً حيث كان العامل الأساسي مفقوداً لدى الشراكسة –و هو المواطنة. فهم لم يكونوا مواطني دولة واحدة و لم يكونوا متوحدين و كانوا على درجات متفاوتة من التطور, و بهذا المفهوم فان الحرب الأهلية لم تكن.

لندع الحرب الأهلية جانباً فسواء كانت حرباً أهلية أم لا فهو ليس بالتساؤل المبدئي هنا. فالأهم هو

– أن الأديغة قد لعبوا دوراً هائلاً في حرب القفقاس. و لا يجوز ألا نعتبر هذا الموضوع . و يأتي هذا الكلام ضمن سياق أحاديث جنرالات القياصرة ذوو المراتب العالية . و تفصيلاً نقول بأن الناشط الروسي في الخارج في القرنين 19 – 20 فيتا يقول بأنه لا يمكن تجاهل " الدور الذي لعبه أهل البلد في إخضاع القفقاس" .و إليكم ما كتبه الأمير ميشيرسكي في مذكراته الصادرة عام 1876بعد وقت قصير من انتهاء الحرب:"لقد تم احتلال القفقاس بأسلحة الروس..و بأسلحة أهالي البلد في القفقاس, و رأينا على امتداد 60 عاماً من الحرب في القفقاس تميز السكان المحليين في كل مكان في هذه الحرب..قدموا خلال الحرب كوكبة من الأبطال الذين استحقوا أعلى الرتب و الأوسمة "إن اعتبرنا نتائج الحرب إبادة جماعية فكيف سنقيم حسب مواقف القوميين الوطنيين الأديغة هذا القسم من الإبادة؟ القسم الذي قام به الأديغة أنفسهم ضد الشعب الأديغي؟ "هذه الكوكبة من الأبطال الذين استحقوا أعلى الأوسمة"؟ كيف سنميز الذين قتلهم الروس عن الذين قتلهم الأديغة؟ كيف سنُقسم المسؤوليات؟ و ما الذي سنفعله بتلك الحالات الغير قليلة والتي قتل فيها الأديغة أبناء جلدتهم وقام الروس بحمايتهم؟ لقد أوردت مثال الأمير كانجوكين والنبلاء البجدوغ مع العبيد الفارين, فلنأخذ مثالاً آخرا حول نفس الموضوع.

عام 1852 أحد قادة الأديغة – محمد أمين – يقوم بتنفيذ حملة عقابية ضد قبيلة من الأديغة, يضربهم ويقتلهم وكان سببه للقيام بذلك قوياً. فحقيقة الأمر أن هذه القبيلة قد أذنبت كثيرا أمام باقي الأديغة –فهم لم يحاربوا ضد الروس. فقد وقفوا موقف الحياد خلال فترة الحرب وكانوا يفتخرون بذلك. ولهذا السبب تحديداً أراد محمد أمين معاقبتهم, فيرسلون مفرزة لمساعدة القبيلة من حصن " الروح القدس" (أدلر الحالية) بقيادة الرائد بيبيكوف مع 740 رجلاً ومدفعيتين, ويلتقي الجيشان في معركة قصيرة, وتحسم المدافع المعركة ويخسر الأديغة حوالي 20 شخصاً ويتراجعون...لقد حالف الحظ القبيلة الأديغية هنا فقد دافع عنهم الروس "الذين يريدون أرضاً بدون شعب" ولم تكن الحملات التأديبية ضد القبائل الثائرة قليلة. لمن سنحمل خسائر الأديغة الذين قُتلوا على يد الأديغة هنا لرفضهم القتال ضد روسيا؟ إن نظرية الإبادة تقترح أن نعتبرهم قتلى على يد الروس ولكن حقيقة الأمر كانت معاكسة لذلك, فقد قتلهم الأديغة ودافع الروس عنهم.

كيف سنُقسم هذه الإبادة؟ مثل رغيف الخبز, نصف لي ونصف لك؟ لا أعلم ولننظر إلى تجارب العالم – أي لنفعل ما يفعله الذين يتهربون من الآهات الجميلة للإبادة وهم يوردون العبارة الوحيدة كدليل على الإبادة" كيف للمرء ألا يصدق الإبادة الجماعية للأديغة؟". كما رأينا فان أمريكا لا تعترف بإبادة الهنود ومن ضمن الأسباب أنه من المستحيل التمييز بين هذه النقاط. من المستحيل حصر قبائل البيكفوت الذين لقوا مصرعم على يد الانكليز من بين الذين لقوا مصرعهم على يد الهنود أنفسهم ! ومن هذا المنطلق يعتبر الأمريكان بأنه من غير المقبول ومن الخطأ الاعتراف بإبادتهم للهنود, ولم يكن البيض هم من قضوا على الهورون ! فلماذا سيحملون ذنباً انطلاقاً من هذا المبدأ الأخرق؟

أن المقارنة مع قوائم الإبادة الجماعية في العالم ومع الأمثلة المتشابهة – توضح الكثير حيث تُبرز بوضوح التشابه والتناقض بينها . والمسألة بسيطة هنا "للتقارير" – إن كنت تخشى حقائقك وحججك وتعتبرها ضعيفة فيجب أن تتجنب المقارنة, وبالطبع إن كنت واثقاً في نفسك – فيجب أن تستخدمها باستمرار كونها حجة قوية دائمة لصالحك. دعونا مرة أخرى نتجاوز الخجل الطبيعي

للعلوم الاجتماعية الأديغية المعاصرة ولنقم نحن بالفعل الذي تحمي به شعبها لسنوات طويلة وبحرص ونجاح – فلنقارن إبادة الأديغة في هذه النقطة مع الأرمن . بالمناسبة فان القوميين الأديغة يقارنون أنفسهم مع الأرمن في هذه المسألة كثيراً قائلين " هاهي فرنسا قد اعترفت بإبادة الأرمن فلماذا لا تعترف بإبادتنا؟ ما الذي سيكلفها ذلك؟".

عام 1915 تقوم مذبحة الأرمن, الإبادة الجماعية ! النتيجة مئات الآلاف من القتلى والأرمن لا يقاومون حيث لا جيش لديهم, هم عُزل بدون حماية ,يفر الأرمن إلى روسيا ولبنان وسوريا واليونان , ولكن الأتراك لا يسمحون لهم – يقبضون على الأرمن ويذبحونهم ويقتلونهم بالبنادق بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة مثل أوراق الخريف, يحرقونهم بالآلاف ويعتنقون الإسلام تحت تهديد القتل, وخلال أيام يقطعون رؤوس كل الأرمن في أضنة وحلب ..أما في وقتنا الحالي..لا, لدينا مادة تاريخية مختلفة, فقد كان كل شيء على نحو مغاير,! فقد كان للأرمن جيش مسلح من قِبل بريطانيا وروسيا . وقد حاربوا لسنوات وعقود ضد الأتراك, يقومون بغارات خاطفة في العمق التركي ويأخذون الأسرى والماشية. وبالتوازي مع هذا تتحارب الميليشيات الأرمنية ضد بعضها البعض في مختلف مناطق تركيا, في كيليكيا تتواجه القوات الأرمنية القادمة من أضنه وحلب ضد بعضها في معركة شرسة, وتحارب مفرزة مدفعية تركية إلى جانب أرمن أضنة بطلب من قادة الأرمن. يندحر جيش أضنة ويبدأ قادتها مفاوضات مع تركيا للانتقال الجماعي إلى طرف تركيا. وعلى خلفية المفاوضات والصراع الدائر يفر الأرمن إلى الجانب التركي –يفرون فرادى وعائلات وقرى وشعوب بأكملها. تستقبلهم تركيا وتعطيهم أراض وقروض للتنمية وتقوم بحمايتهم من الأرمن الآخرين. وفي وحدات الجيش التركي هناك سرية أرمنية وفرق وأفواج. ويصبح الأرمن الحرس الشخصي للباشا, و أنور باشا الذي صرح شخصياً للأرمن "بأنني أحرمكم من جذوة (الأمل الباطل) للضمير" يلقي بهذه الوحدات للقتال ضد الأرمن أنفسهم.

ستقولون أن تلك فانتازيا, وسأجيب بأنها ليست فانتازيا, أما الإجابة على سؤال لماذا لا تعترف فرنسا فلا يحتاج سوى لمقارنة بسيطة للإبادة الحقيقة مع الواقع. إن كل هذه الحقائق كانت موجودة في الحرب القفقاسية وقمت فقط بمقارنتها مع الإبادة الأرمنية .

لنعد إلى ما بدأنا به, إلى قصيدة ليرمانتوف" إسماعيل بيك" والتي تنتهي بقتل روسلام بيك لأخيه إسماعيل بيك, وهذا يطابق ما حصل في الواقع تماماً حيث قُتل إسماعيل بيك أتاجوكين, ورغم عدم وجود أدلة مباشرة لذلك ولكن الشعب كله كان مقتنعاً بأن روسلام بيك ميسوستوف هو من قتله, وهكذا نرى أن أميراً شركسياً وهو عقيد روسي لامع حارب في القفقاس يقتل أخاه الأمير الشركسي العقيد اللامع أيضاً والذي حارب في القفقاس, هل تشعرون بالمكائد؟ ويعرضون علينا أن نعترف بقتل إسماعيل بيك كإبادة جماعية!

بالمناسبة في قصيدة ليرمانتوف, عندما يموت إسماعيل بيك ويقوم أصدقاؤه بحل لباسه العسكري يرون وسام"صليب غيورغي".

لنعد إلى الهنود الحمر, هناك تشابه شبه مطلق سواء في الحقائق التي يقدمها أيديولوجيو الأديغة وبين حقائق الهنود وكذلك بين حجج العلماء الأمريكان في مواجهة هذه الحقائق وبين الوضع في

القفقاس خلال الحرب, إن كل الحقائق الكثيرة سواء"مع" أو "ضد" تخول الأغلبية الساحقة من مؤرخي وسياسيي وقانونيي و النشطاء الاجتماعيين الأمريكان أن يتخذوا الموقف التالي وهو الموقف الرسمي فعلياً : من المستحيل إنكار موت ومعاناة السكان الأصليين للقارة الأمريكية من قِبل الأوربيين وكذلك موت ومعاناة المستوطنين من قِبل السكان الأصليين. ومن المستحيل كذلك الاعتراف بأن قتل السكان كإبادة جماعية " القتل المتعمد" كان هدف المستوطنين الأوربيين في أمريكا. إليكم ما يكتبه المؤرخ ستافورد بول :"هناك مصطلحات أخرى لوصف ما حصل في نصف الكرة الأرضية الغربي ولكن الإبادة الجماعية لا تدخل من بين هذه المصطلحات. انه مصطلح جيد ودعائي عندما تحل الصرخات و الأسلوب المنمق مكان الفكر والدلائل, واستخدامه في سياق الحديث والمقارنات يقلل من قيمة المصطلح والفظائع التي حلت باليهود و الأرمن كمثالين لضحايا مروعة للقرن".

أليست جملة رائعة بالفعل"تحل الصرخات والأسلوب المنمق مكان الفكر والدلائل" ألا يتكلم هو عن القفقاس الحالي؟ ألا يوجد تشابه هنا؟ أظن أنه موجود بكل تأكيد, ويجب أن يكون هذا التطابق أيضاً في النتائج التي علينا الوصول إليها على أساس مقارنة الوضع بالنسبة لموقف أمريكا من الإبادة مع الوضع في القفقاس. إن كانت أمريكا وفي ظل هذا التطابق المطلق لا تعترف بإبادة الهنود فعلى أي أساس يجب أن تعترف روسيا ؟ من سيشرح لنا هذا الأمر؟

ولأجل قول الحقيقة كاملة ولكي نُغلق موضوع الهنود علينا القول بأن هناك فرقاً في الواقع بين الشكل الذي تصرفت به روسيا في علاقتها مع الجبليين والشكل الذي تصرفت به أمريكا الفتية مع الهنود الحمر, هناك فوق جوهري وله علاقة بالإبادة.

الحديث يدور هنا عن المدخل الحكومي تجاه أناس من حضارة أخرى والذي يتوجب عليك أن تعايشهم وهذا أمر ليس بالسهل ! وهنا تتوضح لنا وجهتي نظر متناقضتين لدولتين .

إن أمريكا تسير في طريق التمييز العنصري والضغط على الغرباء وعدم السماح لهم بالدخول إلى محيطهم, يقوم هناك مبدأ الأراضي المحجوزة و إجلاء السكان الأصليين إليها, ما الذي تعنيه الأراضي المحجوزة؟ إنها ليست إحاطة الأراضي بأسوار كما يعتقد البعض, أول شيء فيها هو – إنها نزاع حضارات ! إن الحكومة تقول للهنود :"نحن وأنتم أناس مختلفون, إننا نحيا في عصر صناعي أما أنتم فتعيشون في مجتمع عشائري, إننا نطير بالطائرات وأنتم ترقصون بالسهام حول النار, أنتم متوحشون وليس بإمكاننا أن نعيش سوية فالفروقات بيننا هائلة, ولذلك نعزلكم. نسن لكم أهم القوانين والقواعد مثل "لا تقتل" وتكفلوا أنتم بباقي الأمور بأنفسكم. لن نقترب منكم وكذلك أنتم, سنرمي لكم ببعض النقود ولكننا سنقول لكم أين ستصرفونها" إنها تقسيم حضاري كامل لشعبين يعيشان بجانب بعضهما !

إن الفرق الحضاري بين الروس و الأديغة لم يكن كبيراً إلى هذه الدرجة, رغم أنه إن نظرنا إلى"الخابزه" والقوانين التي وضعتها القيصرية الروسية في عهد الكسندر الثاني فان هذا الفرق على الأغلب لا يزال كما هو. إن روسيا لا تختار مبدأ الأراضي المحجوزة مع الشعوب التي دخلت محيط المستعمرات بل بالعكس من ذلك تماماً – على مبدأ الحقوق المتساوية وتأثيرها

الأعلى في حياة هذه الشعوب. وبالتالي فان الأديغة عملياً قد قفزوا مباشرة إلى مجتمع صناعي وتطوروا ونموا لاحقاً على نفس الوتيرة كباقي شعوب روسيا ومن ثم كباقي شعوب الاتحاد السوفيتي.

إن الهنود المنغلقين ضمن النظام الأبوي لم يعودوا موجودون بالطبع كما في القرون 17- 18, ولكنهم لم يصلوا إلى الأمريكي المتوسط المستوى حتى ,وهذا شيء طبيعي ولما كان ليحصل ضمن ظروف كان فيها المجتمع الأمريكي ولعقود طويلة وبشكل رسمي يعتبرهم لصوصاً وأناس بمرتبة ثانية – لم يتمكنوا من الدراسة في المدارس ,أو يقوموا بأعمال حرة أو يعملوا بأعمال "نظيفة" أو يتقدموا إلى المحاكم حتى بأمورهم الخاصة...الخ, ولم يحصلوا على الجنسية الأمريكية إلا في عام 1924, أما سكان استراليا فقد حصلوا عليها في عام 1967 ! استمر التمييز العنصري في أمريكا حتى الستينات من القرن 20.

وبالتالي ومع تنامي الليبرالية في أمريكا في عام 1990 عند اعتماد السياسة التي تُسمى"أفيرماتيف أكشن" والموجه إلى تجاوز تخلف الزنوج والهنود الحمر عن السكان البيض في أمريكا , اعتمد عام 1998 قانون خاص – ايندیان غيمينغ ريغوليتوري اكت, والتي سمحت للهنود إقامة كازينو في أراضيهم المحجوزة" في الوقت الذي تخضع فيها تجارة المقامرة في أمريكا إلى تحكم شديد من قِبل السلطات الأمريكية. فقد قررت المحكمة بأنه طالما تم ترحيل الهنود إلى أماكن غير مناسبة للعيش و لا تحوي على ثروات مفيدة و لا يستطيعون ممارسة الحِرف التقليدية التي تسمح لهم الحصول على مواد العيش فانه يحق لهم ممارسة تجارة المقامرة.

في ظل الظروف التي يقوم فيها المؤرخين الأديغة وكتابهم الاجتماعيون بتقديم تحليل قومي ورؤية سياسية موجهة لأحداث الماضي الساخنة, بينما لا تعيرها العلوم الأكاديمية لفترة طويلة أي اهتمام فان ذلك يؤدي إلى تشكل عدد هائل من الأساطير المختلفة حول الحرب القفقاسية والتي ستستمر في التشكل. وان حجم ومستوى استقبال واقتناع المجتمع الأديغي لهذه الأساطير يفوق الخيال. وان أي شخص بسيط غير محنك لن تذكره الحرب القفقاسية التي تبتعد كل البعد عن الأحداث التي جرت في الواقع بكتاب تاريخ بل بكتاب" أساطير وخرافات اليونان القديمة. "

لذلك ثلاثة أسباب –أولها لأن النخبة القومية قد ظلت ولعقود طويلة لا تقدم للشعب سوى وجهة نظر موجهة أحادية الجانب حول هذه الأحداث متجنبة كل المعلومات الأخرى.

ثانياً: لأن هذه النظرة تحديداً هي ما يرغبها ويطالب بها المجتمع الأديغي – أي معلومات أسطورية خرافية عن "الأسلاف الأبطال" و" المحتلين الأشرار" تُستقبل بحرارة دون أن تُثير أدنى شك عند أي شخص.

ثالثاً: عدم وجود جواب من طرف العلوم الرسمية يؤدي إلى تضخيم مستوى التصديق بالإبادة دون مناقشة- يستطيعون القول " نعم إنهم لا يملكون جواباً , حيث أننا على حق" وهذا ما يزيد من حجم الخرافة والأساطير وتخرج من عقال الحقائق التاريخية و لا تتميز الأسطورة عن الحقيقة.

الأرض:

إن إحدى تلك الخرافات تتحدث عن التوجيه المتعمد من قِبل روسيا لتوطين الأديغة الخاضعين في الأماكن التي ينتشر فيها مرض الملاريا بهدف القضاء على الأديغة كي تنتهي قضيتهم لوحدها. إن هذه الفكرة منتشرة بشكل واسع, يتكلمون عنها ويكتبون عنها في الكتب ويستخدمونها كحقيقة في تأكيد الإبادة الجماعية. ويتكلم النشطاء الاجتماعيين باستياء عن هذا التوجه الوحشي من قِبل السلطات القيصرية ولكنهم ولسبب ما لا يقدمون أمثلة.

تعالوا نتجاوز التواضع الطبيعي ولنحاول أن ننظر إلى الأماكن التي قامت السلطات القيصرية بتوطين الأديغة فيها, إن نظرنا إلى الخريطة فسنتمكن بسهولة التوصل إلى بعض الأسس التي اعتمدتها الإدارة الروسية في توطين الأديغة.

أولاً: بالنسبة للأديغة الذين انتقلوا إلى الجانب الروسي خلال الحرب القفقاسية فقد كانت القاعدة أن تعرض عليهم السلطات أن يختاروا بأنفسهم المكان الذي يرغبون الاستيطان به, حصل ذلك مثلاً في حادثة نبلاء الناتوخاي و الشابسوغ حيث قرروا بأنفسهن المكان الذي يرغبونه ,اختار الناتوخاي المناطق الواقعة بين حصن غوستاغايف وأنابا, بينما اختار الشابسوغ المنطقة بين مصب أفيبس في الكوبانوكاراكوبان.

أما الأشخاص القادمين إفرادياً فقد كان بإمكانهم حسب النظم الإدارية أن يسكنوا المناطق التي أصبحت قرى أديغية, مع مراعاة رأي الفرد ومحاولة اختيارهم للأماكن التي كان يتواجد فيها أقاربه. كما تصرف "سفاحو الشعب الأديغي"مثلاً مع تشينالي شيماخوف الذي استقر في قرية فولن الموجودة حالياً على حدود نالتشيك قرب شقيقه الأكبر.

أما بالنسبة إلى العبيد السابقين الذين استطاعوا الفرار من أسيادهم أو بالنسبة إلى اؤلئك الذين حصلت الإشكاليات بشأنهم مع تركيا فقد تم توطينهم في مناطق جيش الدون وتسجيلهم في عداد القوزاق مع دفع تعويضات لهم . وقد استوطن الحاتوقاي و البيسلانيه على الأراضي التي كان تشغلها الجيوش الروسية والتي بحثت عن موقع آخر لها. وفي أعوام 1850 يصبح عدد الفارين كبيراً لدرجة خرجت عن سيطرة السلطات التي كانت تمنحهم كتاباً بأنهم أناس أحرار و بإمكانهم العيش في المكان الذي يرغبون به.

وخلال الحرب وعندما كانت منطقة بأكملها تخضع للروس كان أناسها يبقون في أماكنهم دون تهجير كما في القرى الكاباردينية التي كانت و لا تزال حتى وقتنا الحالي. فإلى أي أماكن يعشش فيها الملاريا تم إرسال الكاباردينيين؟ وعندما تتكلم بهذا الشكل مع بعض الأديغة يردون عليك قائلين بأن هذا التصرف كان بالنسبة إلى الأديغة الذين انتقلوا إلى الجانب الروسي, أما الأديغة الوطنيين الذين قاوموا فقد أرسلوا إلى مناطق مهوله. حسناً لنرى إلى أين تم ترحيل المقاومين.

القرية البجدوغية ينم, قاومت بضراوة ! كانت هناك حوالي 5 حملات عسكرية ضد قرية ينم وقاوم السكان ببسالة وصمدوا حتى النهاية ! إن هذه القرية لا تزال موجودة في المكان الذي كانت

عليه وقاومت منه ! قرب كراسنودار , وبالمناسبة ففي هذه القرية ولد رائد الفضاء بيريزوف عام 1942.
كوشحبله, القرية التي أسسها "الفارين الكاباردينيين" –الخصوم الأشداء للسلطة الروسية- الذين رفضوا الخضوع لروسيا وخرجوا من كاباردا . لقد كانوا بالفعل قلائل وخصوم ألداء قطعوا علاقتهم مع نصف شعبهم الذي كان يريد العيش بسلام مع روسيا. مضت 20 سنه واحتلتهم روسيا في المكان الجديد الذي استقروا فيه. هل تم طردهم إلى مكان آخر؟ هل تعرضوا إلى ثأر فظيع؟ أليست هي قرية كوشحبله نفسها التي تعد الآن ثالث منطقة سكانية في الأديغية بعد مايكوب و تيوجيجسك؟

المدخل الآخر للإدارة الروسية كان تجاه الأديغة الذين تم احتلال أراضيهم في الأعوام الأخيرة من الحرب – الأبازيخ و الناتوخاي و الشابسوغ و الوبيخ. فبالرغم من توسلاتهم وطلباتهم الكثيرة إلا انه لا يُسمح لهم بالبقاء في أراضيهم ويأمرونهم إما بالاستيطان في سهول الكوبان أو الذهاب إلى تركيا .وكان لروسيا ثلاثة أهداف من وراء ذلك :

1- تأمين إسكان الخصوم الألد من الأديغة بالنسبة لها في المناطق التي يصعب عليهم فيها القيام بنشاطات العصابات – ولذلك تم إنزال الأديغة من الجبال والغابات وتوطينهم في السهول.

2- يتم توطينهم على مسافة 150-100 كم عن الشواطئ البحرية مما يُلغي احتمال تقديم المساعدات لهم من قِبل تركيا أو الانكليز.

3- يتم توطينهم في المناطق التي يسهل فيها مراقبتهم من قِبل القوزاق, مقابل القرى القوزاقية ويفصل بينها الكوبان أو نهر لابا, وفي حال كانت القرى قائمة فيتم توزيع قرى قوزاقية كبيرة مقابلها .

كل هذه الإجراءات كانت تجعل من مقاومتهم أمراً مستحيلاً.

نعم, فقد كان وباء الملاريا منتشراً هناك على أغلب الظن, وكما قلت سابقاً فان الملاريا بشكل عام كانت منتشرة في القفقاس وليس في السهول فقط وفي المناطق المتاخمة لنهر الكوبان و لكن في الأماكن التي كان يعيش فيها الأديغة تاريخياً- في بيتيكورسك, على شواطئ البحر الأسود, على أراضي الناتوخاي... الخ, أي نظرياً إن كان الهدف هو أن يعاني الأديغة من الملاريا, فقد كان من المفروض تركهم في الأماكن التي كانوا يقطنوها, كانوا ليعانون بالتأكيد عندها من الملاريا ! ولكن تم نقلهم إلى الكوبان. ولننظر الآن إلى الأماكن التي تم ترحيل الأديغي إليها بوضوح.. . عملياً فان كل القرى التي تم إنشاؤها في تلك الفترة تقع على الطرف المقابل للكوبان و لابا ومقابل القرى القوزاقية : مدن تينغينسك و نوفولابينسك – تقابل قرية أولاب..أوست لابينسك –تقابل قرية حاتقواي -كورغانينسك – مقابل كوشحابله..نالتشيك –مقابل قرية فولني .و هكذا.

الاعتراف بأن هذه أماكن تسود فيها الملاريا وقد أرسل إليها الناس كي يموتوا بهذا المرض, ممكن أن نوافق عليه فقط عند الاعتراف بأن السلطة القيصرية قامت بإبادة القوزاق أيضا – فالمسافة بين

هذه المدن والقرى حوالي 300- 500 متر فقط ! كيف يمكن للعقل السليم أن يتصور بأن أصلان قد أُرسل إلى مركز وباء الملاريا وهو الآن من ضحايا الإبادة, أما إيفان الذي يعيش على بعد 300 متراً عنه يعتبر شوفينياً قيصرياً ولم يتأثر بالملاريا ؟

أريد أن أنوه بشكل خاص بأن هدف القضاء على كل الأديغة (والذي كان من الممكن تقييمه فعلياً كإبادة جماعية) لم يكن موجوداً في المبدأ.ولو كان هذا الهدف موجوداً فقد كان من السهولة القيام به في المراحل الأخيرة من الحرب عندما أوقف الأديغة المقاومة وأضاعوا قياداتهم وكانوا في فوضى عارمة باستثناء الوبيخ, وعدا عن ذلك تقوم السلطات بعرض أماكن يعيشون فيها.

نعم إن إعادة التوطين قد شوش وخلط الشعوب الأديغية مما أدى إلى هضم القبائل الصغيرة منهم, نعم إن إعادة التوطين في المرة الثاني ة لم تكن إلى أفضل الأماكن والتي اضطرت فيها قرى كاملة أن ترحل عنها. حصل هذا فعلاً, ولكنه لم يحصل مع الأديغة فقط بل مع القوزاق كذلك. حتى هنا وُضعوا تحت شروط متساوية.

وبالعكس, فان إعادة التوطين كان لها في كثير من الأحيان هدفاً يعاكس تماماً هدف قتل الأديغة- هدف إحيائهم ! مثلاً, ما حصل مع قرية تليوستين حابله التي أسسها الأمراء والنبلاء البجدوغ والتي قام الفلاحون ضدهم فيها, يطرد الشعب النبلاء ,ويقتلون من يُمسكون به والباقي يهربون إلى الروس ويطلبون الحماية. فيرسلونهم بغطاء حماية من الجيش الروسي إلى الضفة اليسرى للكوبان مقابل المركز الروسي القوي قرب يكاتيرينودار وقرب مدينة باشكوفسكايا. يحاول البجدوغ احتلال أماكن النبلاء عدة مرات والقضاء عليهم ولكن الروس لا يسمحون لهم بذلك, وفي نهاية المطاف يقدم البجدوغ عرضاً بمقايضتهم بالنبلاء مقابل انتقال الشعب بأكمله إلى الجانب الروسي, ويرفض الروس .وقرية تليوستين حابلة لا تزال قائمة حتى يومنا هذا, قرية نبلاء, فمن الذي أنقذ الآخر هنا ؟ ومن الذي أباد الآخر؟

الشق الثاني المتعلق بالأرض – هو منح الإدارة الروسية أراضي للأديغة المتبقين أقل بكثير مما منحته للمستعمرين الوافدين الروس. هذان السؤالان يتكرران كثيراً ويتم طرحهما بهذا الشكل تقريباً :" لقد طردت روسيا الأديغة من الأماكن التي كانوا يقيمون فيها لفترات طويلة (وهذه حقيقة لا غبار عليها في كثير من الحالات), من الأماكن التي كانت فيها الزراعة متطورة ومن البساتين الرائعة ...الخ (وهذا صحيح) وأعادت توطينهم في الأماكن التي تنتشر فيها الملاريا وأعطتهم أراض أصغر بمراحل من الأراضي التي أعطتها للقوزاق والروس المستوطنين" وقد جاء في كتاب "أرض الأديغة": "لذلك فان رأي أبراموف في محله تماماً والذي يتكلم عن أسباب الهجرة من وجهة نظر إمكانية عيش الأديغة على أرضهم التاريخية, حيث يقيَم ذهاب الأديغة إلى تركيا كاحتجاج فريد من نوعه للجبليين ضد التمييز والوضع المأساوي, وقد أورد المؤلف الأسباب التالية التي اضطرت الأديغة للهجرة : الظروف الاقتصادية التي تم توفيرها للأديغة والتي هي بدون شك أدنى من الظروف التي تم توفيرها للقوزاق ,مثلاً:" في منطقة الكوبان عندما كان القوزاق يحصلون على 30 دونماً من الأراضي كان الفرد الشركسي يحصل على 7 دونمات (وهنا يخطئ أبراموف, ليس 7 بل 3.5) بالإضافة إلى أن هذه الأراضي لم تكن صالحة وهذا ما أدى إلى أن يخضع السكان الأصليون إلى تبعية القوزاق اقتصادياً مما أدى إلى نتيجة يرثى لها"

...معالجة جميلة مختصرة ويأخذونها كشهادات ويقولون مثلاً:"كما جاء في كتاب أرض الأديغة للمؤلف أبراموف.."و لكن في الحقيقة توجد هنا مشكلة بسيطة: لأن "كما جاء في كتاب" تختلف عن " الأدلة" ! إن مؤلفي هذا الكتاب لا يتعبون أنفسهم بالأدلة. . دعونا نحاول كسر هذه الصورة النمطية للتأريخ الأديغي ولنحاول أن نثبت بالحقائق ما يكتبونه, هل سننجح؟...وكبداية لن نتوجه للصحفيين بل للمؤرخين. هل يستطيعون تأكيد المعلومات القائلة بأن القوزاق كانوا يحصلون على 30 دونماً من الأراضي للفرد؟ وهنا نواجه تزويراً صغيراً ولكنه تزوير مختص وغير مرئي للعامة, فلنقرأ بعناية :"عندما كان القوزاق يحصلون على 30 دونماً ,كان الفرد الشركسي يحصل على 7 دونمات" كم يلعبون بكفاءة في تحويل الجمل إلى حسابات؟ ولكنهم يقولون "أن الفرد الشركسي كان يحصل" مهارة فائقة !تعلموا منهم ! وكما يقول النقاد " الرسمة لم تنته بعد ولكن اليد الماهرة واضحة " حسناً دعونا نكتشف هذا السر – إن تخصيص الأراضي للقوزاق لم يكن على عدد الأفراد, بل على عدد الرجال ولم يدخل عدد النساء في الحسبان, ولذلك فانه لا يمكن مقارنة 30 دونماً للقوزاق مع 7 دونمات للفرد الشركسي- ف 7 دونمات قد تكون أكثر في هذه الحالة!

لنأخذ كتاب راتوشنياك – وهو مؤرخ كوباني معروف ومحترم – ورئيس قسم في جامعة كوبان ودكتور في العلوم بروفسور, إليكم ما يكتبه حول مسألة الأراضي في الكوبان:" كانت تخصص أراضي بمقدار 16 30 – دونماً لكل قوزاقي ذكر بلغ 17 عاماً. ولأجل الاستخدام العادل للأراضي كانت تخضع بشكل دوري لإعادة التقسيم, ومع النمو الطبيعي للسكان القوزاق فان حصص المخصصات كانت في تناقص مستمر, ففي عام 1860 كان 23 دونماً , وفي عام 1917 بلغ 7.6 دونماً "حسنا ياراتوشنياك انتظر قليلاً واشرح لنا, فالمؤرخين في "أرض الأديغة" قد كتبوا حول ذلك أيضاً ولكن البيانات تختلف كثيراً. لماذا علينا جميعاً تصديقهم؟ و علاوة على ذلك ومن اجل صدق التجربة علينا أن نقيس بالنسبة للمزارع والمنازل, وعندها فقط سنتوقف عن المقارنة التي لا يمكن المقارنة من خلالها, فهل توجد مثل هذه المصادر؟

نعم توجد, وهي كتاب مدير متحف ستارومينسك في منطقة الكوبان.شيروكوبورودوف "وطننا الصغير" وهو رجل يعيش على الأرض والحمد لله أنه بعيد عن السياسة, دعونا نرى إلى أي درجة كان "وطننا الصغير" صغيراً؟ في البداية يقدم ملاحظات مثيره للاهتمام حول ال 30 دونماً للقوزاقي ويقول:"إن 30 دونماً تعادل 3 هكتارات تقريباً , ولتخصيص مثل هذا العدد من الأراضي لكل فرد لابد من أن نملك 4001255 دونماً, بينما كان لدينا فعلياً 2842516 دونماً, ولهذا السبب تم تقليل النسب العليا بشكل كبير في القانون الصادر في 12 نيسان 1847" أي أن 30 دونماً كانت على الورق فقط.

لندع هذا جانباً ولنتابع:"في عام 1879 كانت تعداد سكان مدينة ستارومينسك هو الأكثر في منطقة ييسك (7082) نسمة وكانت أكبر الحصص هي للمساكن. وحسب البيانات ففي 1 كانون الثاني عام 1916 كان هناك 2981 مزرعة قوزاقية مع حصص عامة تقدر ب 56559 دونماً, وبهذا الشكل كانت مخصصات كل مزرعة تساوي 18.6 دونماً.

ما الذي كان يحدث على الأراضي الشركسية؟ أي حصص كانت لهم؟ هل هنالك بيانات بهذا الشأن ؟

نعم توجد مثل هذه البيانات وهي ليست بالقليلة, إليكم مثلاً معلومات من كتاب بيتوغانوف "تاريخ الأنساب الكاباردينية" الذي يقدم لنا أدلة حول التماس السلطات المحلية لدى سلطة منطقة تيرسك من أجل "تخصيص 30 دونماً لكل عائلة من العائلات الشركسية ال 49 الذين جاؤوا من كاباردا وذلك من ضمن مخصصات الدولة مع مراعاة تأمين حياة كريمة لهم لسلوكهم اللائق جداً."

وهناك بيانات مهمة جداً في كتاب "أراضي و إعادة توطين الكاباردينيين و البلقار في القرن 18- وبدايات القرن 20" يتكرر هناك الرقم من 30 إلى 40 دونماً للعائلة الأديغية من كاباردا الكبرى بعدة أشكال مختلفة .ولكننا نتخطى كل العبارات لأجل العبارة التالية :"تحدد القياسات السكنية لحصص كل قرية وهي مصممة وفقاً لقواعد معينة ولعدد الأسر في القرية وحدود بساتين القرية , فبالنسبة إلى تلك القرى التي حصلت على مخصصات مريحة وخصبة يكون معدل الحصة 36 دونماً للأسرة, أما الأسر التي حصلت على أراض غير صالحة فتزداد المخصصات وتعادل 41 دونماً "كان ذلك في أعوام 1860 في كاباردا الكبرى وهو يقابل 30 دونماً للأسرة القوزاقية, قارنوا هذا بما جاء في كتاب " أرض الأديغة"...ولكي نفهم حقيقة الحصة المتوسطة الحقيقية للأسرة الأديغية نفتح كتاب أفاشاغوف "تاريخ قرية فدز" وهو يطابق تماماً ما جاء في كتاب "وطننا الصغير" وفي كلا الكتابين يصف الناس تاريخ قراهم .ويقدم المؤرخ الأديغي بصفة خاصة البيانات الإحصائية للقرية, وانطلاقاً من هذه البيانات نجد أنه في عام 1880 كان هناك 384 أسرة في قرية فدز وكانوا يملكون 9962 دونماً من الأراضي, وبعد 18 سنة, في عام 1898, كان فيها 400 أسرة و 10620 دونماً ,وبعد 18 سنة أخرى في عام 1916 , كان فيها 392 أسرة مع نفس مساحة الأراضي تقريباً ,أي أنه كانت كل أسرة تملك 26, 27, 25 على التوالي.

حان الوقت لننتقل إلى القاسم المشترك. ففي أعوام 1860- 1880 نتكلم عن 23 دونماً لكل قوزاقي تجاوز ال 17 عاماً والتي تعادل من 26 إلى 36 دونماً للأسرة الشركسية , وفي عام 1916 تتغير هذه الأرقام كالتالي: 18.6 دونماً للأسرة القوزاقية مقابل 25 دونماً للأسرة الشركسية.

أين هو خطأ أبراموف – هو غير مخطأ, نعم عدة مرات أقل؟ ولكن لمصلحة من ؟ فعن أية إبادة جماعية نتحدث, من يمكنه أن يكتب هذا إن كان يملك الحد الأدنى من مستوى المعرفة التاريخية؟

دعونا ننظر إلى ذلك من جانب آخر- 30 دونماً للأسرة هل هذا قليل أم كثير؟ وهل كان كافياً للمستوى المعيشي العادي؟ لدينا هنا مقارنة كاملة أيضاً بهذا الخصوص, ففي بداية القرن يكتب لينين مقالة "إحصاءات تملك الأراضي في عام 1905" وهو يستخدم مساحة 30 دونماً بالضبط بوصفه مؤشرا على الرخاء والعيش الرغيد, أي يضع الأسر والنبلاء الذين يملكون أراضي من 30 دونماً فما فوق في خانة الأسر الغنية ,وكانت هذه الأسر وقتها في روسيا تعادل 5% فقط من السكان "فقط 0.6 مليون أسرة "وعندما كانت المساحة تتجاوز 30- 35 دونماً لم تكن الأسرة

بقادرة فيزيائياً على العمل بكل هذه المساحة وكانت تؤجرها. وبهذا الشكل وخلال هذه الفترة كلها سواء القوزاق أو الشركس كانوا يصنفون مع القسم الثري من الطبقة الفلاحية الروسية أو إلى الطبقة الفلاحية الأقرب إلى الثراء.

لم نستطع أن نفهم حتى النهاية علاقة كل هذا بالإبادة؟ تصوروا ..36 دونماً من الأراضي الكوبانية الرائعة الخصبة بتربتها السوداء الغنية ..لم يكن مئات الألوف من فلاحي المناطق الوسطى الروسية ليحلموا مجرد حلم بمثل هذه الإبادة الجماعية ! وكان هذا الوضع بعيد المنال عنهم من حيث المبدأ حتى في أحلامهم الجميلة ! ...ففي عام 1860 كانت الحصة المتوسطة للفرد في الجزء الأوروبي من روسيا 4.8 دونماً, وفي عام 1900 انخفضت إلى 2.6 دونماً, حتى أنه قد انخفض في بعض المقاطعات التي كانت فيها احتياطات الأراضي قليلة إلى معدلات خيالية, مثلاً في مقاطعة تولسك في عام 1900 كان المتوسط 1.6 دونماً , وفي كورسك 1.7 دونماً للذكر .و لاحظوا بأن هذه الأراضي ليست الأفضل في الكوبان وغالباً ما تكون تربتها فقيرة ورملية أو طينية ! ونعلم عن الفترة التي سمع فيها الناس بأنه و حسب إصلاح ستولبينسك كانوا يوزعون 15 دونماً للذكر في سيبيريا, وكان الناس يرمون بكل شيء خلفهم ويذهبون بالآلاف إلى المناطق المجهولة الباردة القاسية, وكان ذلك يعتبر مخرجاً جيداً للوقوف بمواجهة ظرف نقص الأراضي.

هذه هي الإبادة الجماعية, وهذا هو تسفيههم لشعبهم و لا أفهم كيف يحاول قادتهم الاجتماعيون إثبات ذلك في أوروبا؟ وعلى أي ساس؟ فكيف للمرء أن يفسر على سبيل المثال للانكليزي بأن تخصيص من 26 إلى 36 دونماً من الأراضي الخصبة الرائعة للأسرة الشركسية هو فعل غير مسبوق للإبادة عندما كانت مخصصات الفلاح الانكليزي في القرن 17 من الأراضي – صفراً؟ وكان النبلاء والملاكين يطردون الفلاحين من الأراضي فذهب قسم منهم لاحتلال أمريكا واستراليا, وقسم منهم ذهب للعمل في المصانع مما شجع وبقوه على تطوير التصنيع و الرأسمالية, وقسم كان يستأجر هذه الأرض ذاتها من الملاكين ويدفع لهم مقابلها مبالغ ليست بالقليلة, كيف سنشرح لهم ذلك؟ هذه هي البيانات.

لنترك الكاباردينيين ونعود إلى قرية فدز. أظن أن الكثيرين لا يفهمون ما الذي حصل هناك بالنسبة للأرض و الإبادة. ففي ذلك الوقت لم يكن سكان فدز مجرد " مرحباً ومع السلامة" بالنسبة للسلطات الروسية, بل كانوا أعداء لا يهادون ,أعداء أيديولوجيون – وهم سيسمون لاحقاً " أعداء السلطة السوفيتية" أؤلئك كانوا هم الكاباردينيين الذين انتقلوا إلى "الأراضي المستوية" بعد إخضاع الكاباردا من الجانب الروسي لكي يتابعوا القتال ضد القوات الروسية. و هكذا وبعد 25 عاماً تحتل روسيا هذه الأراضي أيضاً و..تترك للأعداء كمية أراض لم تُخصص مثلها للمنتصرين – القوزاق ! أود حقاً أن أرى الشخص الذي من شأنه أن يثبت وجود إبادة جماعية للشركس في البرلمان الأوروبي عندما يطرحون عليه مثل هذه الأسئلة!

في ختام الحديث عن موضوع الأرض سأقتبس من الضابط الروسي فينيوكوف الذي حارب في القفقاس في سنوات شبابه وأصبح فيما بعد إثنوغرافياً مشهوراً :"يقوم اليانكي في الولايات المتحدة الأمريكية بطرد الهنود الحمر من الجبال, والسبب فقط هو قتلهم وإبادتهم, يقوم الانكليز في

أستراليا ونيوزيلندا بإبادة السكان الأصليين في الجبال وفي السهول, ويقومون بذلك أحيانا باستخدام البندقية والكلاب كالحيوانات..نحن حاربنا الشراكسة لفترة طويلة, مع خصوم على قدم المساواة, وعندما انتصرنا عليهم قمنا بالتنازل لهم بشرف عن الأراضي, تلك الأراضي التي تحسدهم عليها أشد القبائل المتحضرة. و يمكن للمستعمرين الألمان الذين كانوا يقيمون في الأماكن المنخفضة من الكوبان أن يشهدوا على ذلك كطرف ثالث".

سوتشي- أرض الإبادة الجماعية

إحدى الأساطير المنتشرة والمستمرة هي مسألة كراسنويا بوليانا(المرج الأحمر) –كبادا.. والوضع هنا بالضبط تشويه أو "تلاعب" بالتاريخ , و لا أعرف بالضبط إن كان مقصوداً أو عرضياً محاولة بناء السياسة الحالية بتغيير وقائع الماضي, وتدخَل الأحداث التاريخية المزورة في حياتنا المعاصرة.

إن قسم محدد من الأديغة بما فيهم من أديغة الشتات يحتجون ضد إقامة الألعاب الأولمبية عام 2014 في سوتشي. والسبب هو مكان إقامة الأولمبياد –كراسنويا بوليانا أو كما تسمى خلال فترة الحرب القفقاسية -كبادا. ..إن موقف الأديغة هو التالي: كبادا- هي مكان الإبادة الجماعية حيث أباد فيها الروس الشعب الوبيخي وجرت فيها آخر المعارك الدامية, كانت تقوم هنا قرية شركسية إبادتها القوات الروسية ,وسالت دماء غزيرة لدرجة احمرَت الأرض فيها ويسمى هذا المكان حالياً "المرج الأحمر ."لا يمكن إقامة أولمبياد في المكان الذي يجب مقارنته مع داخاو و تريبلينكوي و اوسفيتسيم. لا نسمح بالمرح فوق العظام.

هذا بيان صريح وعاطفي, و شخصياً أستطيع أن أتفهم الناس الذين لا يريدون الرقص فوق عظام الأجداد – نحن لم نقترح إقامة الأولمبياد فوق هضبة ماميف أو في مكان خاتين؟ المسألة بشكل آخر – لم يحدث هنا شيء مما ذكر في الواقع. لا شيء.

دعونا ننظر كيف جرت الأمور. في عام 1864 و هو العام الأخير من الحرب تتدفق القوات الروسية إلى سواحل البحر الأسود, بعد عدة أشهر من وقف الأبازيخ للمقاومة, و من الشعوب الكبيرة يستمر الشابسوغ و الوبيخ في المقاومة فقط مع بعض القبائل الصغيرة التي لا يصل تعدادها إلى نحو 3 آلاف شخص, و تم زج أكثر من 200 ألف جندي روسي ضدهم, و هو الجيش السابع لجورجيا المعاصرة, كان العدد الظاهري للأديغة أكثر من ذلك – حوالي 300 ألف من الشابسوغ و 75 ألف من الوبيخ و لكنهم فقدوا قواهم على المقاومة – تم سحق الأديغة و فروا بأعداد كبيرة من الجبهة , و تقوم عملية إعادة التوطين, و يعانون من نقص في الإمدادات العسكرية , وتجوع أسرهم, كانت الحرب قد حُسمت.

في 21 شباط عام 1864 تتوجه فرقة الجنرال غيمان المؤلفة من 11 كتيبة نحو طوابسه, يخرج إليها شيوخ الشابسوغ و يعلنون خضوعهم و يطلبون السماح لهم بالمغادرة إلى تركيا. تستمر الفرقة في تحركها شرقاً نحو سوتشي الحالية .

في 4 آذار يرسل الجنرال غيمين رسالة إلى كبار الوبيخ ينذرهم فيها إما بالتوجه إلى تركيا أو إلى الكوبان. و في 9 أيار يأتي رد الوبيخ و مفاده بأنهم كالشابسوغ يعلنون خضوعهم و يطلبون مهلة 3 أشهر للهجرة إلى تركيا . و تتابع الفرقة مسيرها نحو الشرق. و في هذا المكان تحصل معركة مع القوى المتبقية للوبيخ و القبائل الصغيرة, تحصل المعركة عند مصب النهر الصغير غودليك بالبحر, و التي توجد فيها قرية فولكونكا السفلى حالياً. تكسر القوات الروسية الجبليين بسرعة, و تكون هذه آخر مشاركة للوبيخ في الأعمال الحربية. و كدليل على خضوعهم يُحضرون سيف المحارب الأسطوري دوغوموقوه بيرزيقوه الذي احتلوا تحت قيادته عام 1840 عدة قلاع و حصون روسية, و يجهزون أنفسهم للهجرة.

و مباشرة بعد انتهاء الحرب يشتري غيمان هذه الأراضي ويؤسس قرية غودليك و ينتقل للعيش فيها .انتبهوا- غودليك – إنها ليست كراسنويا بوليانا , بل هي تبعد 6 كم عن لازاريفسك, و هي تبعد أكثر من 40 كم عن كراسنويا بوليانا.

تواصل القوات تحركها من جميع الجوانب و تتدفق إلى كابادا, و على بعد 20 متراً منها تحصل المعركة الأخيرة الفعلية للحرب القفقاسية. غير بعيد عن كراسنويا بوليانا و يشارك فيها كتائب الجنرال شاتيلوف ,و الميليشيا الأبخازية و الايميريتينسكيه و بعض المئات من الميدوفيفيين و البسخوفسيين (و هم فروع مختلفة من السادزيين) و ربما لا يزيدون عن 200- 300 مقاتلاً, وحسب شهادات العيان فانه لم تحصل مثل هذه المعركة من قبل- حيث يحاول الجبليون مهاجمة المواقع الروسية من خلال سلاح الفرسان, تقوم المدفعية الروسية بإطلاق وابل من الطلقات فيعود الشراكسة من حيث أتوا, و في ذات الوقت تدخل الميليشيا الأبخازية في عمقهم , و بالمناسبة قسم كبير من هذه الميليشيا بما فيهم القائد هم من نفس السادزيين ,فيتبعثر البسخوفسي و الميدوفيتسي. هذه هي كل المعركة. وتنتهي الحرب القفقاسية.

تتجمع القوات في وادي كبادا, و في صباح 21 أيار يعلن الأمير ميخائيل نيكولايفيتش نهاية الحرب القفقاسية و يُقيم استعراضاً. و طوال الوقت الذي كانت القوات الروسية تتواجد فيها في المرج كانت القرية السادزية بسخوا لا تزال موجودة على أرض الواقع و لكن القوات كانت مشغولة بالاستعراض و لا تهتم لأمرها. ثم تحيط بقرية بسخوا بعد انتهاء العرض وتوجه لها إنذارا – إما أن يغادر أهلها إلى الكوبان أو إلى تركيا, ويرد الجبليون – تركيا , فتغادر القوات.

هذا هو كل شيء, لم تكن هناك معارك كبرى و لا قرى محروقة و لا بحار من الدماء و غيرها. و لم يُدعى المرج بالأحمر بسبب الدماء بل لان نوعاً خاصاً من السرخس البني ينمو هناك بكثرة و يبدو بلون أحمر عند الغسق.

لم يحالفهم الحظ مع الجغرافيا

وفقاً لأسطورة أخرى سائدة في المجتمع الأديغي فان الحظ لم يحالف الأديغة بالنسبة للجغرافيا. حيث أن الأديغة وقعوا جغرافياً تحت التأثير الروسي القاسي و المظلم و ليس تحت تأثير البلدان الديمقراطية المستنيرة كفرنسا أو انكلترا, و خاصة و أن انكلترا قد تعاطفت و ساعدت الشراكسة. تقول بعض الشخصيات الاجتماعية الشركسية ":ها نحن قد وقعنا تحت التأثير الروسي ولذلك حصل ما حصل, و لو وقع الشركس تحت نفوذ الانكليز لما حصلت أية إبادة جماعية و لشهدنا الرخاء و الازدهار الأبدي, لم يحالفنا الحظ".

إن المنطق الذي يتواجد فيه كلمة "لو" من الصعب دوماً أن تتقبله العلوم البحتة – إن التاريخ يعترف بما هو موجود و لا يبني مواقفه على الحقائق التي لم تحدث مطلقاً في الحياة- إن ذلك ليس بالأمر السهل , و لكن هذا النهج ليس جديداً بحد ذاته – و كما يقولون " في روسيا البربرية فقط يضطهد الإنسان أخيه, أما في البلدان المتحضرة فكل شيء على العكس تماماً".

دعونا نبتعد عن الصيغة الشرطية و لن نتحزر هنا, ما الذي كان ليكون لو لم تقم الدولة الهمجية الأولى روسيا ببناء قلعة مزدوك, بل قامت انكلترا ببنائها و لنقل في مكان ما في تسيميز (نوفوروسيسك الحالية) و بشكل ديمقراطي .دعونا و ببساطة ننظر إلى انكلترا و غيرها من البلدان "المتحضرة" و كيف تنفذ الفتوحات الاستعمارية.. القرن 19 –بالمناسبة إنها مكشوفة للغاية في هذا السياق- المهم في القرن 19 لم يتبق فعلياً مناطق لا تنتمي بشكل مباشر إلى مجموعة مؤلفة من عدة بلدان أوروبية...

لنبدأ من السيدة العجوز انكلترا التي قدمت للعالم شكسبير مع بطله هاملت الساعي للحقيقة, و توماس مور الذي طوَر فكرة الإنسانية العالمية , و اللورد بايرون مع سعيه الرومانسي إلى الشرق ..الخ... إليكم قائمة بالشعوب التي ذبحتها انكلترا حتى آخر قطرة منها في القرون 18 – 19 و هي قائمة من صفحتين ونصف ! من الشعوب ذات العرق الهندي فقط أبادت 55 شعباً منها. عدا عن الهندوس والأفارقة و الأستراليين, و لئن كان الأديغة حالياً يستندون على كلمة" المتبقي" – " بقي في القفقاس 5 % من السكان الأصليين" كما لو أنهم يشيرون إلى أن الجزء الأكبر لم يتم طرده بل قتله فانه على سبيل المثال لا يمكن للتاسمانيين أن يستندوا إلى هذه الكلمة لأنه بعد ظهور الانكليز لم" يتبقى" منهم شيء على الإطلاق- لم يتم ترحيلهم, لم يتركوا لهم خياراً, لم يدفعوا لقاء استئجار سفن لهم , لم يرسلوهم إلى أماكن انتشار الملاريا... ببساطة لم "يتبق" منهم أحد, وببساطة" انتهوا."

الهندوس و الذين خلافاً عن الأديغة "حالفهم الحظ" و وقعوا تحت تأثير انكلترا و الذين شيد الانكليز على أراضيهم حصونهم الديمقراطية و الإنسانية, يقولون بأن الانكليز قد قاموا هناك بإبادات جماعية لا يمكن تصور أبعادها- خلال عشرة أعوام فقط , دعونا نفكر قليلاً, خلال عشرة أعوام فقط.. منذ عام 1857 ولغاية 1867- تم قتل حوالي 10 ملايين شخص في الهند. و هذا أكثر من الأرمن و اليهود و الغجر و الكمبوتشيين مجتمعين في إباداتهم الجماعية التي تعرضوا

لها. مجتمعين ! وفي حال كان المبيدين الجماعيين الروس ينقذون الشراكسة الأرستقراطيين من شعبهم فان الانكليز المتحضرين يبيدون و بشكل كامل و مقصود كل أبناء السلالة المغولية التي حكمت الهند لمدة 300 عاماً و الذين كان من حقهم الادعاء على ضياع عرشهم.

و علاوة على ذلك فإن البصمات المتميزة للنسخة الاستعمارية الانكليزية كانت ضد ما يطالب به و يدعيه الأديغة –حيث لم تمارس روسيا في القفقاس الفصل العنصري و لم تحجر السكان في أماكن مخصصة متحفظة.

بقية الدول المتحضرة تتصرف بشكل مشابه تماماً, ففي عام 1903 تتمرد القبيلة الإفريقية هيريرو في المستعمرات الألمانية التي تعرف الآن بناميبيا وبوتسوانا, لم يفكر الألمان حينها كثيرا و لا يقترحون السلام و لا يسعون للتفاوض مع القبيلة و لا يخترعون لها الأبجدية , بل يرسلون الجنود ويقدمون إنذارا للأفارقة – بأن تترك قبيلة هيريرو هذه الأراضي كلياً- إما القتل أو الطرد .وبعد المعركة التي هُزم فيها الأفارقة, يرحلون إلى الأراضي البريطانية ويضعونهم في معسكرات اعتقال "ديمقراطية". و بعد خمسة أعوام في عام 1908 عندما يجرون إحصاءا للسكان يظهر بأنه في كل أفريقيا الجنوبية الغربية و ليس في الأراضي الألمانية فقط لم يتبق سوى 15 – 20 % من تعداد الهيريرو الذي كانوا عليه قبل الحرب.

في النصف الثاني من القرن 19 تصبح الكونغو مستعمرة لبلد متحضر آخر- و هو بلجيكا. تقوم الإدارة البلجيكية المستعمِرة بناءاً على أوامر مباشرة من الملك ليوبولد الثاني بتنظيم أقسى الأساليب الدامية. و لم يحصل مثل هذا النظام الدامي في أي مكان آخر من قبل – حيث اصطف الناس المحليين للعمل الشاق في تجميع المطاط, و عدم الامتثال أو تنفيذ المطلوب كان يعني حرق قرى و مناطق بأكملها, و كان الجنود و المشرفين البلجيك يأخذون الأطفال و النساء كرهائن طوال موسم جمع المطاط, و في حال عدم تنفيذ الخطة كانوا يقتلون البعض منهم. و كان الجنود و المشرفين يطالبون بالأيادي المقطوعة كدليل على الإنفاق " الهادف" للرصاص. وكان البلجيك أنفسهم هم من فقد صبره أولاً – فقد أدت القسوة الرهيبة على الأفارقة إلى استياء شعبي عارم وأجبرت الملك ليوبولد ببيع ملكيته للحكومة البلجيكية.
و خلال 200 سنة- منذ القرن 17 و لغاية منتصف القرن 19 كان إقليم غانا الحالي خاضعاً لهولندا. في عام 1838 أخطأ الملك المحلي بادو بونسو الثاني خطأ جسيماً, حيث اعتقد بأنه يمكنه التصرف مع الهولنديين كما يتصرف مع أبناء جلدته . يقتل بادو بونسو اثنان من الهولنديين المبشرين و يعلق رؤوسهم على عرشه كغنائم ..و للزينة. لم يمكثوا هناك لوقت طويل بينما وُجد رأس بادو بونسو الثاني صدفة في خزائن المركز الطبي لجامعة لايدن منذ وقت غير بعيد.

و بالنسبة للأديغة الذين يأسفون لعدم "محالفة الحظ لتشيركيسيا" و عدم وقوعها تحت النفوذ الانكليزي أو نفوذ دولة " متحضرة" أخرى فقد يكون من المفيد لهم قراءة تاريخ هذه البلدان وعندها سيحسدون جغرافيتهم بكل بساطة ! إن فكرة تعاطف انكلترا مع تشيركيسيا هي كحد أدنى فكرة صبيانية. إن انكلترا لا تتعاطف مع تشيركيسيا – بل كانت تقف ضد روسيا و من هذا المنطلق كان الصراع في القفقاس بالنسبة لها أكثر فائدة ,بإرسالها اللوازم الرخيصة الغير مجدية للشراكسة كانت تُطيل فترة الحرب القفقاسية و تخلق وضعاً يُجبر القوات الروسية على البقاء في

القفقاس مدة أطول و ليس في مكان ما من آسيا الوسطى أو في الشرق الأقصى حيث كانوا سيتواجهون حتماً مع القوات البريطانية.

و بهذا الصدد من المثير للاهتمام أن ننظر إلى كارل ماركس و الذي بوصفه من أصل يهودي ألماني قد قضى أكثر من نصف حياته في انكلترا حيث ألف فيها كتابه رأس المال, و دُفن فيها .
في عهد الاتحاد السوفيتي كان من المقبول أن نعتبر بأن ماركس يقف مواقف تقدمية – حيث رفض السياسة الاستعمارية لروسيا القيصرية و تعاطف مع الشراكسة و اعتبر بأن نضالهم هام جداً ووضعه كمثال يحتذى به للشعوب الأخرى. إن عبارات ماركس :" أيتها الشعوب الأوروبية, تعلموا النضال من أجل الحرية والاستقلال من الأمثلة البطولية لجبليي القفقاس" و " إن الشراكسة البواسل قد كبدوا الروس مجدداً سلسلة من الهزائم, أيها الشعوب تعلموا ما يمكن أن يفعله الناس الذين يريدون أن يظلوا أحراراً" ...و الآن يمكننا أن نجد في كثير من الأحيان ضمن مقالات الدعائيين الأديغة إشارات مثل " انظروا , لقد فهمنا الأوربيون الإنسانيون, بينما حاربنا الروس البرابرة ".

للوهلة الأولى فإن كل شيء هو هكذا تماماً, و لمن واقع الأمر أن مؤسس الشيوعية كان يقصد ليس الرأي العام الحالي حول الاستعمار, بل أنه يبرره ! فحسب رأي ماركس كان الاستعمار هادفاً , بل ضرورياً كوسيلة لتسريع تنمية الامبريالية, و التي ستساعد تطوره السريع و بالتالي إلى سرعة بداية نهايته. من هذه الاعتبارات كان ماركس يرحب بتقسيم العالم السياسي على القوى العظمى في العالم .

و فيما يخص المسألة الشركسية يظهر ماركس كانكليزي نموذجي- هو مسرور بأن الشراكسة يقاومون الروس و في الوقت ذاته يبرر بشكل كامل لا لبس فيه و يدعو للإسراع لإخضاع الهند من قبل انكلترا بشكل كامل.

و هنا بعض المقتطفات من مقالته " النتائج المقبلة للحكم البريطاني في الهند" :

"أمام انكلترا مهمة مزدوجة في الهند: هدَامة و بنَاءة – فمن جهة تهديم المجتمع الآسيوي القديم, و من جهة أخرى إرساء الأساس المادي للمجتمع الغربي في آسيا" و يتابع :" في البلد الذي تكون فيه خلافات ليس بين المسلمين و الهندوس فقط , بل بين القبائل و بين الطوائف في إطار المجتمع الذي يقوم على نوع من التوازن الناتج عن النفور العام و التفرد الدستوري لجميع أعضائه – أليس مثل هذا البلد هو بلد ومجتمع محكوم عليه أن يصبح فريسة للاحتلال؟".
قارنوا هذا مع الفرق بينه و بين الشراكسة , و إليكم مقطعاً جيداً و وقحاً :"لا يتلخص السؤال في : هل لانكلترا الحق باحتلال الهند , بل في : هل نفضل أن تقوم تركيا أو الفرس أو روسيا باحتلال الهند و ليس انكلترا؟".

بالمناسبة إن المثقفين الانكليز يؤيدون ماركس بشأن هذه المسألة, إليكم على سبيل المثال ما يكتبه الشخص الذي يسمونه إله الأدب الانكليزي, المغني المرح لانكلترا الطيبة , الكاتب الذي ترك لنا

تاريخاً ثاقباً لأوليفر تويست – الصبي اليتيم الذي وقع في أحياء لندن الفقيرة – تشارلز ديكنز, يقول:
" من المؤسف أنه لا يمكنني أن أكون القائد في الهند..لكنت أعلنت لهم و بلغتهم الخاصة بأنني أعتبر نفسي معيناً لهذا المنصب بموافقة إلهية و بالتالي فإنني لن أدخر جهداً لتدمير هذه الأمة ".

إنني على يقين بأن مجرد استبدال كلمة " الهند" في هذه العبارات بكلمة " تشيركيسيا" , و تغيير ديكنز و ماركس بالجنرال ايفانوف و الأتامان بيتروف , فان هذه العبارات نفسها ستصبح على الفور دليلاً آخر لا يمكن دحضه حول الإبادة الجماعية التي نظمتها روسيا اللاإنسانية في القفقاس الغربي, و سيتم عرضها على البرلمان الأوروبي على أؤلئك الانكليز المتحضرين الطيبين و الذين يمثلون عيَنة من الأخلاقية و المعاملة الإنسانية للشعب.

الخرافة حول الوبيخ

يعتبر المصير المأساوي الذي حل بالوبيخ من الأساطير الأخرى لدى الأديغة ،فلسبب ما دخلت حقيقة للوعي العام مفادها أن القوات الروسية قد أبادت كل الوبيخ, علاوة على ذلك حتى لو كان البعض يعلم بأنه لم يقم أحد بقتلهم بل تم طردهم رغم ذلك يعتبرون أن الإمبراطورية الروسية مذنبة في موتهم. و ببعض من سخرية القدر يصبح الاستشهاد بالوبيخ " موضة" عند الجورجيين المعاصرين. فعندما يتحدثون مع الأبخاز و الشراكسة يحبون أن يُقحموا شيئاً من قبيل " ها, إن انفصلتم عن جورجيا و ستعيشون مع الروس فإنهم سيفعلون بكم ما فعلوه بالوبيخ" و بالطبع فان الكتاب المثير للاهتمام و المحزن للكاتب الأبخازي السوفيتي باغرات شينكوبا "آخر الراحلين" يجذب الاهتمام إلى مسألة الوبيخ, حيث يصف لقاءه في نهايات 1960- وبدايات 1970 مع الشخص الأخير الذي يتقن اللغة الوبيخية.

أما بالنسبة للذين يجهلون القافلة التاريخية أقول بأن الوبيخ – هم شعب أديغي انتهى كلياً في وقتنا الحالي نتيجة الحرب القفقاسية و التهجير, أي من أصل أكثر من 80 ألفاً قبل الحرب تكلم شينكوبا في عام 1970 مع آخر شخص منهم. هذا أمر مأساوي و محزن للغاية وهو جدير بالذكرى ومؤسف للغاية.. لماذا حدث ذلك؟

إنه ليس بالحديث السهل و هو أعقد بكثير مما يتصوره البعض من الذين يلفظون هذا الاسم عبثاً دون أن تكون لهم رغبة الخوض في الحالة.

لنبدأ بالقول بأن الوبيخ لم يكونوا قبيلة أديغية بسيطة عادية – لم يكونوا مثل الشابسوغ و الماخوشيين و غيرهم, لقد كانوا يتميزون بشكل قوي و في كل شيء تقريباً عن باقي القبائل الشركسية, و هذه ثمة مفارقة تاريخية و التي لا يتحدث عنها أحد لسبب ما: الشعب الذي يحبون أن يصفوه كضحية مطلقة للحرب القفقاسية, و الشعب الذي اختفى تماماً نتيجة الحرب القفقاسية ...و لكن ..تابعوا بأنفسكم..إنه عانى أقل من غيره في هذه الحرب ! الوبيخ عانوا أقل من جميع الشعوب الشركسية الأخرى في الحرب القفقاسية ! و نتيجة الحرب وجدوا أنفسهم في وضع أفضل بشكل لا يُصدق من العرقيات الشركسية الأخرى!

كان هذا الشعب يعيش تقريباً في الأراضي الواقعة بين لازاروف الحالية و آدلر, على الحدود مع أبخازيا. عندما بدأ الروس بحرق القرى الكاباردينيه خلال عملياتهم العقابية, كان الوبيخ يعيشون حياة هادئة نسبياً منذ 100 عام تقريباً. و في حال أحرقت القرية البجدوغية ينم عدة مرات فإنه لم تكن هنالك مثل هذه القرى المحروقة عند الوبيخ. و باستثناء –- 3 عمليات صغيرة قام بها الروس على الأراضي الأبخازية و في العديد من الحصون الساحلية فان المشاة الروس لم يطؤوا أراضي الوبيخ سوى في عام 1864 – حيث جرت معركة ثانوية جداً وانتهت الحرب فوراً.

الوبيخ- انه الشعب الشركسي الوحيد الذي حافظ على تنظيمه و نظامه و إدارته حتى النهاية, و حتى بعد الهزيمة و إعلان الخضوع. في عام 1864 نجحت القيادات الشركسية بإقناع الشعب على الهجرة, و لكنها فقدت السيطرة على الناس إلى حد كبير مما أدى إلى فوضى عارمة غير منضبطة فوضويه بهروب الأديغة إلى موانئ البحر الأسود للرحيل إلى تركيا وهي كانت سبباً كبيراً في مأساة عام 1864 و فقدان الآلاف من الأديغة أثناء الهجرة. لم يعرف الوبيخ شيئاً من ذلك, كانوا الوحيدين الذين حافظوا على النظام واستطاعوا تنظيم استئجار السفن بأنفسهم , و امتثالاً لرغبة قادتهم الأسطوريين تمكنوا من الهجرة إلى تركيا في غضون أسبوعين بتنظيم دقيق و رائع. و خلال الهجرة لم يفقد الوبيخ شخصاً واحداً!

الوبيخ- انه عملياً الشعب الشركسي الوحيد الذي هاجر إلى تركيا بقوته و تعداده الكاملين, لقد رحل منهم 74.5 ألفاً, و نحن نعلم المناطق التي تم توطينهم فيها جميعاً, في أية قرى, و إلى جانب من, و تحت أمرة من . و لم يتبق منهم في الوطن سوى بضع عشرات .

و هنا السؤال التاريخي – كيف يمكن ضمن هذا الوضع, عندما يكون الشعب في وضع مريح و ملائم للغاية بعد الحرب القفقاسية بالمقارنة مع الآخرين ,و عندما لا يفقدون الآلاف من شعبهم نتيجة الجوع و المرض على شواطئ البحر في انتظار السفن, و عندما يهاجر الشعب بأكمله تقريباً .. كيف حصل ذلك؟ كيف حصل أن اختفوا جميعاً بينما بقيت شعوب شركسية أخرى؟

لقد كان محكوماً على الوبيخ بالتجنيس والهضم ! لم يكن بإمكانهم عدم المغادرة كما لم يكن بإمكانهم منع الزوال أو الانقراض .لقد عانى الوبيخ من قضاء محتوم, و إنني مندهش من عدم رؤية الناس لهذا الأمر. لم يكن أمامهم خيار آخر للهجرة إلى تركيا سوى الخيار الذي قُدم لهم.

أولاً : إن الوبيخ لم يتمكنوا من عدم الهجرة, لقد واجهت و لمرات عديدة تصريحات من قبيل "لو لم تطرد روسيا الوبيخ, لو لم يذهبوا إلى ما وراء البحار, لو لم يهاجروا- لكان هناك حالياً ما يقارب من 10- 15 قرية وبيخية في منطقة كراسنودار أو أوست لابينسك, و لظلت اللغة الوبيخية و لما اندثر أحد منهم"... كلام فارغ و لا شيء غير ذلك ! لقد كان الوبيخ أكثر من غيرهم مضطرين للمغادرة , ففي ظل الأوضاع في القفقاس و كما نعلم فان أحدى الأسباب الرئيسية الثلاثة لإعادة التوطين الطوعي- القسري كانت الدعاية و الأوامر المباشرة للقادة و الأرستقراطية الشركسية و التي كان في حسبانها الحفاظ على العبيد من خلال ذهابهم إلى تركيا – لقد وعد الأتراك الشراكسة بذلك بينما لم يعدهم الروس به. انه السؤال نفسه حول العبودية و الذي تُعرض

عنه جميع القوى الوطنية الشركسية و بكل قواها, و الذي و بدون شك لعب دوراً هائلاً في مصائب الأديغة في الحرب القفقاسية.

لقد كان عدد العبيد لحساب الفرد الوبيخي الواحد أكثر بعدة مرات مما كان عليه في أية قبيلة شركسية أخرى. و في كتاب "مقالات حول تاريخ أديغيا" يُذكر على وجه الخصوص أن " في المتوسط كان يقابل كل 10 أشخاص أحرار عند الشابسوغ – عبد واحد, وعند الأبازيخ – عبدان, وعند الوبيخ – 3 " و هناك يعود إلى بيليا الذي يؤكد بأن نسب بيرزوقه – وهو من الأسر العريقة و النبيلة عند الوبيخ و قد كان جميع القادة الأخيرين للوبيخ من هذا النسب – "بأن هذا النسب كان مؤلفاً من حوالي 400 عائلة نبيلة , و كانت كل عائلة تملك ما بين 5 – 20 عبداً".

أي أن دوافع الهجرة لدى الوبيخ كانت أقوى من غيرهم. و لكن هل تذكرون فيلم "الأسيرة القفقاسية" ؟ "كما يقول جدي, بأنه لدي الرغبة في الزواج و لكنني لا أملك الإمكانية .أملك إمكانية شراء معزة و لكني ليس لدي الرغبة بذلك"..في حال كان لدى البجدوغ في عام 1873 الرغبة بالهجرة و لكن لم يكن لديهم الإمكانية و لذلك بقوا و لم يهاجروا, فإن الوبيخ قد توفرت لهم الرغبة و الإمكانية, وعلاوة على ذلك فإن الإمكانية عندهم في ذلك الوقت كانت أكبر مما كانت لدى القبائل الأخرى و السبب تحديداً هو أنها حافظت على التنظيم و الطاعة للقادة.

لننظر معاً إلى كل ذلك : إن الشعب الذي قاوم الروس لوقت أطول , و الشعب الذي حافظ على تنظيمه و نظامه و طاعته لقادته و نبلائه , الشعب الذي كان لقادته من العبيد 2-3 مرات أكثر من غيره من شعوب أخرى, و بالنتيجة كانت لديه الرغبة بمرتين – ثلاثة بالمحافظة عليهم , الشعب الذي استطاع بنفسه أن يجد الطريق و يتمكن من دفع تكاليف سفره إلى تركيا بكامل تعداده...ماذا يعني لنا كل ذلك؟ ماذا يعني ألا يتمكنوا من البقاء؟

لقد كان الوضع على الشكل التالي: لقد وجد الوبيخ أنفسهم خلال فترة قصيرة بوضع أفضل و أكثر فائدة بكثير من وضع بقية الأديغة. و لكن مكاسب الفترة القصيرة أدت إلى هزيمتهم الحتمية المدوية على المدى الطويل ! باتخاذهم قرار الرحيل وقع الوبيخ على قرار قتل أنفسهم (إعدامهم)كمجموعة عرقية منفصلة!

السبب في هذا يكمن بأن الفرق الرئيسي عن القبائل الأديغية الأخرى لم يكن في التنظيم, و لا في مستوى الخسائر العسكرية بل في عدد العبيد. لقد كان الوبيخ مختلفون بشكل عام, كانوا شيئاً آخر ! كانت لهم حدود لهويتهم القومية ما بين الأديغة و الأبخاز و كانوا صلة وصل بين فرعين من الفروع, الأديغة – أبخاز... كانت منطقة سكن الوبيخ- على الحدود بين الشعوب الأديغية و أقربائهم الأبخاز- و هذا ما حدد الميزات الاجتماعية و الاثنوغرافية التي استخدموها من المجتمع الأديغي الأبخازي. إنهم لا يشبهون الأديغة بشكل كامل و لكنهم ليسوا أبخازاً أيضاً, بل كانوا صلة وصل بين الشعوب الأديغية و الأبخاز, كانوا السلسلة التي تربط بين فرعين من مجموعة إثنية واحدة" , وبالمناسبة إن ما يؤكد ذلك هو انقراض اللغة الوبيخية الذي لم يكن يشبه اللغة الأديغية كثيراً و لا الأبخازية ,و يعتبرها بعض اللغويين حلقة انتقالية بين اللغتين. و من بين اللهجات الشركسية العشرة كانت اللغة الوبيخية هي الوحيدة التي لم يكن يفهمها بقية الأديغة .

إن الوظيفة التوحيدية و المُلزمة – عنصر هام و ضروري للوحدة الوطنية. و لكن المشكلة تكمن في شيء آخر- فإنها قد تستمر هكذا في ظروف المجتمع التقليدي فقط, و القيم التقليدية و إعادة التوطين التقليدي لشعوب المجموعات الأديغة أبخازية في القفقاس, فبرحيل الوبيخ إلى تركيا يختفون و يندثرون كلياً ! في الواقع و كما تمكن الوبيخ من توحيد الأديغة و الأبخاز الذين لا يعيشون بشكل متراص جنباً إلى جنب, فقد هجَرهم الأتراك وأعادوا توطينهم في مساحات واسعة و في مئات القرى في اليونان و صربيا و لغاية الحدود الفارسية.

دعونا و للتوضيح نعطي المثل التالي : لدينا برغي و صمولة و رنديلة(حلقة) إن المجتمع الأديغة - أبخازي يشكل مع بعضه البعض عنصراً متماسكاً واحداً و يشكل الوبيخ فيه – الرنديلة و التي توجد بين البرغي – الأبخاز و بين الصمولة- الأديغة. إن للرنديلة وظيفة هامة جداً – إنها توسع مساحة الضغط على السطح الموثق , "كالنابض "و لا تسمح للصمولة أن تفلت من شرار البرغي و بذلك فإنها تمنح القوة للعنصر المتكامل .دعونا نقسمها إلى قسمين: نزيل الصمولة و نضعها جانباً على الأريكة, نرفع البرغي و نضعه في الخزانة – عندها تصبح الرنديلة لا لزوم لها. ستصبح لا قيمة لها خارج النظام الموحد!

في الواقع, إن أردنا أن نكون دقيقين حتى النهاية فإن التخصص الضيق قد بدأ بالانقراض حتى قبل ذلك – مع انهيار العالم المنعزل التركي- المغولي و مع انفتاح القفقاس الغربي للعالم. إن الوضع قد بدأ يتشكل بالتدريج, حيث كان على الشعب الوبيخي أن يتخذ قراره بين انتماءه الشخصي إما للشراكسة أو للأبخاز. حول المعاناة من هذه الحالة الحدودية بالنسبة للوبيخ يقول" لولي "المؤرخ المعروف و العالم اللغوي و الذي كان يتقن اللغة الشركسية تماماً و الذي وضع في عام 1820 أول أبجدية أديغية :" إن الوبيخ يتحدثون بلغة خاصة لا تشبه اللغة الشركسية و لا الأبخازية, و قد تندثر هذه اللغة مع الزمن و ذلك بسبب استخدام الجميع للغة الشركسية " و في حال كانت مثل هذه التفاعلات و العمليات موجودة بالفعل في منطقة القفقاس فإنها تتسارع باضطراد ضمن ظروف الانتقال إلى تركيا. كانت المعرفة و الوعي ضروريتان قبل اتخاذ قرار المغادرة إلى تركيا, و لكن مأساة الوبيخ كانت في أن فهم هذا الأمر كان يتطلب وجود مثقفين, و لكن الوبيخ لم يكن يملكوا سوى العبيد!

حسناً, ماذا لو لم تحدث الحرب القفقاسية, على الأغلب أنه و مع مرور الزمن و مع الانفتاح المتزايد على منطقة البحر الأسود لاندثر الوبيخ و تم هضمهم بكل الأحوال, و كانوا لينصهرون ضمن أحد شعوبهم الأقرب لهم. و لكن التاريخ لا يعترف سوى بما هو موجود و حاصل و لذلك علينا أن نتحدث عن الوقائع فقط بدلاً من الاختراعات.

و لاحقاً انقلب التفرد الذي كان عليه الشعب الوبيخي في منطقة القفقاس عليهم كنكتة قاسية في تركيا – ولم يتمكن الوبيخ من الاعتماد على هذا التفرد الذي كانوا عليه في وطنهم, اختفى عنصر هام من هوية الشعب و الذي لم يتمكن الوبيخ من ملأه في العرق الشركسي...لقد كان الأديغة –و ليس الوبيخ- أكثر بكثير , حيث رحل منهم إلى تركيا مئات الألوف (في هضبة الجولان لوحدها كان هناك عشرين قرية أديغية), و بسبب لغتهم المشتركة في الغربة استطاعوا أن يشعروا

بوحدتهم و يدعموا "شركسيتهم"...بينما لم يكن تعداد الوبيخ سوى 73 ألفاً و قد تم توطينهم في قرى متباعدة عن بعضها البعض ,و كان تواصلهم مع باقي الشراكسة صعباً بسبب الاختلاف في اللغات. و في ظل هذه الظروف الجديدة كان لا بد من وجود هوية وطنية جديدة – كان على الوبيخ أن يقرروا ما كانوا يريدون أن يكونوا عليه في ظل الظروف الجديدة – أديغة أم أتراك؟

هذه عملية طبيعية جداً تحصل في ظروف مماثلة في جميع الدول و لجميع الشعوب دون استثناء, لنتذكر كيف تحدث المؤرخ الفرنسي المعروف و الكاتب والباحث أرنست رينان حول العملية المتواصلة لتحديد الهوية الذاتية لأية أمة :" الأمة هي استفتاء يومي".. و من المرجح أن بعضهم قد اختار أن يكون تركياً, و البعض اختار أن يكون أديغياً, لم يقتلهم أحد كما يصورون ذلك غالباً – ببساطة فإن دمائهم حالياً ما بين الشراكسة والأتراك.

نصل إلى موضوع تهجير الأديغة . إنه موضوع صعب و شائك للغاية و لذلك قمت بتأجيله إلى نهاية المقالات.

لقد كان التهجير دون شك أكبر كارثة رهيبة حلت بالشراكسة على مدى وجود العرق الأديغي. و قد لحقت أكبر الخسائر بالشعب الأديغي تحديداً خلال التهجير و كانت الخسائر أكبر بكثير من خسائر الحرب التي امتدت لقرن من الزمان, و لا يمكن للفظائع و المعاناة التي تعرضوا لها أن تدع أحداً في حالة اللامبالاة.

إن تصوير المؤرخين القفقاسين لموضوع الهجرة –تحديداً كأنه إبعاد و طرد هو بوجهة نظري ما يعتبر الحجة الرئيسية لأنصار نظرية الإبادة الجماعية, و كقاعدة عامة فإنهم و بالتحديد يتكلمون عنها في المقام الأول عندما يتعلق الحديث بالحرب القفقاسية. و عادة ما يستخدم أنصار هذه النظرية نوعان من الحجج كأدلة رئيسية على أن الإبعاد يعتبر إبادة جماعية : و هي البيانات التي أدلى بها جنرالات القيصر التي تتكلم عن ضرورة طرد الشراكسة , و وصف المعاناة التي لا يمكن تصورها التي حلت
بالأديغة- المهاجرين على شواطىء البحر الأسود بانتظار السفن.

إليكم أمثلة عن هذه الأقوال:

"لقد عانى الجبليون من الكارثة الرهيبة لأنه لم يكن هنالك طريق آخر, لقد رفضوا العروض الكريمة التي قُدمت لهم من القيصر شخصياً, و تبنوا نداء الحرب بفخر و كبرياء, و منذ ذلك الحين لم يعد هنالك إمكانية للمعاهدات , و لم يكن هنالك من تعقد معه مثل هذه الإتفاقيات في ظل سيادة عدم الوفاق. لقد قاوم الجبليون مقاومة عنيفة ليس في المجابهات المفتوحة فقط بل بجماعات كبيرة مستمرة, كانوا يتلقون ضرباتنا بشكل من عدم اللامبالاة: كشخص منفرد في ساحة المعركة لا يستسلم أمام جيش كامل و لكنه يموت و هو يقاتل, و كشعب أحرقت قراه و أصبحت رماداً عشرات المرات و لكنه يتشبث بأماكنه السابقة بكل قواه...لم نتمكن من الانسحاب عن الأمر الذي بدأناه وأن نتخلى عن إخضاع القفقاس لمجرد أن الجبليين يرفضون الخضوع. كان من الضروري أن نبيد نصف الجبليين كي نُجبر النصف الآخر على رمي السلاح, و لكن لم يتجاوز عدد الذين

قُتلوا نتيجة السلاح عُشر عدد المتوفين, بينما توفي الآخرون نتيجة الحرمان و الشتاءات القاسية و التي أمضوها تحت العواصف الثلجية في الغابات و على الصخور العارية, و قد كان القسم الأضعف من السكان هو المتضرر الأكبر من المعاناة- النساء و الأطفال....عندما تجمَع الجبليون على الشاطىء للتوجه إلى تركيا كان ملاحظاً من النظرة الأولى الانخفاض الغير طبيعي لنسبة النساء و الأطفال مقارنة مع نسبة الرجال. و نتيجة مذابحنا فر الكثيرون من الناس إلى الغابات, و مات آخرون في هذه الأماكن التي لم تطأها قدم إنسان من قبل. عثرت الفرق المتجولة في هذه المناطق على أُناس متوحشين تماماً نتيجة العزلة الطويلة التي أمضوها, و من الطبيعي أن يكون معظمهم قد لاقى حتفه, و لكن ما الذي كنا نستطيع فعله؟ أسمح لنفسي هنا أن أكرر بضع كلمات للجنرال يفدوكيموف حول هذا الموضوع, لقد قال لي ذات مرة:"لقد كتبت إلى الكونت سوماروكوف, أسأله لماذا يذكر في إفاداته كلها الجثث المتجمدة التي تغطي الطرقات؟ هل نجهل أنا و الدوق الأكبر هذا الأمر؟ هل يستطيع أحد تفادي هذه الكارثة؟"

" لن أنسى ما حييت ذلك الانطباع الساحق الذي أحدثه الجبليون في نفسي في ميناء نوفوروسيسك, حيث تجمع حوالي 17000 منهم على الشاطىء..الطقس السيء و البرد و الأمطار و الغياب الشبه كامل لموارد العيش, و تفشي وباء الجدري و التيفوئيد جعل وضعهم ميؤوساً منه.. في الواقع من الذي لا يهتز قلبه مثلاً عند رؤية امرأة شركسية شابة تنام على الأرض الرطبة و هي ترتدي الخيش مع صغيرين يكافح أحدهما من أجل الحياة و هو في سكرات موته, بينما يجاهد الصغير الآخر لدرء جوعه عند ثدي أمه المتوفاة".

إنها شهادات قاسية و صحيحة و لا يجوز إخفاؤها و التمويه عليها أو السكوت عنها بحال من الأحوال- فقبل أي شيء يجب على التاريخ أن يكون صادقاً و موضوعياً.

و لكن السؤال يكمن في أن ذلك هو نصف الحقيقة فقط, و هذا مجرد جزء من الصورة الكبيرة للماضي الذي يتألف من حقائق و وقائع كثيرة أدت بالشركس في النهاية إلى مثل هذه الهزيمة المروعة و المعاناة الهائلة. إنها مجرد أقسام منفصلة من الحقيقة الكبرى و التي ينبغي على العلوم التاريخية الغرب قفقاسية أن تُخبر شعبها عنها. عليها فعل ذلك, و لكنها لا تفعل. دعونا نملأ اللوحة و لنتحدث عما جرى في الواقع.

إن السؤال حول ما الذي سنفعله مع الأديغة المهزومين ؟ كانت القيادة الروسية تناقشه منذ عام 1857 عندما انتهت حرب القرم, و لم يكن شامل حينها قد استسلم أو هُزم, و لم يكن الشراكسة بعد قد أقسموا اليمين الدستورية, لا شراكسة الجبال و لا شراكسة السهول, و لم يكن الجيش الضخم قد تجمع بعد في القفقاس الغربي, بينما يناقش الجنرالات الروس ما الذي سيفعلونه مع الشراكسة المهزومين..و تقوم مراسلات نشطة ما بين بيتربورغ و تبليسي و يكاترينودار و غيرها من المدن, و يشارك بها ممثل القيصر في القفقاس الأمير بارياتينسكي , و الجنرالات فيليبسون و ميليوتين و الأمير أوربيلياني و كوتسيب و غيرهم. و تُشكل لجنة خاصة لمعالجة هذه المسألة, و تُناقش مختلف الحلول و المشاريع, و سرعان ما تصل الأطراف الى اتفاق يقول بأن مستقبل شعوب القفقاس الغربي يجب أن يكون مختلفاً عن المستقبل الذي سيأتي قريباً لشعوب القفقاس الشرقي. كان الاقتراح هو الإبقاء على الشيشان و الداغستان في أماكن إقامتهم الاعتيادية, و لكن

يجب طرد جزء من الأديغة و الإبقاء على الجزء الآخر. و كتب ميليوتين في "تقريره لإخضاع شمالي غرب القفقاس" و الذي تم تقديمه إلى الكسندر الثاني :"إن احتلال المنطقة- أي القفقاس- تتم بإحدى الطريقتين – إما بإخضاع السكان المحليين و إبقائهم في أماكنهم , و إما باستخلاص الأراضي من المحليين وتوطين المنتصرين عليها" و كانت أسباب الاختلاف في هذا النهج عديدة من الممكن أن نذكر ما لا يقل عن أربعة منها:

1- أشار ميلوتين إلى الانقسام و التشرذم المدقع للقبائل الشركسية و إلى " ألف سنة من الفوضى و الاستقلالية و الرعونة " و وفقاً لتحليلاته فإن هذه "الصفات و الميزات" للشركس لم تسمح لهم حتى بالأمل في إمكانية أن يكونوا في يوم من الأيام تابعين " لجهاز صحيح و لسلطة شرعية". .. و يكتب بارياتينسكي "هنالك فرق هائل بين شعوب شرق القفقاس وغربها.. ففي داغستان نجد جذوراً متأصلة لبدايات المواطنة و عادة إطاعة السلطات, و حتى على الظلم الغير مباح " و أغلب الظن أن بارياتينسكي يقصد هنا أُسس كيان الدولة التي نص عليها شامل, حتى أنه يكتب :"في غرب القفقاس – على العكس من شرقها , فإن الشعوب مُجزأة إلى مجتمعات صغيرة أو إلى وحدات أُسرية لا تُدار من جانب أي سلطة, و ليس هنالك أي اتصال مدني فيما بينها. لقد تعودت هذه الشعوب منذ القدم على الحرية الجامحة" "مواقع و مناطق لا تُحصى لا تعترف بأية سلطة عليها " ... يكتب أحد الأشخاص الذي عاش لفترة طويلة نسبياً في تشيركيسيا و الذي سنُعلن عن شخصيته لاحقاً بأن هذا يعتبر"السبب في عدم إمكانية تحسن و تطور البلد وعدم إمكانية السلطة الروسية الاعتماد على تحالفات كبار الشراكسة".
2- كان هناك سبب آخر مرتبط بالتجزئة – لقد كان الشراكسة في وضع يُطلق عليه الدبيلوماسيون اسم " عدم القدرة على التفاوض"- لقد كان من المستحيل التفاوض معهم و التوصل معهم إلى اتفاق في ظل ظروف غياب السلطة الواحدة ,لقد كان الشراكسة مجزؤون إلى عدة شعوب, و في داخل كل شعب منها هناك مجموعات كثيرة مؤثرة متمركزة حول مجموعات قوى صغيرة. لم يكن هناك تبعية واحدة, و لم تتوافق اهتمامات مراكز القوى هذه و كانت تتنازع فيما بينها.. كان يمكن للسلطة الروسية أن تتفق حول السلام مع مجموعة أبازيخية تقدم نفسها على أنها الممثلة للشعب, و في ذات الوقت تقوم مجموعة أبازيخية أخرى لا تتفق مع الأولى بتوجيه ضربة للروس. و عملياً كانت كل الاتفاقيات السابقة بين القيادة الروسية و الأديغة "الجبليين" –الأبازيخ و البجدوغ و الناتوخاي و غيرها من القبائل الصغيرة سلبية – عندما كان الشراكسة يجدون أنفسهم في وضع حربي ميؤوس منه كانوا يسارعون بسهولة لعقد معاهدات السلام و يقسمون على الولاء, ثم ينسون ذلك حالما تغادر القوات.

إليكم تعليق الجنرال كاتسوف على هذه الحالة : " لقد كان هدف أعمالنا في القفقاس حتى عام 1860 هو أن تقوم الحملات على المناطق التي يشغلها الجبليون بإلحاق الهزائم المتكررة لهم و إقناعهم بتفوق قواتنا و إجبارهم على أن يعلنوا خضوعهم. وكانت نتائج هذه الحملات بأن المجتمعات الأقرب إلينا و التي تعيش على السهول تخضع لنا أحياناً ثم تعاود تمردها و تقوم بنهبنا و سرقتنا و تُلقي اللوم على الجيران الذين يعيشون أعلى منهم

في الجبال, في حرب القرم ثار المجتمع الذي كان خاضعاً لنا دفعة واحدة و كان علينا أن نُعيد إخضاعهم من جديد".

لم يكن ممكناً الاتفاق مع الجبليين ! و هناك دليل بهذا الصدد و هو زواج ايفان الرهيب من الأميرة الكاباردينيه غواشانيه ابنة الأمير تيمروك مع إبرام تحالف عسكري بين الروس و كباردا (و التي تسمى الآن رسمياً بالانضمام الطوعي), إنه دليل " لعدم إمكانية الاتفاق معهم " – فبعد وفاة تيمروك انتقلت السلطة في كباردا إلى أمراء آخرين كانت لهم مصالح مختلفة تماماً و حتى أنهم لم يعترفوا و لم يأتوا على ذكر أي تحالف مع موسكو.

3- بعض القبائل الأديغية الأساسية التي لم تكن خاضعة بعد كانت مستقرة في الأقاليم المثالية لخوض حرب العصابات و التي تفوق فيها الشراكسة – الجبال و الغابات الكثيفة كان يمكنها دوماً من إخفاء فرق صغيرة للشراكسة, و في حال كان من الممكن السيطرة على الوضع في المناطق التي كان يتواجد فيها عدد كبير من القوات فإنه و بعد الانتصار الوشيك و سحب القوات كانوا على يقين بأن غارات الشراكسه ستستمر.
4- خلافاً للشيشان, كان قسم كبير من الشراكسة الذين يتعين طردهم يعيشون مباشرة على شواطىء البحر, و هذا الواقع يحدد بسهولة دعمهم من قبل الدول المعادية لروسيا ,و بالمناسبة كان هذا سبباً من أسباب تأخير الحرب القفقاسية و وجود الشراكسة في عالم مغاير تماماً عن الشيشان و الداغستانيين . في ذلك الوقت كانوا يعتبرون في روسيا بأن حرب القرم لم تقم بإزالة كافة التناقضات بين القوى العظمى , مما يعني بأن حرباً جديدة لا بد و أن تبدأ مجدداً و سيصبح أديغة البحر الأسود حتماً و مجدداً أداة تأثير في هذه الحرب, و هذا يعني بضرورة تأمين الحدود الجنوبية الساحلية, و كما كتب ميلوتين : " إن هذا الجزء من القفقاس يشكل مجالاً واسعاً للمكائد السياسية السرية لأعدائنا الأوروبيين الذين سيقومون على الدوام بتحريض الشراكسة الطائشين على قتالنا بشكل دائم , و في حالة الحرب المفتوحة سيجد كل أعداءنا حلفاء متحمسين له على الشواطىء الشرقية للبحر الأسود " أكد كارتسوف هذا الكلام أيضاً قائلاً :" إن الطلقة الأولى في البحر الأسود أو حتى أية رسالة مُلفقة من السلطان أو حضور أول باشا دجال قد تقود إلى حرب جديدة " .

بالمناسبة, يكتب تيوفيل لابينسكي عن ضرورة ترحيل الأديغة – وهو مغامر بولوني " و جندي دون معتقدات سياسية ثابتة " كما سماه غيرتسين الذي شكّل فرقة من الأوروبيين في النصف الثاني من العام 1850 و وصل إلى تشيركيسيا لقتال الجيش الروسي .و هو يعتبر الآن بالنسبة الى الأديغة المتطرفين رمزاً للدعم الأوروبي للشراكسة .حارب عامين مع الأديغة ضد الروس ثم عاد هذا المغامر الدولي الى أوروبا وعرض خدماته على القيادة الروسية, و لكن الآن ضد الشراكسة. يصرح لابينسكي بأن على الحكومة الروسية أن تعتبر نفسها "محظوظة" لأن انكلترا و فرنسا و تركيا لم يقدروا و قللوا من أهمية الشراكسة في حرب القرم. و لكن "من الذي يضمن بألا يتكرر هذا الخطأ في حال حدوث حرب جديدة ؟ " " و لذلك يتعين على روسيا أن تستولي على أراضي الشابسوغ و الوبيخ بأي ثمن كان إن أرادت السيطرة بشكل هادىء على المقاطعات القفقاسية".

يقترح لابينسكي أن يتركوا الأبازيخ حالياً و يسيطروا بأشد الطرق الممكنة على الشابسوغ و

الوبيخ و" يطردوهم " من تشيركيسيا, و حسب رأيه " أن السلام مع الشابسوغ و الوبيخ لن يؤدي إلى نتيجة " و يجب بكل الوسائل "طردهم من الشريط الساحلي للبحر الأسود". و بناءاً على معرفته لتشيركيسيا من الداخل ينصح لابينسكي بحرق القرى, وتعزيز الحصار البحري و اتباع سياسة أكثر تشدداً- "إن القوة مع هذا الشعب هي كل شيء و تؤدي إلى كل شيء ,يدعو إلى القسوة في الكثير من الأمور و التساهل بالنتائج السلبية".

بالمناسبة إنها كلماته و قد اقتبست بضع كلمات منها تعبر عن "عدم إمكانية الاتفاق " مع الأديغة. إنه لأمر مضحك و لكن "الوطنيين" هناك يقيمون تيوفيل لابينسكي بشكل كبير و يعتبرونه وطنياً و مناضلاً من أجل حرية تشيركيسيا, الشخص الذي رأى الظلم فرمى بكل شيء خلفه و اتجه إلى القفقاس البعيدة ليحارب و كما يقولون " من أجل حريتنا و حريتكم . " نُسجت الكثير من الأساطير حول اسمه و بعضها كما يعتبر المثقفون الأديغة يقول بأن لابينسكي لم يكن يملك فرقة تضم 200 شخصاً كما كان الحال في واقع الأمر, و لا 4000 شخصاً كما كان يخطط هو و لكنه لم يتمكن من جمع هذا العدد, و لكن يقولون أن فرقته كانت مؤلفة من 20 ألف شخص من الأوربيين الذين جاؤوا إلى تشيركيسيا تضامناً و مساعدة للأديغة, و حدث أن التقيت عدة مرات بأناس يرغبون و يحاولون إقامة نصب تذكاري للابينسكي.

و أتساءل ما الذي كان ليحدث لو تمت إقامة النصب و من ثم اكتُشف أمر رسالته هذه؟ إنه مثال واضح واحد فقط عن كيفية إرباك و خداع شعبك عندما تطرح التاريخ حسب نموذج أهدافك السياسية وعندما تستغني عن المعلومات و تقدم منها ما يلائم أهدافك فقط.

لنعد إلى موضوعنا, أريد أن أشير إلى أمر هام : لم يأت ذكره ولا في أية رواية عن الإبادة الكاملة لكل الشراكسة, وعلاوة على ذلك فإن الجنرالات يعتبرون أن إحدى الأسباب الرئيسية لطرد الشراكسة كانت .للمحافظة على حياة الأديغة. و لقد قيل الكثير في المراسلات بأن القبائل التي بقيت تعتبر من أكثر القبائل الغير مهادنة و الحقودة و سوف تقاتل حتى النهاية, و بالتالي و بهدف عدم إبادتها كان من الضروري عدم إيصالهم إلى مرحلة اليأس و منحهم فرصة الاختيار و الخروج من القفقاس.

و يدرك أعضاء اللجنة الخاصة قسوة الحل المقترح و يقدمون مثالاً مشابهاً للاستعمار الأوروبي للقارة الأمريكية و التي أدت إلى " إبادة جميع السكان الأصليين تقريباً" و يقولون بأنه يجب تجنب مثل هذا المسار للأمور. إن هذه الفكرة كانت تُطرح باستمرار و في كل الأمور من قِبل الجنرالات و كانت تُلطخ باستمرار من قِبل المؤرخين الأديغة الذين يختارون من المراسلات ما يناسبهم فقط و ما يؤكد و لو بشكل بسيط وحشية الأحداث.

يطلب الكسندر الثاني " أن يتناسب هذا التطور (السكان الروس في مقاطعة ما وراء الكوبان) مع الاكتفاء بالأراضي التي يمكن أن تُقدم للقوزاق المحررين دون إحراج و مضايقة للسكان الأصليين... "كما يكتب ميلوتين عدة مرات بأن " واجبنا تجاه الإنسانية يتطلب أن نتخذ الإجراءات في وقت مبكر من أجل ضمان وجود حتى القبائل المعادية لنا ".. حتى أنه يحدث خلاف في بعض النقاط ، فبارياتينسكي يعتبر نفسه مُهاناً لأن أعضاء اللجنة و حسب رأيه قد طرحوا اقتراحه كما لو

أنه "يقترح نظام عمل لإخضاع القبائل القفقاسية الجبلية استناداً إلى إبادة كل السكان الأصليين", و يكتب "بأنهم ينسبون إليه نوايا غير إنسانية" وبالتالي فانه لا يرى حتى ضرورة تبرير مثل هذه الأقاويل.

تصوروا الإبادة الجماعية التي تنفذ ليس بهدف إبادة شعب , بل بهدف ضمان نجاته!

هذه نقطة مهمة جداً و هي تتيح لنا فهم التساؤل : لماذا حدث ما حدث؟ .. لم يرغب أحد بإبادة الأديغة كشعب. و قد كان المقترح أن يتم ترحيل ثلاثة قبائل بشكل منظّم – الأبازيخ و الشابسوغ و الوبيخ- إلى السهول, و لأجل هذا الهدف تم تخصيص 864 ألف دونم من الأراضي على الضفة اليسرى للكوبان, و عدا عن ذلك فقد تم تخصيص 409 ألف دونم في منطقة بيتيكورسك لأجل هذا الهدف. و قد تُركت هذه الأراضي فارغة و لم يتم توطين القوزاق فيها.

أما الناتوخاي و الذين كانوا يعيشون قرب البحر و لكن بشكل عام في السهول الغير مشجرة و الذين أظهروا تعاطفاً أكبر مع روسيا , كان المقترح ألا يتم طردهم إلى مكان بعيد بل جمعهم في مكان واحد ما بين أنابا الحالية و نوفوروسيسك, و إنشاء "حي ناتوخايي" منفصل تحت قيادة اللواء, و كان من المفترض أن يتم تخصيص أكثر من 100 ألف دونم للمنطقة الجديدة.

لقد كانت هذه من أفضل الأراضي الخصبة و التي لم تكن بأسوأ من الأراضي التي خُصصت للقوزاق, و كانت أفضل من الأراضي التي كان يملكها الأديغة في الجبال .و عدا عن ذلك فقد قدرت الحكومة الروسية بأن متوسط مخصصات الأديغة من الأراضي في مناطقهم الجبلية كان يشكل 1 دونماً واحداً للشخص, و خصصت أراضي السهول كي يحصل كل فرد على ما لا يقل عن 3-4 دونم, و بالمتوسط أن يصل إلى 7 دونم بحيث تصل مخصصات العائلة الواحدة إلى 20 دونماً. و بهذه الحسابات و التي تأخذ بعين الاعتبار وجود قرى في سهول الكوبان لم تدخل ضمن حسابات التوزيع فإنه من الممكن أن يستوعب الكوبان و ستافروبل ما لا يقل عن 300-400 ألف شخص شركسي.

إليكم ما يكتبه الجنرال فادييف حول هذا الموضوع : " لم تكن هنالك أية حاجة لطرد الجبليين إلى تركيا, لقد كنا نملك أماكن ملائمة لهم , أولاً: مليون دونم في الضفة اليسرى للكوبان تم تعيينها خصيصاً لهذا الغرض, و ثانياً : 300000 دونم من الأراضي الجيدة في بيتيكورسك بعد طرد قسم من الناغويين الرُحل إلى تركيا في عام 1860, و ثالثاً: على الأراضي القوزاقية و التي تخلى عنها سكانها و انتقلوا إلى المواقع الأمامية , إن كمية الأراضي التي خصصتها الحكومة لاستيعاب الجبليين تقارب مليون و نصف دونم".

و بالإضافة إلى ذلك و كإجراء مساعد فقد تم فتح الحدود مع تركيا حيث عوّلت السلطات بانتقال قسم من الشعب – الأكثر تشدداً- إلى تركيا. و أؤكد هنا و هذا أمر مهم جداً من أجل الفهم اللاحق للأوضاع بأن إعادة توطين قسم من الأديغة في تركيا يعتبر أمراً إضافياً و مساعداً و محسوباً لجزء صغير نسبياً من الناس.

إليكم ما يكتبه الكونت يفدوكيموف : " إن إعادة توطين بعض الجبليين في تركيا يعتبر دون شك تدبيراً مهماً للدولة القادرة على إنهاء الحرب في أسرع وقت ممكن دون بذل جهد كبير من جانبنا , و لكن في كل الأحوال كنت دائماً أتطلع إلى مثل هذه التدابير كأدوات مساعدة لإخضاع القفقاس الغربي و التي توفر إمكانية عدم إيصال الجبليين إلى اليأس و تفتح مخرجاً حراً لأولئك الذين يفضلون الموت و الدمار على الخضوع للسلطة الروسية".

لنتوقف لحظة هنا و لنلق نظرة عن بُعد على الوضع ...في القرن 19 تنتهي حرب استعمارية شاقة بعد 100 عام , أزهقت كثيراً من أرواح الروس و أضنت قواهم. الأعداء اللدودين بالنسبة إلى سانت بطرسبورغ و هم الجبليين الشراكسة لم يُهزموا بعد, و لكن نهاية مقاومتهم قد أصبحت واضحة و لا تدع مجالاً للشك.. القلعة المعادية و التي أدى حصارها إلى إزهاق الكثير من الأرواح و الوقت توشك أن تسقط... فمالذي يفعله الكسندر الثاني و الذي يحاول إبادة كل الأديغة حسب ما جاء في التوجه إلى البرلمان الأوروبي؟ و مالذي كانت لتفعله حكومات أخرى و جنرالات آخرين في مثل هذا الوضع و هذا الوقت؟

- عام 1799 تستولي القوات الفرنسية أثناء حملتها على مصر على القلعة التركية يافا في فلسطين.. يُعدم ثلاثة آلاف شخص من القوات الإنكشارية التي استسلمت لهم بأمر شخصي من نابليون.

- في نفس العام 1799 يقتحم الإنكليز و يستولون على الإمارة الهندية ميسور و هي مدينة سيرينغا باتام , و بأمر من قائد الجيش الإنكليزي الجنرال أرتور ويسلي – و هو دوق ويلينغتون لاحقاً و المنتصر على نابليون لاحقاً " في معركة الشعوب العظيمة " في واترلو – يقوم هذا الجنرال بإعدام حوالي 30 ألف شخص أسير من الذين كانوا يدافعون عن مايسور.

- في عام 1809 و بعد حصار طويل تستولي قوات نابليون على سراقسطة, و يتم قتل 30 ألفاً من السكان و 20 ألفاً من الجنود دون رحمة.

فمالذي يفعله الكسندر الثاني – جزَار الشعب الأديغي الذي قتل كل الشعب لأسباب قومية؟

إنه يقدم خياراً للأديغة – إما الانتقال إلى السهول حيث سيتم تخصيص أراضي لهم ربما هي الأفضل في أوروبا, مع كامل حقوق المواطنة الروسية أو الذهاب إلى الحلفاء الذين أيدوا الأديغة لعهود طويلة
و دعوهم إليهم و وعدوهم بالمساعدة.

لقد كان ذلك و ببساطة أروع و أفضل و أكثر خيار إنساني من جميع الخيارات التي قدمتها الحكومات المستعمرة في ذلك الوقت للشعب المحلي المهزوم. و أؤكد بأنه الاختيار الأفضل و الأكثر إنسانية من جميع الخيارات المتاحة في تاريخ تلك الفترة ! و إنني على يقين بأن كلماتي هذه ستخضع لانتقادات كبيرة من قسم كبير من الشراكسة ,و لكن هذا ما حصل ! لم يمنح الألمان قبائل

الهيرو المهزومة حق الاختيار – الذهاب إلى حلفائهم أو إعادة الاستيطان في ألمانيا و الحصول على الجنسية الألمانية مع مخصصات من الأراضي أكبر بثلاثة مرات من التي كانوا يملكونها في أفريقيا ! كما لم يمنح الأمريكان للهنود , و لا البلجيك للزنوج. و ببساطة لا توجد أمثلة مشابهة في تاريخ تلك الفترة.

و علاوة على ذلك فإن الشراكسة أنفسهم في ذلك الوقت لم يقدموا اختيارهم المناسب لأعدائهم المنتصرين ! فكقاعدة عامة فقد كان مصير الأعداء الخاسرين في البيئة الأديغية ينحصر بكل بساطة في مفهومين: إما الموت أو العبودية. إن الأمير كونجوكين الذي طلب من كاترين الثانية بناء قلعة مزدوك لم يقم بذلك سوى لأنه كان مهدداً بالموت, و لم يقدم له أحد حق الاختيار, لم يقل له أحد اذهب إلى جماعتك الروس و سنساعدك في هذا الأمر أو اذهب إلى كاباردا الكبرى و سنضاعف أرضك ثلاث مرات.

و في نهاية المطاف اختار الأديغة الذهاب إلى حلفائهم- كان هذا من حقهم, اختيارهم الذي ينبغي احترامه, و لكن ينبغي كذلك أن يكونوا مسؤولين عنه..فمن أراد البقاء – بقي, و من أراد الذهاب- غادر.
و من أجل تنفيذ هذا الخيار تُرسل الحكومة الروسية الرائد لوريس ميليكوف قائد الجبهة الأبخازية إلى تركيا للتفاوض و لم يكن هذا الرائد معروفاً في ذلك الوقت, و لكنه عُرف بعد ذلك و هو الذي قام عام 1851 باستجوابه الشهير مع حجي مراد و الذي سيسجل في التاريخ لاحقاً باعتباره واحداً من أشهر وزراء الداخلية في روسيا..جرت المفاوضات بنجاح و لم يكن يبدو أن هناك ما ينبئ بالمتاعب...و هنا يتدخل عاملان قاتلان في الأحداث :

1- مصالح تركيا.   2- و مصالح النخبة الأرستقراطية الشركسية.

1- كانت تركيا مهتمة جداً في هجرة كتلة كبيرة من الشركس, كانت تركيا قد أصابها الضعف و شبه مدمرة, و بحلول منتصف القرن 19 لم تكن تشبه ذاك الباب العالي التي كانت تمثله يوماً ما. لقد كانت مقاطعاتها النائية في البلدان العربية و السلافية و اليونانية و الأرمنية في حالة تمرد و تهدد بالانفصال... من جهة كان الظهور الغير متوقع لعدد كبير من المقاتلين المهرة الشراكسة الموالين لتركيا على أراضيها قد منحها أملاً في تهدئة الأوضاع تحديداً هناك- في المقاطعات التي تخضع لها...تقرر تركيا استخدام الشراكسة كما يستخدم الروس القوزاق- أن تعيد توطينهم على حدود الإمبراطورية في المناطق الحدودية المضطربة.

و من جهة ثانية, تحريضها للشراكسة للقتال ضد الروس يعني حماية مصالح تركيا ...لقد كانت تركيا تقدم الوعود للأديغة لعقود من الزمان و بأنها لن تتخلى عنهم في حال تعرضهم لسيناريو كارثي, و الآن عندما وقعت الكارثة كانت و بكل بساطة مضطرة للالتزام بوعودها.

كان الشركس يصدقون تلك الوعود بشكل أعمى, كانت الوعود تُغذى بالأساطير و بمهارة فائقة و تتحدث عن المجتمع التركي و الشركسي , عن مصيرهم المشترك و عن الأخوة بينهما وعن قرون من العلاقات القديمة بينهما ..الخ...كان مؤيدو الهجرة إلى تركيا ينشرون شائعات تقول أن " الدم

الشركسي يجري في عروق السلطان, و أن والدته و حريمه شراكسة- عبيده من الشراكسة – وزراءه و جنرالاته شراكسة – إنه رأس إيماننا و كذلك رأس عرقنا ".

2- العامل الثاني من عوامل الكارثة و الذي كان له دوراً هائلاً في تهجير الشراكسة هم النخبة الأرستقراطية الشركسية.

إن هذا الموضوع أيضاً يتم إخفاؤه بشتى الوسائل و تضاف إليه الرتوش بدقة من قبل المؤرخين الشراكسة المعاصرين و التي تضع نصيب الأسد من مسؤولية كارثة التهجير و من تقسيم الشعب على الروس,و تُذكر بشكل خفيف بأن الأتراك لم يكونوا مثاليين كذلك الأمر, بينما تُغمض عينيها تماماً عن
ذنب الشركس أنفسهم في هذه المأساة, وبخاصة ذنب النخبة منهم.

و أكرر مرة أخرى : بأن دور النخبة الشركسية في اتخاذ قرار هجرة الشعب الشركسي من القفقاس و في وقوع كارثة السنوات الأخيرة من الحرب هو دور كبير و ضخم ! فإن كان الفلاح البسيط المشغول بعمله على قطعة أرضه لم يكن يهمه كثيراً الانتقال إلى الولاية القضائية الروسية, و حتى بانتقاله إلى الكوبان لما تغير شيء مبدئي من حياته اليومية الفلاحية , و لكن بالنسبة للأثرياء و النخبة الحاكمة فإن خضوع القفقاس بشكل كامل لروسيا كان يحدث تغييراً جذرياً في كل نظامهم المتمثل بعلاقتهم مع العالم الخارجي و الداخلي و كان سبباً في تقويض أسس ثروتهم و نفوذهم.

أولاً فالحديث يدور مرة أخرى و على مستوى هام جداً حول الرق – حول الفلاحين الغير مستقلين , حول العبيد و حول "بيع الأسرى" ..بعد ظهور مقالتي هذه حول أسباب هزيمة الشراكسة في الحرب القفقاسية فستلقى الكثير من الاستياء من قِبل الكثير من القفقاسيين و سيقولون بأنني أولي اهتماماً فائقاً بهذه المسألة و بأنني أحاول بشكل ما اتهام الأديغة أنفسهم بحقيقة وجود عبيد لديهم و بالتالي أبرر الحرب القفقاسية نفسها..بالطبع لا ! لقد كان الرق مرحلة طبيعية في حياة الشعب الشركسي تماماً مثل المراحل التي مرت بها غيرها من الشعوب بما فيهم الروس..و بهذا الصدد فإن القائد الشركسي سفربي زان الذي كان يملك 300 من الأقنان يتساوى تماماً مع جدة ليرمانتوف – اليزابيت أرسينييفا التي كانت تملك 400 قناً ...و لكن المسألة تكمن في أن نظام الرق تحديداً كان عظيماً و كان له تأثير فائق, و عملياً كان عاملاً حاسماً في اتخاذ السلطة الأديغية كل القرارات الحاسمة و الخطرة في الحرب القفقاسية اعتماداً على مصالحها الشخصية, تلك القرارات التي حددت الهزيمة المدوية و مأساة الطرد ! أنا لا أفهم, كيف لنا ألا نرى ذلك؟

انظروا بأنفسكم : إن التكتيكات الحربية الأديغية وهيكل التشكيلات العسكرية مصمم على التركيز على المهمة الرئيسية – وهي الغارة السريعة على الجزء الخلفي أو على خاصرة الخصم و أخذ الأسرى- و لهذا السبب يُهزم الأديغة في الحروب العسكرية للجيوش النظامية التي تملك هيكل القوات العسكرية الكامل التي تستخدم جميع أنواع العمليات الممكنة...تبدأ الحرب القفقاسية ببناء قلعة مزدوك – الأديغة مستاؤون و لكن ليس لبناء القلعة و ليس من التهديد الحربي لوجودها بقدر

ما هم مستاؤون لهروب العبيد إليها بأعداد كبيرة طالبين الحماية, هذا الأمر الذي لم يكن ليسمح به الأمراء الكاباردينيين... النبلاء و الارستقراطية الأديغية و من قوميات مختلفة تماماً تدخل أثناء الحرب بمفاوضات مع الإدارة الروسية و تحاول الانتقال كلياً إلى الجانب الروسي في حال سمحت روسيا بإبقاء العبيد لهم, و لو حصل ذلك لاختلفت كل مجريات و كل تاريخ الحرب بين "الروس و القفقاسيين" . و لكن روسيا لم تكن لتسمح بحدوث مثل هذا الأمر بسبب أنها كانت على وشك إلغاء نظام القنانة ...و تستمر المواجهة...و مثل هذه الأمثلة كثيرة للغاية- خذوها وقارنوا!

لقد كان تحرير الفلاحين العبيد يشكل بالنسبة للأرستقراطية تقويضاً لأسس ازدهارها الاقتصادي, و إن كان الأقنان في روسيا قد حصلوا على حريتهم في روسيا حسب قانون الإصلاح الصادر في عام 1861 فإن نظام القنانة لم يزل موجوداً في تركيا, و تتلقى الطبقة الأرستقراطية ضمانات للحفاظ على حقوقهم المتعلقة بالفلاحين العبيد و الأقنان.

بالإضافة إلى ذلك فقد كان هناك سبب آخر لعدم سعي النخبة الارستقراطية الأديغية للشعوب الغير خاضعة في تلك الفترة إلى روسيا ,والحقيقة أنه على مدى سنوات من التعاون على الحدود المشتركة بين الإدارة الروسية والقادة الأديغة تولد نوع صعب من العلاقات المتبادلة و التي لم تكن تشبه إطلاقا تلك التي نراها الآن على غرار لوحة شبه وطنية "الإبادة الكاملة على أساس قومي- الحرب المقدسة" قادة الشعوب الأديغية كما غيرهم من الشعوب التي تقع بين ضغط إمبراطوريتين عظيمتين و تحاول العمل بسياستها الخاصة لوقت طويل استطاعت و لوقت طويل أن تناور بمهارة بين الأتراك و الروس و الإنكليز و شعبها و تحصل على جميع أنواع الفوائد مقابل الولاء و الكلام المرئي لجهة - دون معارضة الجهة الثانية, وعلاوة على ذلك فقد كان من الممكن أن تكون هذه الفوائد في غاية الأهمية والحيوية الحياتية بالنسبة إليهم, فعلى سبيل المثال تكون في المساعدات الحربية والمساعدات المالية والاقتصادية, و زيادة نفوذهم بين القبائل الأديغية الأخرى وهكذا, والواقع أن أعمال القادة الأديغة في تلك الفترة لا تختلف إطلاقا عما نعرفه الآن عن العجوز لوكاشينكو الذي يرمح الآن بين أوروبا وروسيا أو بولندا – بين أوروبا وأمريكا.

و الآن و بالانتقال الحتمي لأراضي الأديغة إلى الولاية القضائية الروسية فعلى ما يبدو أن روسيا لم تعد قادرة على المناورة, لم يعد هناك من تناور لأجله ! انتفت إمكانية المساومة- و لم يعد للسلطات الروسية سوى أن تطالبهم بالطاعة التي لا جدال فيها..وهذا خطأ فادح ! إن إنشاء القوة الروسية في القفقاس الشمالي و حتى في القفقاس الغربي يُظهر عملياً بأن السلطات الروسية تقدم و بسرور قيادة المناطق والشعب إلى تلك النخبة الأرستقراطية ذاتها التي كانت بالأمس فقط تحارب ضدها حاملة السلاح, بينما اليوم قد أقسمت يمين الولاء ! إن روسيا "المبيدة" لم تتصرف بالصيغة الاستعمارية لإنكلترا الحضارية و التي تنص على إبادة الأشخاص الأوائل و القادة في الأراضي التي تحتلها, لنلقي نظرة على نواب شامل – هؤلاء المقاتلون الناكرون للذات من أجل حرية الشيشان و من أجل العلم الأخضر للإسلام- لقد ذهب نصفهم إلى الجانب الروسي و حصلوا من روسيا على الجوائز والألقاب والأموال والأرستقراطية و استمروا في قيادة شعبهم ذاته... و في هذا الصدد فإنني على قناعة تامة بأنه في حال كان ذلك الشخص التولستويي – الأسطوري حجي مراد, نائب شامل و يده اليمنى, لو لم يرتكب خطأ مميتاً و لم ينتقل لأكثر من مرة إلى الجانب الآخر لكنا قد عرفناه اليوم ليس بوصفه " الجمجمة رقم "6521 الموضوعة على الرف في

كونستكامير, بل باعتباره كواحد من أكثر إداريي القيصر تقدماً في القفقاس نصير السياسة الروسية في القفقاس.

و قد كتب بيرجي بشكل رائع حول تأثير النخبة الأرستقراطية في تهجير الأديغة إلى تركيا : "إن النبلاء والأشخاص الأكثر نفوذاً من الجبليين و بعد تحرير الأقنان في روسيا خافوا من أن يحملوا الجنسية الروسية و يفقدوا بذلك سلطاتهم و مرؤوسيهم و أخذوا بالذهاب إلى تركيا ساحبين وراءهم الجماهير الجاهلة التي كانت تثق بأفكارهم ومعرفتهم و خبرتهم..هؤلاء الأشخاص تحديداً هم من يجب اعتبارهم أصحاب مبادرة الهجرة..لقد كان تأثيرهم لا يقاوم على الشعب, وعلى أساس مصالحهم الشخصية استخدموا كل جهودهم لتخويف الراغبين بالمجيء إلى الجانب الروسي, تخويفهم من التعسف الروسي, و من الجندية و بث دعاية ضرورة التخلي مستقبلاً عن الديانة الإسلامية, و تواصلوا مع الحكومة التركية وذهبوا إلى القسطنطينية و قدموا أنفسهم للسلطان ككبار المسؤولين و كسفراء أجانب, و استضافوا لديهم جميع الوفود و المبعوثين مظهرين لهم قيمة غير معهودة, و في ظل هذه الظروف فقد فشلت كل مقترحات حكومتنا التي قدمتها للجبليين من أجل ترحيلهم الحر إلى السهول و تخصيص الأراضي المجانية لهم هناك...وهذا هو السبب في أن إعادة توطين الجبليين من قِبلنا و بالرغم من كل رغبات حكومتنا فإن إعادة التوطين هذه لم تتجاوز 100 ألف شخص, أي ما يعادل من مجموع الشعب الجبلي" 6/1 .

مالذي تعتقدونه؟ هل هذه المقولة قد تم ذكرها في الطلب المقدم إلى البرلمان الأوروبي أم أنها قد أهملت "عن طريق الصدفة"؟

وهكذا تقرر الطبقة الارستقراطية المغادرة و انتهى ! لقد توضعت ثلاثة عوامل معاً, و منذ تلك اللحظة و صاعداً تتقرر مأساة الأديغة سلفاً.

تبدأ الهجرة الجماعية للأديغة إلى تركيا في عام 1858, وهكذا و بحلول ربيع 1858 يتم تسجيل (رسمياً) و أؤكد على كلمة رسمياً أي للحالات التي كانت تخضع للحدود الروسية و ضرورة الحصول على إذن من السلطات الروسية, يُسجل رحيل 257 عائلة إلى تركيا, و يتضاعف هذا العدد حتى خريف العام ذاته ليصل إلى 533 عائلة...كم عدد الشراكسة المهاجرين بشكل غير رسمي من المناطق التي لا تتحكم فيها السلطات الروسية و بدون إذن من السلطات؟ لا يمكننا سوى التخمين ! وعلى الأغلب أن العدد كان أكبر بكثير من العدد المسجل رسمياً..يسجل عدد المهاجرين ارتفاعاً كبيراً منذ منتصف عام 1863 عندما تبدأ روسيا هجومها النهائي على الأراضي الشركسية التي لا تقع تحت سيطرتها..وتبدأ أعداد الشراكسة المهاجرين بالتراكم على موانئ و شواطىء ساحل البحر الأسود, و يرفع الجنرال أوربيلياني كافة القيود المفروضة على النقل كي يفسح الطريق للراغبين بالهجرة إلى تركيا. تبدأ المواقف واللحظات الحرجة بالظهور فوراً, حتى في الوقت الذي لم تكن فيه روسيا تسيطر بعد على كل سواحل البحر الأسود والذي كان فيه الأديغة يهاجرون بأنفسهم...كان عدد المهاجرين وقتها يصل للآلاف, وحسب معطيات فادييف فإنه حتى نهاية شباط وصل عدد المهاجرين إلى تركيا 20 ألف نسمة, وفي منتصف آذار تجاوز 40 ألفاً.

إليكم ما يكتبه فادييف:" لقد حصلت هذه الهجرة بالقرب منَا وتجاوزتنا, حصلت على الشواطئ الحرة الغير مسيطر عليها و بقوارب شراعية تركية و التي كانت تأتي بالعشرات إلى الجبليين , ومن الطبيعي جداً أن يترافق هذا الإجراء و هذا العبور بحالات لاإنسانية ومعاناة لا حصر لها..لقد اعتاد أصحاب المراكب التركية بالذهاب إلى الشاطئ الشرقي تحديداً من أجل التجارة بالرقيق ,و كانوا بنفس الوقت ينقلون معهم الناس الأحرار و أمتعتهم..و في حال عدم وجود الأموال لدى المسافرين, كان الأجر هو تقديم النساء والأطفال".

و لكن القسم الأكبر من الأديغة تبدأ بالهجرة عام 1864 عندما تنتهي الحرب في القفقاس. إن كل الصفحات المأساوية و التي تتكلم عن المجاعة و الأوبئة و العدد الكبير من الضحايا الشركس تعود تحديداً إلى تلك الفترة.

لم يكن أحد يتوقع رغبة هذا العدد الكبير من الأديغة بالهجرة. لا أحد , لا روسيا و لا تركيا , وعلى الأرجح بأن الأديغة أنفسهم لم يتوقعوا رحيل هذا العدد. لم يكن هناك هدف مطروح حول ترحيل جميع الأديغة إلى تركيا و لا في وقت من الأوقات. لقد كانت الحكومة الروسية تعتقد بأن القسم الأكبر من الجبليين سيبدأ بالانتقال إلى الكوبان, و كانت ترى في تركيا مجرد بند احتياطي سيلجأ إليه الأكثر تصلباً فقط. إليكم ما يكتبه مؤرخ البلاط الملكي بيرجيه حول هذا الموضوع, و التي يحب الوطنيون المعاصرون الأديغة استخدامها كدليل على محاولات الحكومة الروسية إبادة كل الأديغة :"من الواضح أن حكومتنا لم تفكر مطلقاً بطرد الأديغة كما كان يُكتب حينها في الصحف الأوروبية و لكنها كانت فقط تتمنى إنهاء محنة الحرب التي امتدت قرناً من الزمن في القفقاس و إخضاع المجتمعات المشاكسة و تزويدهم بكل وسائل العيش السلمية والمريحة في السهول والأراضي ذات التربة الخصبة في وادي نهر الكوبان وروافده. و في حال لم يتم مثل هذا الانتقال السلمي للجبليين إلى المواطنة الروسية فإنه و بكل الإنصاف نقول بأن اللوم لا يقع علينا , بل على الحكومة التركية و الدبلوماسيين الأوروبيين الذين لم يفكروا مطلقاً بازدهار الجبليين و راحتهم بل استخدموهم كأداة لإعاقة التنمية الروسية."

دعوات تركيا وتحريض نبلاء الأديغة وانتشار شائعات سخيفة بين الأديغة حول التعميد الإجباري الشامل, وحول تسجيل الجميع كجنود أو كقوزاق..كل ذلك مضروباً "بالتعصب الديني والثقة العمياء للجبليين بأن تركيا تنتظرهم بحرارة, وكل ذلك رسمه مبعوثو الدولة العثمانية بطلاء زاهي الألوان " كل ذلك أصبح سبباً في اختيار الأديغة لتركيا عوضاً عن الكوبان.

دعونا نتصور هذا الوضع: لقد هب الشعب, و بوقت واحد انطلق عدة مئات من ألوف الأديغة من أماكنهم -الوبيخ والشابسوغ والأبازيخ والناتوخاي تقريباً بكامل تعدادهم و بنفس الوقت تقريباً وخرجوا إلى الشواطئ على أمل نقلهم بسرعة إلى تركيا. إن الحديث يدور حول عدة مئات من ألوف الناس, وعلى الأرجح أن عددهم كان ما بين 200- 300 ألف شخص و بوقت واحد!

تمتلئ الطرقات وممرات الغابات بأعداد هائلة من الناس, و يعم الاضطراب والفوضى والارتباك

في كل مكان, و تفقد الطبقة الارستقراطية السيطرة على أناسها, والمؤن التي قدمتها روسيا لم تعد كافية, والسفن التركية والروسية التي استأجرتها الحكومة الروسية لا تستوعب هذا العدد الضخم من المهاجرين. كانت الحالة مماثلة تماماً على الجانب الآخر من الشاطئ- حيث لم يتوقع الأتراك هذا العدد الضخم من الناس, كانوا يعتقدون بأن الأديغة سيكونون أقل بكثير من ذلك وبأنهم لن يصلوا في وقت واحد بل تدريجياً, لم يكن لديهم لا الموارد و لا الأمكنة لاستيعاب هذا العدد الكبير.

يقوم الأتراك بمراسلة بيتربورغ و يعاتبون السلطات الروسية بأن عدد المهاجرين قد تجاوز كثيراً العدد المتفق عليه, و يرد عليهم الروس بشيء ما, و يبدأ الأتراك بالحد من سرعة استقبال المهاجرين . بينما يعاني في هذا الوقت الناس على موانئ البحر الأسود من الجوع و البرد و تفشي الأوبئة, و يموت الشراكسة.مشاهد مروعة تجري على الشاطئ, و يفتح الأديغة أعظم صفحة مأساوية لهم في التاريخ.لنتوقف لحظة ولنحاول التفكير فيما إذا كان هناك شيء منطقي خلف الحالة المأساوية الخارجية والوصف الثاقب للمعاناة البشرية.

خرج 200- 300 ألف شخص بوقت واحد إلى الشواطئ وهم يأملون بالنقل السريع إلى ما خلف البحار والتمركز هناك في مخيمات ما...بوقت واحد ! إن تحرك مثل هذا العدد الضخم من الناس بشكل حتى في وقتنا الحالي أمراً بالغ التعقيد لأكثر البلدان المتطورة بحرياً, و يكفي القول أنه بعد 90 عاماً من هذا الحدث و في أكبر عملية برمائية شهدتها كل العصور- الهبوط في نورماندي في 6 حزيران من عام 1944- فخلال اليوم الأول من العملية التي جمعت قوى أربع تحالفات عظمى في ذلك الوقت"أمريكا وانكلترا وفرنسا وكندا" تمكنوا من إنزال 175 ألف شخص على الشاطئ النورماندي, وتطلب ذلك توحيد الأسطول الجوي والبحري لهذه الدول المتقدمة, و كان اعتماد الاحتياجات المخصصة لهذه العملية هو أكثر من 5.3 ألف سفينة و11 ألف طائرة , وتجهيزات هائلة في المجال الهندسي التكنولوجي و في العلاقات التنظيمية والاقتصادية, و أكثر من سنتين من التدريب والتجهيز المتواصلين والجهود والدعم الاقتصادي الهائل.

و في الوقت نفسه عندما كانت السفن الاعتيادية التجارية تستطيع نقل بضع عشرات من الناس, فإن مشكلة نقل هذا العدد الكبير من الناس ضمن المدى الزمني القصير لا يمكن حله, وكان ذلك مستحيلاً من الناحية الفنية وبالتالي فإن الكثيرين من أولئك الذين كانوا على الشواطئ منتظرين نقلاً سريعاً, كان محكوماً عليهم بكل بساطة – محكوم عليهم تكنولوجياً وتنظيمياً و إداريا و لوجيستياً ...لم يكن للمأساة ألا تحدث ! إنها مسألة رياضيات بحتة, 2+2=4 دوماً حتى لو اعتبرنا هذا الرقم تحت أي بند من بنود الإبادة الجماعية المروعة.

لنتابع, تحاول القيادة الروسية و بشكل ما مساعدة الأديغة– و تؤكد بأنه سيتم نقل أعداد أكبر بكثير مما كان مخططاً له سابقاً وعلى نفقة الدولة ومن أجل الإسراع في عملية النقل تقوم باستئجار سفن إضافية, كما تستخدم السفن الحربية في عملية النقل بعد إزالة الأسلحة عنها وذلك بالاتفاق مع الأتراك (بالمناسبة يفعل الأتراك الشيء ذاته), و تشتري الخبز من أبخازيا و توزعه على المهاجرين, وتقدم المال للأسر الأكثر فقراً – بحدود 10 روبلات للعائلة, تداوي المرضى من الأديغة في المستشفيات القليلة الموجودة, تجد أماكن للأطفال المحتضرين مع الأسر القوزاقية...الخ.. و لكن كل ذلك لا يكفي. في نهاية شتاء 1864- 1865 يموت خلال الهجرة

عشرات الآلاف من الأديغة سواء على الشواطئ الروسية للبحر الأسود أو على الشواطئ التركية و ذلك نتيجة الجوع و البرد و الأوبئة.

لن تكون هنالك هجرة أكثر قسوة ومميتة بالنسبة للأديغة, ولن تحدث مرة أخرى مثل هذه الهجرة القاسية المدمرة لهم , و لكنها لا تنتهي عند هذا الحد.وهنا يبدأ شيء غير مفهوم بالحدوث – فبعد رحيل الوبيخ والأبازيخ و قسم من الشابسوغ والناتوخاي لم تتوقف هجرة الأديغة إلى تركيا – تنخفض وتيرة الهجرة ولكن الحركة إلى تركيا تستمر ! تنهض شعوب أخرى مهيجة من قِبل قادتها التي تحضها على الهجرة – ويهاجر أولئك المسالمون منذ فترات طويلة , أولئك الذين كانوا يعيشون مع روسيا لسنوات وعقود طويلة, أولئك الذين تكاملوا مع المجتمع الروسي والذين كان أبناءهم ضباطاً وموظفين وطلاباً روس.يبدأ بالرحيل أولئك الذين أنقذتهم روسيا والذين منحتهم حريتهم , والذين حاربوا إلى جانبها لسنوات طويلة ضد "الجبليين المتمردين" و ضد تركيا تحديداً.. وهكذا تهاجر القرية المذكورة سابقاً "قرية المنشقين "الجواسيس", و يهاجر الأمير غازي بيك مورزين – الإنسان الذي تطوع في الجيش الروسي والذي حارب ببسالة في القفقاس وحصل على لقب ضابط على شجاعته وعلى عدة أوسمة والذي كان عضواً سابقاً في " المحكمة المؤقتة من الأمراء".إليكم كيف يصف الجنرال فادييف ذلك:

"عقب الجبليين الخاضعين للتو تتالت هجرة أعداد كبيرة أخرى كانت تعيش لفترة تحت الحكم الروسي, التعصب شجع بعضهم على الرحيل, والبعض الآخر لم يرغب بالتخلي عن أقربائه, وقسم هاجر لأن العالم تهاجر , و كان الجميع يأمل في سخاء و رحمة السلطان الغنية و الذي كانوا يتصورونه مثالاً للجبروت والثروة التي لا تنضب ..ومهما كان يقال للمهاجرين فقد كانت لديهم إجابة واحدة : "إننا في حال جيدة معكم ولكننا نريد أن ترقد عظامنا في الأرض المقدسة".

بالمناسبة, وللإنصاف يجب القول بأنه في تلك الفترة لم يكن الشراكسة وحدهم هم من وقع تحت سحر مصطلح "التركية" فبالرغم من أن أحداً لم يطردهم فقد أراد الشيشان أيضاً الهجرة إلى تركيا وكذلك قسم من القاراشاي, والأمر الغير مفهوم إطلاقا هو رغبة بعض الأوسيتينيين .و كانوا جميعهم يشكلون حوالي 5 آلاف شخص. و قد قاد هجرة هؤلاء الرجل ذو المصير السحري – موسى كوندوخوف الجنرال في خدمة سلاح الفرسان الروسية, والذي خسر فيما بعد أهم معركة في حياته من قِبل سلاح الفرسان الروسي.و فيما بعد يصبح ابنه الوزير الأول للشؤون الخارجية في جمهورية تركيا, و يعيش أحفاد أحفاد الجنرال كوندوخوف الآن في أمريكا و يعتبرون أنفسهم أوسيتينيين ولكنهم لم يعودوا يتكلمون اللغة الأوسيتينية.

لقد كان هذا مشابهاً لنوع من الجنون.. لا تفهم الإدارة القيصرية سواء في بيتربورغ أو في كل المناطق ما يجري, ويسألون القيادة " ماذا سنفعل؟ الشراكسة يهاجرون".

في بداية الأمر تمنح بيتربورغ الإذن بالمغادرة معتبرة أنه كلما كان عدد المهاجرين أكثر كلما كان ذلك أفضل, ولكن فيما بعد يدركون فجأة بأن تنفيذ المهام يختلف اختلافاً جذرياً عن الهدف الذي كان موضوعاً سابقاً, فلم يكن هدف طرد الأديغة جميعاً مطروحاً ولكن الوضع المترتب أدى إلى ذلك وبشكل لا هوادة فيه, والأمر الأبعد من ذلك أنه كلما هاجر قسم أكبر كلما كانت الفرص أكبر

في أن طاعة الشعور للانتماء القومي ستستمع وترضخ إلى المحرضين للدعاية التركية من دعاتهم الأرستقراطيين وسيحاول الجبليون المتبقون اللحاق بشعبهم إلى تركيا ولن يتبق أحد من الأديغة في شمال القفقاس .

و هنا و في عام 1867 تتخذ القيصرية الدموية قراراً (هذا القرار في حد ذاته و دون غيره من الحجج و البراهين يدمر كل فرص الاعتراف بالإبادة الجماعية و بأن روسيا تريد القفقاس بدون القفقاسيين) حيث يأمر القيصر بوقف الهجرة إلى تركيا نهائياً ! و تُلغى أذون السفر و يعود الناس الذين تم إرسالهم للمغادرة و يصدر أمر باعتقال المحرضين للهجرة و بمحاكمتهم و إرسالهم إلى سيبيريا, و معاقبة الدوائر القوزاقية التي كان يحاول الأديغة المغادرة من خلالها.

و لكنه شيء غير واقعي ,فانتازيا, لا تنتهي الأحداث عند هذا الحد.ففي هذا الوقت تتولد حركة بين الشراكسة المهاجرين تدعو للهجرة المعاكسة- للعودة . شهدوا كل روائع " الجنة" التركية و رأوا بأنفسهم أنهار الحليب و العسل و أدركوا بأنهم قد خُدعوا بشكل مبتذل, و لذلك يبدأ الكثير من الشراكسة بالسعي للعودة.

ترسل الإدارة الروسية عرائض بطلب السماح بالعودة المعاكسة, و ترسل رسائل خطية عن الاتفاق المتأخر, و تُشكل قوائم للراغبين بالعودة...الخ.

سأخرج قليلاً عن الموضوع... لا أعرف مالذي يأمله أنصار نظرية " الإبادة الرهيبة" , حقاً لا أعرف..فهذه الحقيقة فقط و لوحدها و دون أدلة أخرى قادرة على دحض نظريتهم , إن لم يكن بالكامل و لكنها على الأقل قادرة على هزها بقوة و أن تكون بمثابة شهادة عن عدم العبث في مجال المقارنة بين هذه الحالات.

هل تتصورون , اليهود الذين عانوا و الذين دُمروا بشكل كامل تقريباً و الذين وصلوا إلى فلسطين و نظروا حولهم هناك يقررون العودة إلى مايدانيك و تريبلينكي ! و يوجهون خطابات إلى هتلر قائلين " هذا هو الطغيان ! لقد خدعتمونا بالنسبة إلى فلسطين ! نحن نطالب بإعادتنا إلى أوشفيتز ! نحن موافقون على كل شيء و لكن أعيدونا إلى داخاو.. إن الشعب اليهودي يرغب في غيتو وارسو !"اغفر لي يا رب و لكن ذلك يحدث!

و الآن تغادر دفعتان بوقت واحد – دفعة إلى هناك إلى تركيا , و دفعة معاكسة إلى القفقاس, إلى روسيا الآن.. و في حال كانوا ينقلون الشركس إلى تركيا مجاناً – على حساب الخزينة الروسية , فلا أحد ينقلهم مجاناً في الهجرة المعاكسة, و يتبين أنها مكلفة جداً وعلى الشراكسة الذين أفقرتهم الحرب و الحصار و إعادة التوطين في السنوات الأخيرة أن يدفعوا ثمنها بأنفسهم. و القليل منهم من يملك مثل هذه الأموال المطلوبة, البعض القليل كان بمقدوره دفع ثمن العودة المعاكسة عبر البحر فعادوا, و البعض الآخر الغير مثقل بالعائلة و الممتلكات و يملك المال يعود سيراً عبر الساحل الشرقي التركي, مباشرة عبر تركيا وجورجيا و أبخازيا, و هذه الحالات قليلة ومعروفة ولكنها موجودة..يعود الفارس الكابارديني تسينونا أبازوف و الذي كلفته 6 عائلات بعد سنتين من

الهجرة بأن يذهب للتفاوض مع السلطات الروسية من أجل العودة, رفض الأتراك منحه وثائقه المطلوبة فقطع تسينونا المسافة كلها سيراً على الأقدام, سراً وبدون وثائق.

ترفض الحكومة القيصرية العودة الجماعية للأديغة , و إنني لا أعرف سبب هذا الرفض- قد تكون في عدم الرغبة بعودة الشعوب المضطربة و التي لا تزال معادية لها بشكل جماعي إلى منطقة القفقاس, الشعوب المستاءة من روسيا جراء تفكيكها و الحرب عليها و طردها ؟ عدم الرغبة لتحمل تكاليف إضافية بعودة مئات الألوف من الناس؟ الخوف من الخلافات و الصراعات التي قد تحدث بين الأديغة العائدين و بين أؤلئك الذين شغلوا أراضيهم التي كانت مخصصة لهم و التي ذهبت للقوزاق بعد رفض الأديغة باستيطانها ؟ لا أعلم و لكن العودة الجماعية لا تحدث, و القيصر لا يوافق عليها, و لكنه يُبقي على الشراكسة الذين يعودون بشكل شخصي و لا يطردهم. و تجري مراسلات كثيرة حول وضعهم ما بين الإدارات المحلية و بيتربورغ و يكاترينودار و موزدوك, و لكن في نهاية المطاف يبقون جميعاً و بشكل رسمي نظامي.

و هنا يستيقظ البجدوغ .. سيسألني بعض الشراكسة, لماذا بقي عدد البجدوغ كبيراً بعد الحرب بالمقارنة مع غيرهم من الشعوب, ألم يحاربوا؟ ألم يقتلوهم ؟ - لقد حاربوا, و لكنهم حاربوا ضمن أطر مختلفة عن الوضع الحالي و عن أطر الحرب التي كانت سائدة في القفقاس, و لكن الأمر هنا لا يتعلق بالحرب ولكن يتعلق بالطرد, فقد اعتمد البجدوغ ما نسميه الآن "الاحتراق المتأخر" في تعاملهم مع مسألة إعادة التوطين, فمن جهة كان البجدوغ و خلافاً عن الشراكسة الجبليين يعيشون لعقود مع الروس جنباً إلى جنب و أقاموا معهم تجارة حية و تأثروا بالثقافة الروسية أكثر من غيرهم , و من ناحية أخرى – و هي الأهم !- فكما تذكرون بأن البجدوغ قد طردوا أمرائهم و بالتالي فإن تأثير طبقة النبلاء و الأرستقراطيين و تحريضهم بشأن الهجرة إلى تركيا على أُسس علاقات الاستعباد كانت غائبة, و كانت النتيجة أن جميع الفلاحين تقريباً قد رفضوا في البداية الذهاب إلى تركيا رفضاً قاطعاً. استيقظ البجدوغ لاحقاً – في عام 1873 عندما أدركوا بأن الكثير من الأديغة حولهم قد هاجروا و يواصلون الهجرة, فيعلنون عن رغبتهم في الانتقال إلى تركيا جماعياً فيجابهون برفض قاطع، و يأتي الرد عليهم بأن الشعب سيبقى في مكانه ,فيغادر الدعاة المتحمسين فعلاً, و لكن ليس إلى تركيا بل إلى سيبيريا...يهدأ البجدوغ و يصبحون الشعب الثاني من حيث التعداد بعد الحرب القفقاسية بعد أن كانوا الشعب السادس تعداداً قبل الحرب.

هل كان تهجير الأديغة إبادة جماعية كما يؤكد الكثير من الشراكسة المعاصرين؟ هل كانت مشابهة "للسير على الألواح" كما ذكرنا سابقاً لألكسندر سيلكيرك – روبنسون كروز؟ هل كانت ترحيلاً؟ هل يمكن أن يكون الترحيل إبادة جماعية؟ أكرر – ممكن ! ولكن عندما يكون هدفه هو قتل الشعب وليس الطرد بشكله الحاصل, وعندها علينا الاعتراف بأنه و بتخصيصها أراض في الكوبان تفوق 3- 4 مرات (وأكثر خصوبة بمراحل) من الأراضي التي كانوا يملكونها في الجبال فإن الحكومة القيصرية كانت تريد بذلك قتل الشراكسة ,و بأنهم و بدفعهم الأموال الإضافية لقادة السفن التركية للقيام برحلات متكررة لكي لا تغادر السفن محملة فوق طاقتها فإنهم بذلك لم يرغبوا بنقل الأديغة عبر البحار , بل بقتلهم ، و أن عدم قتل و تدمير الشراكسة العزل على شاطئ البحر الأسود هو أيضاً رغبة بإبادة كل

الشراكسة من الصغير إلى الكبير.

هل كان ذلك ترحيلاً, هل كان الترحيل طوعياً؟ إلى أي درجة كان الشراكسة أحراراً في تصرفاتهم؟ هناك وجهتا نظر حول هذه النقطة :

إحداها و التي يؤيدها قسم من المواطنين الروس تقول بأن إعادة التوطين كان طوعياً – الشراكسة لم يطردهم أحد بل عرضوا عليهم خياراً: الكوبان أو تركيا ,أرادوا و اختاروا بأنفسهم و ذهبوا بأنفسهم إلى تركيا- و هذا يعني بأنهم قد ذهبوا طواعية.

و الثانية : و التي يؤيدها معظم إن لم نقل كل الأديغة تقول بأن الطرد كان قسرياً حتماً و قد جرى تحت تهديد البنادق , و بالتالي فإن روسيا أرادت تنفيذ فكرتها حول " القفقاس بدون القفقاسيين" و إبادة الشراكسة و بأنها جلبت لهم مصائب جمة.

وجهتا نظر قطبيتان.من الذي على حق ؟ لا أحد.

دعونا ننظر إلى نموذجين لإعادة التوطين – إلى الشراكسة الجبليين و إلى باقي الشراكسة. بالنسبة إلى الجبليين –الوبيخ والشابسوغ والأبازيخ و ينضم إليهم الناتوخاي وهم ليسوا جبليين كلياً, بالنسبة إلى هؤلاء فبالطبع لم يكن إعادة التوطين طوعياً – حتماً لم يكن طوعياً! لم يكن بإمكانهم البقاء في أماكنهم, لقد كانت كل هذه الشعوب ترغب بشدة بالبقاء في أماكنها و قد طلبت ذلك مراراً و كانت تحصل على الرفض باستمرار, هذه حقيقة ,حقيقة ! بالنسبة لهم كانت إعادة التوطين تهجيراً.. لا يهم إلى الكوبان أو إلى تركيا -لقد كانت تهجيراً!

فيما يتعلق بإعادة توطين الشعوب الأديغية الأخرى, لا يجوز تسمية ذلك بالتهجير, و هذا المصطلح و بكل بساطة غير قابل للتطبيق هنا, لم يطردهم أحد ,لم يضعهم أحد ضمن وضع مستحيل لا مخرج منه, لم يجبرهم أحد على التهجير القسري.. قولوا لي , من الذي طرد الكاباردينيين؟ من طرد البجدوغ ؟ من طرد ما يسمى بالبطل الروسي تقريباً, القاضي الفخري الأمير غازي بيك مورزين؟ لقد كان قراراً طوعياً شخصياً خاصاً و لم يكن متوقعاً بالمرة بالنسبة للسلطات و لم يكن في موضع الترحيب, إن اعتبرناه ترحيلاً فكل مثال عندها عن الهجرة يجب اعتباره تهجيراً قسرياً و إبادة جماعية, و سنطلق عندها كلمة المُهجرين و المطرودين (لم أعد أعرف إن كانت هناك مثل هذه الكلمة) على اليهود الذين انطلقوا في السبعينات و بداية الثمانينات إلى إسرائيل كما انطلق الشراكسة إلى تركيا, و لم يسمح لهم الاتحاد السوفيتي بالخروج وقتها,تعالوا لنعترف بأن الهجرة الجماعية لليهود إلى إسرائيل هي إبادة جماعية رهيبة.

إن لم نأخذ مأساة عام 1864 و التي كانت نتيجة التحريض التركي و المبعوثين الشراكسة و الأخطاء الإدارية اللوجيستية للحكومتين الروسية و التركية, لجرت إعادة توطين الشراكسة بظروف أقرب إلى المثالية... انظروا, في شباط من عام 1944 و أثناء عملية الإبادة الجماعية الغير معترف بها "عملية العدس" تم خلال أربعة أيام تحميل و نقل 334 ألف من الشيشان و الأنغوش و القاراشاي في العربات إلى خارج حدود القفقاس, و خلال 13 يوماً – 494 ألفاً- حيث

اقتحم الجنود المنازل وأيقظوا الناس وأعطوهم مهلة 40 دقيقة كي يجهزوا أنفسهم ثم اقتيدوا بالقوة إلى الساحات و إلى المحطة, و كُدسوا في عربات الماشية و أُنزلوا في قيرغيزيا.

مرة أخرى : 4 أيام, 334 ألف شخص, 4 أيام , 334 ألف شخص..لم يعترف بها كإبادة جماعية.. على الأقل أن تهجير الشراكسة قد استمر 5 سنوات 5 ,سنوات ! و خلافاً عن الشيشان فقد عُرض خيار على الأديغة- الذهاب إلى حلفائهم الذين دعوهم بحرارة و وعدوهم بالمن من السماء أو إلى الكوبان حيث كانت تنتظرهم أراض أكبر و أكثر خصباً, لم يقتحم أحد منازلهم (باستثناء المرحلة الأولى من الحرب و التي حصلت فيها حوادث لإحراق القرى كي يُخرجوا الأديغة من أماكنهم) منحوهم الوقت و كان بإمكانهم بيع ممتلكاتهم, تشكلت لجان خاصة كان من مهامها " الخوض في جميع احتياجات المستوطنين" و مساعدتهم في بيع ممتلكاتهم التي لا يستطيعون نقلها معهم إلى السفن , و مراقبة مالكي السفن "كي لا يحشروهم و يكدسوهم في السفن", و منح أموال للعائلات التي لا تملك المال من أجل السفر بحدود 10 روبلات للعائلة, و حسب شهادة بيرجيه ففي عام 1864 فقط "وصلت التكاليف المترتبة لانتقال الجبليين إلى 289678 روبل و 17 كوبيك".

دعونا نتوقف مرة أخرى هنا و لننظر إلى هذه المسألة ليس من وجهة نظر وقتنا الحالي بل من وجهة نظر تلك الفترة و من وجهة نظر "الإبادة التي لا مثيل لها في التاريخ" ...انتهت الحرب القفقاسية التي امتدت مئة عام..الأديغة مهزومين و مكسورين و عاجزين, فقدوا السيطرة و الإدارة و لم يعودوا يملكون أي قدرة على الدفاع عن أنفسهم ,تجمعوا حشوداً على شاطئ البحر الأسود و كانوا هدفاً سهلاً ممتازاً لكل من يسعى لتدمير و إبادة الشعب الشركسي,ها هو الشعب بالجموع, تعال و دمره!

مالذي يفعله الألمان في مثل هذه الحالة؟ إنهم يذبحون اليهود...مالذي يفعله الأتراك في نفس هذا الوضع؟ - يقومون بذبح الأرمن..بوتو و الكروات و الكمبوديين و أولئك الهنود ذوي المعانات الطويلة يفعلون الشيء ذاته – عندما يلتقون مع المواطنين العزل يقومون بذبحهم على الفور.

مالذي يفعله " جلاد الشعب الأديغي" الكسندر الثاني ؟ إنه يدفع الأموال من أجل إعادة توطينه..289 ألف روبل لاستحقاقات الجبليين, 10 روبلات إعاشة للعائلة – هل هذا المبلغ قليل أم كثير؟ في ذلك الوقت كانت آلاسكا كلها تكلف الإمبراطورية 200 ألف روبل سنوياً..أما بشكل شخصي..مالذي كانت تشكله ال 10 روبلات عام 1864؟ .. إن "المجرم السياسي" الشيخ الشيشاني المنفي كونتا حجي "الذي هيج الشعب بوقاحته" كان يحصل في مدينة أوستوجنا في منطقة فولوغودسكوي على المال "من أجل التغذية" بمعدل 6 كوبيك يومياً, لقد كان ذلك قليلاً و لكن مع ذلك كان أكثر بمرتين فيما كان يملكه عندما كان يعيش في تامبوف حيث كان دخله اليومي و لمدة ثلاثة أشهر ثلاثة كوبيكات.. و بشكل عام كان دخله الشهري كمنفي سياسي هو 1 روبل و 80 كوبيك, لم يكن ذلك كثيراً و لكن المنفيين عاشوا لسنوات على هذا المبلغ دون أن يعملوا ,بشكل سيء أو فقير و لكنهم قاتوا أسرهم و كانوا ينجبون الأطفال.

إن 10 روبلات في ذلك الوقت كانت تشتري في سيبيريا 2 بودا (32كغ) من الكافيار المنتقى و

12 روبل في فلاديفوستوك كان ثمن البقرة- عماد الاقتصاد الفلاحي, و كان ثمنها يعتبر مرتفعاً جداً, وكانت الحكومة ترسل الموفدين من أجل تنظيم عمليات شراء الماشية من الصين من أجل خفض أسعارها في الشرق الأقصى الروسي. كان متوسط الضرائب التي على الفلاح دفعها إلى الخزينة هو 3 روبلات سنوياً..كان الملاحون الأتراك يأخذون 1 روبل و 75 كوبيك لنقل الشخص الواحد إلى تركيا, ارتفعت الأسعار و كان هذا يعتبر غالياً و لكن لم يكن أمامهم سوى الدفع, و اعذروني لأنني أسوق هذا المثال و لكن كان سعر الطفل ما بين 11-12عاماً في اسطنبول من 30- 40 روبلاً, و سعر أجمل فتاة 60- 80 روبل.

ماذا عن إبادة الأديغة و اعذروني مرة أخرى على التعبير – بدون مقابل ؟ بينما تدفع الحكومة القيصرية الكثير من الأموال لنقل الأديغة إلى تركيا, و يطلبون أن نسمي ذلك إبادة جماعية- "عملاً بهدف الإبادة الكلية أو الجزئية لقومية أو عرق أو إثنية أو مجموعة دينية"؟ لا أعتقد أن شخصاً متمكناً من الواقع سيصدق ذلك.

المقالة الخامسة والأخيرة:من المذنب و ما العمل ؟

الدروس التطبيقية حول نشوء الإبادة الجماعية

نعم أيها الأصدقاء ,هذا ليس خطأ و قد قرأتم العنوان بشكل صحيح, لدينا الآن فرصة فريدة للنظر في: كيف و بأية وسائل تنشأ مسألة "الإبادة الجماعية الرهيبة" نستطيع بأم العين أن نرى آلية نشوء الخرافات, لا تقلقوا فإن ذلك ليس بالأمر الصعب ! أتذكرون كيف كان يُحكى في الثلاثينيات :" العالِم السوفيتي- أنه ليس مجرد كاتب معيشي للماضي, بل عليه أن يخلق التاريخ !" كيف ينشأ التاريخ إذن؟

على الموقع الالكتروني"الإبادة الشركسية " http://circassiangenocide.org/

تُقدم الاستنتاجات و توصيات المؤتمر العلمي لعموم الاتحاد الذي عقد في مدينة نالتشيك بمبادرة و مشاركة لمعهد التاريخ التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية في الاتحاد السوفيتي و ذلك في 24 تشرين الأول عام 1990. و من بين الأشياء التي تم طرحها في المؤتمر تم ذكر الإبادة الجماعية" في سياسة القيصرية الروسية, المقرونة بالقهر و الإبادة الجماعية" .. و في الخطة العملية الآن و بعد مرور 4 سنوات على تقديم المنظمات الأديغية طلباً إلى مجلس الدوما لروسيا الفيدرالية للاعتراف بالإبادة الجماعية , و ثلاثة سنوات على تقديم الطلب للبرلمان الأوروبي, و ليس هناك أي اعتراف و من غير المتوقع أن يكون, فإن هذا القرار و هذه الحجة يتم التطرق إليها كثيراً و يشار إليها على النحو التالي "بشكل عام لماذا الاعتراف؟ لقد حصل الاعتراف بالنسبة لنا منذ زمن طويل – كان هناك مؤتمر لعموم الاتحاد و كان تحت رعاية معهد التاريخ التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية في الاتحاد السوفيتي, و تم الاعتراف فيها بالإبادة الجماعية سواء أحببنا ذلك أم لا فقد كان

الاعتراف بالإبادة الجماعية موقف الدولة و بشكل تاريخي رسمي في الزمن السوفيتي, تحلوا بالشجاعة الآن و احترموا وجهة نظر و آراء علماء ذلك الزمن النزيهين و الغير متحيزين.

موقف قوي ! معهد التاريخ التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية في الاتحاد السوفيتي- إنها علامة مميزة ! إنها ليست بهذه البساطة- إنهم علماء بأسماء مشهورة و هم من حدد تطور العلوم السياسية لكل الاتحاد السوفيتي, و في حال قد اعترفوا حقاً , فيجب أن يكون هناك شيء ما بكل تأكيد!

لا أخفيكم بأن ذلك قد أزعجني جداً, و تولد لدي شعور بأنني تغاضيت عن شيء ما و بأن هناك شيء معيب في موقفي, لم أكن أفهم أين و لذلك قمت بالبحث, و يجدر القول بأنني لم أعثر على أية أسماء تحت القرار الذي يتكلمون عنه, و هذا غريب نوعاً ما حيث هناك قواعد عامة لتقديم مثل هذه الوثائق و أقلقني عدم وضع أسماء العلماء الذين وقعوا عليها , و لكن في حقيقة الأمر دعونا ننظر إلى "الرسالة المعروفة لثلاثمائة عالم الموجهة إلى الحكومة السوفيتية حول الدفاع عن الإبادة الجماعية" في عام 1955 و بدون أسماء هؤلاء العلماء,هذا سخف !هنالك قرار , و لا يوجد أسماء...إنه شيء غير مفهوم.

بحثت طويلاً عن مواد هذا المؤتمر, في الإنترنت و في المصادر التاريخية و في معهد التاريخ الروسي الذي يُعد وريث معهد التاريخ السوفيتي, استفسرت من العاملين فيه و جلست في مكتبته و نبشت في جميع المواد المخزنة هناك عن المؤتمرات, و تطلعت في بطاقات العلماء الذين كان من الممكن أن يشاركوا في مثل هذا المؤتمر,و ما الذي تتوقعونه؟ لم أجد شيئاً ! و في نهاية المطاف توسلت إلي عاملة المكتبة- حسناً كفاك تعذيباً لنا, لم يشارك معهدنا في المؤتمر!

و بعد مجموعة من التدابير الصعبة استطعت أن أتوصل إلى أن ذلك المؤتمر قد قام به معهد الأبحاث الإنسانية في جمهورية كاباردينا بلقاريا, و أن القرار على الأرجح قد كتبه مدير المعهد ر. خ. غوغوف أو بمشاركته و إشرافه المباشرين, و بطبيعة الحال لم يكن هناك رائحة لأكاديمية العلوم السوفيتية و ليس للقرار أي علاقة بالموقف الرسمي السوفيتي.

و الآن دعونا نوضح آلية المسألة و لنتابع حركة اليدين:

1- يمكننا القول بأن المؤتمر قد أجراه معهد الدراسات الإنسانية في كاباردينا بلقاريا, و اجتمع المؤرخون الأديغة فيما بينهم, ناقشوا و وقعوا , و لكن ذلك سيكون تكراراً ل "كيف يمكن عدم التصديق بالإبادة الجماعية للأديغة !" و بحسبان تحيز و اهتمام العلماء الشراكسة لهذه المسألة – فإن الثقة في مثل هذا القرار ستكون– صفراً!
2- يمكن القول بأن ذلك كان مؤتمراً لعموم الاتحاد و بأن من قام بتنظيمه هو معهد التاريخ السوفيتي الذي يحظى باحترام الجميع- وعندها فالمسألة مختلفة كلياً ! حيث وقع على القرار كما هو متوقع من التسمية – علماء التاريخ السوفيت الذين يحظون بسمعة حسنة وعالية جداً , و ربما سمعة عالمية ! و الأهم من ذلك أنهم من الناس المنفتحة التي لا تكترث بالاعتراف بالإبادة الجماعية, و لهذا تأثير مختلف جداً!

مالذي يفعلونه ؟ لا أعرف من فعل ذلك , و لكن من فعل ذلك فإنه يقوم بحذف اسم معهد الأبحاث الإنسانية في كاباردينا بلقاريا و يضع عوضاً عنه اسم معهد التاريخ التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية, و لكي لا يبدو واضحاً بأن جميع الموقعين هم من الشراكسة- يقومون بحذف أسماء الموقعين و يبدؤون على الفور بالتنهد والأنين حول الموقف الرسمي للتاريخ السوفيتي و يزعمون أنه يعترف بالإبادة الجماعية.. مرحباً بكم في الخرافات!

عموماً و بسبب تواضعي أسمي هذا الشيء مجرد خرافة, و لكن في واقع الأمر فإن تسميته الصحيحة ليست كذلك, التسمية الحقيقية هي :الكذب, و الكذب, الكذب المتعمد و التزوير الواعي للمواد, و التلاعب و التحكم بالرأي العام, و خداع شعبهم و محاولة بناء منصة سياسية خطيرة على هذا الأمر, إن هذه لوحة وهمية معلّقة على جدار سوتبيس للمزادات ! أود كثيراً أن يدرك الأديغة أنفسهم بأية مواد و بأية كيفية يتم حشوهم.

إن لم تكن إبادة جماعية, ما هي إذا ؟

حسناً, إن لم تكن جماعية فماذا كانت؟ حرب لا تشبه اطلاقاً الأعمال الحربية التي اعتدنا عليها الآن, لم تكن تخضع للقوانين الحربية الحديثة و للأدلة العملية, لقد كانت حرباً بجسيمات أصغر لا تقارن بالعمليات العميقة العالمية, الاستعمار والتقسيم العالمي للعالم- إنها تسمية هذه الحرب ! فخلال تلك الحرب قامت القوى العظمى في تلك الفترة بتقسيم العالم بأسره بشكل نهائي, و لم يكن القفقاس الغربي سوى نقطة صغيرة في خارطة إعادة التوزيع الهائلة لذلك العصر.

كانت حرباً لم تكن القوى العظمى أغلب الأحيان بحاجة إلى محاربة بعضها البعض من أجل تقسيم العالم- كانوا يغيرون موازين القوى بشكل بطيء و لكن لا رجعة فيه, حيث يسيطرون على مجالات النفوذ و الهيمنة و إخضاع الشعوب التي توافق الدخول في مداراتها و تدمير و الضغط على تلك التي تعارض ذلك, في هذه الحرب يتشكل مبدأ نهائي صارم لروسيا في علاقاتها مع الشعوب التي تُخضعها و تعمل عليه لاحقاً و هو"– خضعت لنا- يعني على قيد الحياة" ..وهذا المبدأ بالنسبة إلى شعوب شمال القفقاس يعمل بدقة شديدة دون أدنى استثناء.

وفقاً لمعايير التشريعات الحديثة و معاييرنا الحالية حول الأخلاق, فإن روسيا تُعد هي المعتدية و المتدخلة في تلك الحرب, و لطُردت من منظمة الأمم المتحدة على هذه الأعمال في وقتنا المعاصر, أما وفقاً لقوانين ذلك العصر فإن تصرفات روسيا كانت عادية و متوقعة من قِبل الجميع و ربما كانت الأكثر إنسانية من كل التصرفات التي قامت بها القوى العظمى في تلك الحقبة, لقد كانت طبيعية جداً في تلك الفترة حتى أنه لو تصرفت روسيا خلافاً لما قامت به لما فهم تصرفها أحد ! لقد كانت طبيعية حينها كما هو تنظيف الأسنان كل صباح في وقتنا الحالي, و بالنسبة لاحتلال الأراضي في ذلك الوقت فلم يكن الناس يسألون "بأي حق احتلوها ؟" بل كانوا أكثر اهتماماً بسؤال " متى؟ " و من الذي احتلها أولاً؟"

في معركتها مع أحد خصومها الاستراتيجيين و التي امتدت طويلاً (تركيا), ذهبت روسيا إلى

القفقاس الغربي, و كانت الشعوب الأديغية التي تقطن هناك في ذلك الوقت تمر بفترات داخلية صعبة مرتبطة بإضعاف و انهيار النظام التركي- و شبه جزيرة القرم, و المحمية التركية التي انخرطوا بها بدقة و التي كانوا يعيشون معها بشكل مريح نسبياً و لعدة قرون قبل وصول روسيا, كما أن الشعوب الأديغية كانت بمستويات مختلفة من التنمية و لم تكن كياناً واحداً بل بالعكس فقد كانوا يتنافسون و يتناحرون فيما بينهم, و حتى داخل أنفسهم, و قد فهم الأديغة و استوعبوا ظهور قوة عظمى جديدة في المنطقة بأشكال مختلفة فيما بينهم, فقد اختارها قسم من الجبليين على الفور لتكون موجهاً لهم في السياسة الخارجية, بينما احتفظ قسم آخر منهم على الشكل التقليدي في ذلك الوقت و هو التركيز و التحيز للجانب التركي القوي, و قسم ثالث اتخذ طوال الحرب كلها تقريباً موقف المحايد.

لم تكن هذه الحرب تشبه الصورة المعتادة للحرب في أعمالها الحربية المتواصلة, كانت أقرب إلى احتلال بطيء للأراضي ترافقها فترات نشطة أحياناً من القتال, و وقف لإطلاق النار و هدوء شبه كامل يستمر لسنوات و عقود, أثناء الحرب لا تضع روسيا هدفاً لها بتدمير كل الأديغة, إنها تقسمهم بشكل دقيق إلى "مسالمين- و غير مسالمين" و بنفس الدرجة من القسوة التي تتعامل بها مع الغير مسالمين, فإنها تتعامل مع المسالمين الموالين لها بشكل ملائم و توافقي .

بانتصار روسيا تقوم بمعاقبة 4 شعوب أديغية و التي أظهرت لها المقاومة الأكثر عناداً و التي تعيش في المناطق الجغرافية التي تشكل من وجهة النظر الروسية الخطورة الأكبر على روسيا , تعاقبهم بالترحيل القسري, و تمنحهم خيار إعادة التوطين إما في السهوب مع الحصول على كامل حقوق المواطنة أو إلى أراضي الحليف القديم للشراكسة – إلى تركيا, و بوقوعهم تحت تأثير المبعوثين الأتراك و طبقتهم الأرستقراطية التي تسعى وراء مصالحها الشخصية تذهب هذه الشعوب بشكل كامل تقريباً إلى تركيا ,و يذهب خلفهم و لنفس الأسباب قسم كبير من الشراكسة الذين لم يكن ينطبق عليهم مبدأ التهجير القسري.

و يحصل المتبقون على حقوق متساوية و ظروف معيشية متساوية مع جميع الرعايا التابعين للإمبراطورية الروسية.

نُنهي مع التاريخ وننتقل الآن إلى وقتنا المعاصر.

التأثير على الوقت المعاصر:

هل انتهينا, لا لم ننتهي, لا يمكن التنحي عن التاريخ ببساطة, و لا يمكن لمثل هذا التاريخ أن يمر دون أن يترك أثراً, في وقت ما عبَر الفيلسوف الجورجي الذي لا أحبه أبداً ببراعة عن هذا الوضع قائلاً : "إن الماضي ليس آمناً كما يبدو لنا, لأنه و في كثير من الأحيان قد يكون محشواً و بشكل كامل بمستقبل لا يمكن هضمه والتعايش معه".

بغض النظر عما سبق و ذكرناه حول أسئلة من و إلى أين و كيف ذهبوا, من الذي يجب أن ينتصر, من و كيف ينتمي كل منهم, بغض النظر عن كل الأمور الأخرى فإننا يجب أن نأخذ بعين

الاعتبار حقيقة أن حرب القفقاس أصبحت أكبر كارثة للشعب الأديغي خلال تاريخ وجوده, أكبر كارثة ! و بنتيجتها تحول الشراكسة من قومية مهيمنة, من جماعة عرقية واحدة عملياً تشغل السفوح الجبلية لمنطقة غرب القفقاس إلى وحدات إدارية مبعثرة ممزقة و شعوب عديدة و لا يوجد منهم حالياً على موطنهم الأصلي سوى 20 % بينما تشتت 80 % منهم في جميع أنحاء العالم.

أدت حرب القفقاس إلى أن يصبح الأديغة أقلية في كل مكان, يعيشون ضمن محيط من الناس أكثر قوة وهيمنة منهم و أكثر تأثيراً على كل ما يجري من حولهم, بينما كانوا في وقت ليس بالبعيد قومية قوية تحدد مسار الأحداث حتى خارج أراضيها, بينما الشراكسة الآن مضطرون لبذل جهود كبيرة كي لا يتم استيعابهم و هضمهم و كي لا يتحولوا إلى روس أو أتراك أو عرب و كي يحافظوا على هويتهم الوطنية و لغتهم و بقايا خابزتهم العظيمة و التي تحولت حالياً إلى مدونة أخلاقية معنوية محددة- الأديغاغه.

لم ينجو الشراكسة في طريق تمسكهم بهويتهم الشركسية من خسائر كبيرة- كمصير الوبيخ المحزن و لكنه الطبيعي, و غيرهم من الشعوب الأديغية التي انحلت تماماً في شعوب أديغية أخرى أو انصهرت, و لكن من الخطأ التفكير بأن الاستيعاب هو مجرد مسألة تاريخية فقط, لا فإن مثل هذه العمليات تحدث الآن أيضاً في تركيا و سوريا و الأردن و إسرائيل و روسيا, و بالرغم من حقيقة أن روسيا هي الدولة الوحيدة التي منحت الأديغة وحداتها القومية الإدارية و التي يملك فيها الشعب الشركسي حقوقاً كبيرة و إمكانيات أكبر من أي مكان آخر و لكن هيمنة الوسط الروسي و العلوم و الثقافة الروسية, و الأعمال التجارية و البيئة الإدارية الروسية ستؤدي لا محالة (مثلاً) إلى عصر و إخراج اللغة الأديغية من الحياة اليومية و العملية و إلى تذليل الخلافات الإثنية الثقافية بين الشراكسة و القوميات الأخرى و إلى التآكل التدريجي للعرق الأديغي.

مما لا شك فيه أن هذا أمر سيئ, و لكن الأسوأ من ذلك هو, لا أريد أن أكون نبياً و لكن أصبح من الواضح بالفعل أنه في حال استمرار مثل هذا الاتجاه (في المستوى الحالي للعولمة لن يستمر هذا الاتجاه فحسب و لكنه سينمو و يتوطد كل عام) فإن احتمال حفاظ الشراكسة على هويتهم الوطنية على المدى المتوسط أو الطويل يقع ضمن إطار شك كبير, لا داعي لأن تكون محللاً عظيماً كي تفهم بأنه بعد 3- 4 أجيال فإن الأقلية الشركسية قد تنحل و تنصهر ضمن القوميات المهيمنة سواء في الجنوب الروسي أو في تركيا أو في الدول العربية.

إنني أفهم بأنني قد أتعرض للنقد على هذا التأكيد و قد أوصم بالعار, و ستأتي العناوين حول الروح العظيمة و التاريخ الطويل و يتم تعليقها و تزينها بشكل جميل, و لكن المشكلة ليست في الروح بل في حقيقة أن العالم المعاصر الذي يتجه مسرعاً نحو العولمة حيث بطاقات الائتمان و الانترنت و"يد الكريملين" و" لجنة واشنطن الإقليمية" لها دور كبير في تحديد وتيرة الحياة "من موسكو و حتى الهوامش" , و الأديغة مع إبقائهم على وضعهم الراهن فإنهم و بشكل حتمي سيكررون مصير الوبيخ. يمكن ملاحظة ذلك بوضوح شديد كما كان واضحاً سبب عدم تمكن الوبيخ من الحفاظ على أنفسهم. و إن عدم إدراك هذا الأمر و غض النظر عنه يعني أنك تكسر رأسك بقشَارة الوطنية القومية و تكرر خطأ الوبيخ الذين لم يدركوا ما كتبه لوليه عنهم قبل 30 عاماً من هجرتهم بأن اللغة الوبيخية محكوم عليها بالانقراض.

لقد أجاب المجتمع الأديغي على تحديات العصر الحديث, إن لم يكن بالفكر القومي فعلى الأقل بخطة قومية تتكون من ثلاثة نقاط:

1- تقف مسألة العودة إلى الوطن في المقام الأول- عودة عدة ملايين من أحفاد أؤلئك الشراكسة الذين تركوا أرضهم إلى القفقاس و اندماجهم في المجتمع الروسي الأديغي – و هذا سيؤدي وفقاً لمناصري الفكرة الى أن يستعيد الشراكسة هيمنتهم العرقية السابقة في شمال القفقاس, و بأن يصبحوا مجدداً القومية و الدولة الأقوى على أراضيهم التاريخية.

2 - النقطة الثانية هي اتحاد الجمهوريات الأديغية الثلاثة ضمن فيدرالية واحدة أو كما يسميها البعض ضمن" تشيركيسيا الكبرى" التي ستجمع الأراضي العرقية الممزقة حالياً و تُنشىء منطقة إدارية شركسية موحدة في القفقاس, و أكثر من كل ذلك تحلق مسألة الاعتراف بالإبادة مثل شبح والد هاملت.

3- الإجابة الثالثة ! لا – إنها ليست مجرد إجابة – إنها " 10 ضربات ستالينية " و التي هي برأي مؤرخي منتصف القرن العشرين قد ضمنت للجيش السوفياتي تحولاً كاملاً في مجريات الحرب عام 1944, إنها في عبور سوفوروف لجبال الألب و هي خطة غويلرو اللينينية- إنها خطة عمل عكست الوضع الخطر ب 180 درجة بتصوير الشييء المحكوم عليه بالموت بعكس ذلك تماماً و بنسخة ناجحة.

و في هذه الحالة علينا أن نفهم بوضوح و دقة بأن هذه النقاط الثلاثة تختلف اختلافاً جذرياً في جوهرها , ففي حال كانت النقطة الأولى و الثانية بغايات و أهداف و هذا ما ينبغي التوصل إليه في نهاية المطاف ,فإن النقطة الثالثة – الإبادة الجماعية- ليست سوى أداة لتحقيق هذه الأهداف, و إن الاعتراف بالإبادة الجماعية ضمن هذه النقاط الثلاثية يجب أن يكون قوة حركية دافعة و عاملاً مسبباً لدفع هذه القضية, دفعها من حالة الجمود و التي في نهاية المطاف ستضمن تنفيذ النقطتين الأوليتين.

دعونا نناقش الحالة, إنها سهلة و معقدة في آن واحد ,فضمن الفقرتين الأوليتين و اللتان تبدوان موجزتان و واضحتان تكمن أشياء كثيرة جداً, ففي إطار إعادة المنحدرين من أصول شركسية تُفهم هجرة جماعية لعدة مئات الألوف أو حتى عدة ملايين من أشخاص من جنسية واحدة و الاتفاق على توطينهم في منطقة تضم جنسيات كثيرة مختلفة, في منطقة قابلة للانفجار و تُقدم لها الإعانات المالية (بمعنى منطقة عاطلة عن العمل), مع كل ما يترتب عليها من نتائج, يجب أن تكون الهجرة الجماعية منظمة وأن تقوم بها روسيا نفسها وعلى نفقة الدولة, و لكن هذه الخطوة لن تكون لمصلحة الدولة بشكل عام بل لمصلحة قومية واحدة فقط تعيش في الدولة انطلاقاً من

وجهات النظر السائدة ضمن أوساط المنظمات الأديغية العرقي, و من التجارب العملية نقول- أنه بدون حساب أدنى اعتبار لمصالح جميع القوميات الأخرى و علاوة على ذلك بدون حتى مجرد مناقشة أولية لهذه المسألة معهم, و عند ذلك يجب أن ندرك بوضوح بأن مثل هذه الهجرة ستحدث تغييراً جذرياً في مجمل الوضع في شمال القفقاس و ستؤدي إلى تغييرات رئيسية ثورية في مجمل الوضع في هذه المنطقة... إن المطلب الأول الذي لا مفر منه الذي سينمو بعد العودة الجماعية هو توحيد الجمهوريات الأديغية الثلاثة في دولة واحدة, و من المحتمل جداً بأن يؤثر هذا المطلب على أراضي إقليمين على الأقل من الأقاليم الفيدرالية المجاورة- منطقة كراسنودار و منطقة ستافروبل و اللتان تقعان جزئياً على الأراضي التاريخية للشراكسة..و من المستحيل مجرد التصور الآن التغييرات الجذرية التي ستحصل جراء ذلك و التحولات و الاضطرابات الاجتماعية – من المستحيل تخيلها, و لكن كون أنها ستكون هامة جداً – هو أمر لا يدعو للشك.

بالتأكيد فإن تحقيق كل ذلك على أساس طوعي صعب جداً, إننا لا نملك أمثلة مشابهة بحيث تقوم دولة بشكل طوعي و على نفقتها الخاصة و في إطار السياسة العامة المعترف بها أن تراعي مصالح قومية واحدة بشكل استثنائي و ذلك على حساب جميع القوميات العرقية الأخرى, و أن تُحدث تغييرات جذرية في وضع إحدى المناطق الأكثر انفجاراً و الأكثر إشكالية و الأكثر تخلفاً اقتصادياً وسياسياً و عسكرياً, لا يوجد مثل هذا المثال في العالم, ببساطة لا يوجد , بالطبع في حال لم نأخذ زيمبابوي أو ما شابهها كمثال. من وجهة النظر الحكومية الرسمية هذا غير منطقي و مخالف للجوهر و الأسس التي يقوم عليها البلد المتعدد القوميات و التي يكون الحد الأقصى فيها هو مراعاة مصالح جميع القوميات التي تعيش فيها دون تفضيل أي منها, و لكن لتحقيق مصالح مجموعة قومية واحدة فقط و في غضون فترة قصيرة و على الأرجح بشرط عدم مقاومة من المجموعات العرقية الأخرى, عندها يصبح لهذا المفهوم وجوداً, و من ثم يتم طرح السؤال- كيف يمكن تحقيق ذلك؟

الإبادة الجماعية ! هذا هو الجواب الذي يرد في المقترحات الثلاثة "10 ضربات ستالينية" ! هذه هي الصيغة السحرية للنجاح!

يجب إجبار روسيا ! يجب على روسيا إما الاعتراف طوعياً بذنبها في "واحدة من أفظع الجرائم التي لم يسبق لها مثيل في التاريخ العالمي"- وهي إبادة الأديغة في حرب القفقاس, و إما و بمعزل عن كل التاريخ العالمي و بمعزل عن السياسة و بمعزل عن حقيقة ما حدث في ذلك الوقت- يجب على البرلمان الأوروبي الاعتراف بذنب روسيا – أي على تلك البلدان نفسها و التي كانت في ذات الوقت و كجزء من سياساتها الاستعمارية أشد و أقسى بكثير من روسيا ! على هذه الدول أن تعترف بإبادة الأديغة!

و هنا تأتي رواية يعبر عنها بإصرار ممثلو الإثنية الشركسية الوطنيون بشكل أكثر ليبرالية قائلين:" حسناً اعترفوا, حان لكم أن تعترفوا !, اعترفوا, مالذي سيكلفكم ذلك؟ نحن لا نطالب بأكثر من ذلك, فقط مجرد الاعتراف ! و سنعيش بعد ذلك بهدوء ,بالنسبة لكم الموضوع لا يهم و لا فرق

عندكم بينما سنسعد نحن بذلك", خطأ فادح ! خطأ فادح للغاية ! لأن هذه العملية لا تنتهي بالاعتراف بالإبادة الجماعية, بل إنها تبدأ بها !

من الصعب جداً أن أتصور كيف يمكن أن يحدث ذلك و مالذي يجب أن يحدث من أجل تحقيق ذلك, و لكن إن استخلصنا حرفياً أو افترضنا بشكل بحت (كما يقولون :لنقاء التجربة) فلنتصور بأنه قد تم الاعتراف بالإبادة الجماعية , فأي تغيرات يمكن أن تحدث في القفقاس؟ و ليس في القفقاس فقط, بل قد تحدث طوفانات مماثلة في حجمها كرد روسي مثلاً على عدوان جورجيا على أوسيتيا الجنوبية, و ربما تتفوق عليها حجماً!

أولاً :ستصبح روسيا على الفور موضوعاً لانتقادات لاذعة من قِبل منظمات كثيرة, سواء كانت منظمات كبيرة و محترمة أو منظمات صغيرة ليست معروفة, و الذين و على أساس الاعتراف بالإبادة الجماعية سيطالبون موسكو باستعادة الوضع الراهن أو كما يحب أن يعبر عن ذلك الرئيس الروسي ميدفيديف في لقاءاته مع العمال و المزارعين, سيطالبون "بإعادة الوضع إلى حاله " أنتي بيلوم" أي إلى الوضع الذي كان قائماً قبل الحرب القفقاسية,و هذا يعني من الناحية الأخلاقية أن روسيا ستكون مضطرة لتشكيل كيان شركسي على حدود تشيركيسيا التاريخية و إعادة الملايين من أحفاد الأديغة الذين رحلوا إلى تركيا و دفع التعويضات لهم و توظيفهم و تأمين المسكن لهم..الخ..الخ..الخ.. و بالتالي و هذه ليست حقيقة أن روسيا ستقوم بذلك – و لكن تركيا لن تُعيد الأرمن بعد اعتراف فرنسا مثلاً بإبادتهم ! ولا لكن المطالبة بذلك و ممارسة الضغط على روسيا سيكون بكل الأحوال, و مع ذلك فلن يقوم أحد سوى الأديغة بممارسة الضغط على روسيا متمنين عودة أبناء جلدتهم فعلياً – أما البقية فلن يكونوا مبالين على الإطلاق, بالنسبة للبقية فما يهمهم هو التقاط شيء يدين روسيا و هذه ستكون طريقة مميزة لتعزيز مواقفهم الشخصية في صراعهم التنافسي مع موسكو, و مقايضتها في بنود لاعلاقة لها لا من قريب أو بعيد مع القفقاس و الحصول على تنازلات ما و هكذا, لا يكون الأمر سوى بهذا الشكل, هذه هي الحياة ! و هذا يعني بأنهم سيستخدمون الأديغة مجدداً خدمة لمصالحهم.. و سيعيد الوضع الذي كان عليه قبل 150 عاماً ذاته, عندما سيلجأ الأديغة لطلب المساعدة و سيكونون هم الخاسرين على المدى المتوسط و البعيد.

هذه هي اللوحة التي أمامنا, حتى أنني لا أريد مجرد التفكير فيما سيحدث عندما تنظر العشرات من القوميات الأخرى إلى الشركس و تتذكر المظالم القديمة و تبدأ بالمطالبة بالاعتراف بالإبادة الجماعية
الواحدة تلو الأخرى.

في هذه الحالة سيكون من الخطأ الاعتقاد بوجود منظمة سرية مثلاً على غرار المحفل الماسوني أو بعض الحكومات الأسطورية في المنفى التي تدير الوضع برمته من مكان ما تحت الأرض, لا شيء من هذا القبيل, كما لا يُخفي دعم الشراكسة البسطاء لمسألة الإبادة الجماعية أغراضاً خفية أو مغرضة و لكنها أغراض صادقة تماماً – فقد ألهموهم بعمق المأساة التي تعرض لها شعبهم, و بصحة المغلوطات المشاعة حول أسباب وطبيعة الحرب القفقاسية!

المشكلة برمتها هي في تحويل مسألة الاعتراف بالإبادة الجماعية في القفقاس إلى شكل أعمق كثيراً من شكل "10 ضربات ستالينية", إنها تتجذر عميقاً في الماضي و من هناك" تُشكل قواعد" الحاضر. لا يمكن لمسألة الإبادة الجماعية ألا تُطرح, إن هذا منطقي تماماً و مبرر, و يجب علينا و من الضروري أن نمر عبره, و الأمر هنا لا يتعلق فقط فيما قلناه سابقاً إن كانت هناك عملية إبادة جماعية بالمطلق أم لا, و من كان على حق في الحرب القفقاسية, و من الذي تم ترحيله, و من الذي هاجر من تلقاء نفسه, و بغض النظر عن الأسباب الأخرى مجتمعة فإنه لدى الشعب الأديغي كما كتبنا سابقاً الكثير من المشاكل و التي تحتاج الى حلول.

الحقيقة أنه و خلال ال 160 سنة الماضية لم يكن المجتمع الأديغي يملك إمكانية مناقشة الوضع الذي نشأ نتيجة الحرب القفقاسية بصراحة و أمانة و بهدوء و من وجهة نظر الشعب الأديغي ذاته. لم يكن بالإمكان القيام بذلك مباشرة بعد الحرب عندما كان الشراكسة مهزومين و مقسمين و مسحوقين و يعيشون في ظل الإمبراطورية الروسية حيث كانت هنالك نظرة محددة لدى الإمبراطورية حول الحرب و الانتصار فيها. و بطبيعة الحال لم يكن بالإمكان القيام بذلك أيضاً في ظل الإمبراطورية السوفياتية عندما كنا جميعاً نقوم و بشدة ببناء كيان جديد للعرقية – الشعب السوفياتي و الموضوع برمته (الذي يتكلم عن أجداد قسم من الشعب الذي قاتل ضد أجداد قسم آخر) كان من المحرمات العظيمة والمُسيسة وقتها. و لكن المشكلة لم تختف ! فقد عاش موضوع الكارثة الوطنية بين الشراكسة طوال هذا الوقت, و كانت تنتقل من الآباء إلى الأبناء و من الأجداد إلى الأحفاد, و نتيجة لذلك لم تكن هناك إمكانية لأن تحصل على دعاية عريضة و أن تناقش بهدوء و بشكل سلس و نزيه, و لذلك فقد اضطرت أن تذهب بشكل ملتو إلى الأعماق ,أن تلتف و تُضغط كنابض و دون رحمة مع الوقت. و لم يكن ممكناً للنابض أن يظل مضغوطاً!

إن هذا بالتحديد ما نلحظه الآن, النابض يستقيم ! إن هذا أمر منطقي و طبيعي و محق, إن موضوع الحرب القفقاسية يحظى بشعبية واسعة الآن في المجتمع الشركسي ,و لا يمكن أن يكون الأمر بغير هذا الشكل.. و لكن! أن يُتركوا لوحدهم مع الكلمات التي تنهال عليهم و التي تصم الآذان و مع حرية التعبير التي لا حدود لها, و الحق في تقديم أعنف الآراء حول هذه الحرب في ظل الغياب الكامل للمناقشة. كل ذلك أدى إلى أن يمتلىء المجتمع الأديغي بالكثير من الشائعات و القيل و القال والخرافات و جميع أنواع المعلومات التاريخية المزيفة و التي تؤدي بعدم مصداقيتها (و ليغفر لي الأديغة) إلى توقعات ساذجة في كثير من الأحيان من قِبل الناس العاديين, و تطغى على الحقيقة و يُنظر إليها بعاطفة محض قفقاسية!

النابض يستقيم ! ونشهد الآن كيف تتحول المعلومة الغير معقولة التي تُقدم من موقف و مفهوم أديغي وطني خاطىء إلى حقيقة و يتم اعتمادها و تصديقها دون أدنى شك أو مناقشة و محاسبة عقلية, و حتى دون أي تأكيد أو إثبات لها ,بينما يتم رفض البيانات التاريخية التي لا تتطابق مع ذلك " الموقف الوطني" بغض النظر عن مستوى و جدية أُسس هذه الحقائق و البيانات, و في الواقع فإن المجتمع الشركسي يكرر و كصورة مصغرة الوضع في الاتحاد السوفياتي أواخر الثمانينات و أوائل التسعينات من القرن العشرين , عندما ثمل الشعب السوفياتي من حرية الكلمة و

التعبير التي انسكبت عليه وتعلم خلال فترة زمنية أن يتعايش معها – قام بالتظاهرات, أصابه الاستياء ,ارتكب الأخطاء, دفع ثمن أخطائه, و رغم ذلك خرج إلى المسار الصحيح, هذا تماماً ما يحصل و ما يجب أن يحصل مع الأديغة ! كما قال هيغل : " إن التاريخ يُعلم أن لا يتعلم أحد من أخطاء الآخرين- كل يتعلم من أخطائه ". و لا نملك الحق أن نجبر الأديغة بالسير ضد هذه القاعدة, فكل شيء يجب أن يحدث في وقته المناسب.

وهناك سبب هام آخر لتطور مسألة الإبادة الجماعية الآن – و هو ارتفاع الوعي القومي. فرغم كل تاريخها و تناحرها الكامل و صراعها, و ربما بسبب هذه التناحر و الصراع يُظهر الأديغة الآن رغبة قوية لتوحيد مختلف فروع شعبهم, و هذا يُعبر عنه في الروح الوطنية و التي يمكن أن نشعر بها و نراها من خلال حديثنا مع الشراكسة و رغبتهم الشديدة على التواصل مع أبنائهم في المهجر, و من خلال رغبتهم بتحقيق تسمية ذاتية رسمية "الشركس" لجميع أفراد الشعب الأديغي, و من خلال محاولتهم توحيد الجمهوريات الثلاثة في شمال القفقاس في جمهورية واحدة, الخ .... إن القول بأن الشعب الشركسي موحد الآن فيه مبالغة كبيرة, و لكن على كل حال فإن رغبة الأديغة في تحقيق وحدة وطنية واضح جداً.

في الواقع فإن الشراكسة الآن يمرون بنفس تلك المرحلة التي مر بها الروس في القرنين 16-17 عندما قام الأمراء الروس بالسوط بجمع سكان الأراضي الروسية المشتتة والمتخاصمة ضمن كيان تاريخي واحد- الشعب الروسي.

و ها هم الأديغة الآن يسعون لخلق شيء من البجدوغ و الشابسوغ و الكاباردينيين, شيء لم يكن موجوداً أبداً في التاريخ -الشعب الشركسي الموحد- ستتساءلون: كيف يمكن ربط الإبادة الجماعية بهذه المسألة ؟ بشكل مباشر ! فليس هناك أفضل من طرح مسألة الإبادة الجماعية لتحقيق التقارب الوطني! إن هذا هو بالضبط سيناريو القصص حيث يتم اختراع الشيء في حال عدم وجوده. إن موضوع النضال المشترك و المصير المشترك و المآثر المشتركة و الخسائر و المعاناة المشتركة كانت على الدوام أداة قوية لحشد و رص الناس. لم يخترعوا شيئاً أفضل من هذا بعد ! و هذا الموضوع بالتحديد هو الفكرة الرئيسية التي نزح بموجبها اليهود إلى فلسطين, و هي بالتحديد الفكرة التي رصَت سابقاً و ترص حالياً الشتات الأرمني, و بفضلها التف الشعب الألماني و توحد حول هتلر عام 1930و القفقاس ليس استثناءاً في هذا الأمر!

بنكش الإصبع في القرحة التي لم تندمل بعد, يقوم الشراكسة بالاتجاه نحو المستقبل أكثر مما يتابعون و يناقشون مواضيع الماضي بحشو موضوع الإ بادة الجماعية في رؤوسهم, و يقوم أحفاد أؤلئك الذين حاربوا روسيا قبل 200 عاماً, مع أحفاد الذين حاربوا إلى جانب روسيا و الذين لم يحاربوا بالمرة و يقولون لأنفسهم " نحن من دم واحد ,كان لأسلافنا ماض مشترك, كان ماضياً رائعاً- و كان "عصراً ذهبياً" في حقيقة الأمر ! لقد جاء الروس و دمروا كل شيء, لقد دافع أجدادنا كتفاً إلى كتف عن الوطن و كان الروس قساة عليهم جميعاً دون أن يميزوا بين القوميات و الطبقات الاجتماعية و التوجهات السياسية, و هذا يعني أنه لا يجب أن نفصل فيما بيننا, إن سبب

كل مشاكلنا – هو ذاك الزمان, و إن كل مشاكل الأديغة يجب أن يقوم بحلها من قام بتدمير "العصر الذهبي , "أي الروس"

ألا يذكركم هذا بشيء ما؟ إنه تنويم مغناطيسي جماعي ! هلوسة جماعية, و بالتالي فإن فكرة الوحدة الوطنية للشعب فكرة جيدة و صحيحة, و هي بالفعل كذلك, فأي شخص يملك عقلاً لن يخطر بباله أن يتمنى للشعب الأديغي الكراهية العرقية و الشقاق و الانقسام؟ المشكلة تكمن في شيء آخر- و هي أنه لا يمكن إنشاء دولة على أساس زائف و على تاريخ لم يكن قائماً بهذا الشكل أبداً ! إن المستقبل ينتمي دوماً إلى من يعرف ماضيه بشكل جيد ,لا يمكن بناء مبنى كبير و مشرق على تربة هشة زلقة ! الذهاب إلى اللامكان- إنها نهاية تاريخية مسدودة ! و تعقيباً على ذلك فإن الأديغة يربطون مستقبل شعبهم و مستقبل أبنائهم و أحفادهم بنظرية تاريخية زائفة,و لكن لنترك التنويم المغناطيسي حالياً ,و لنتكلم عن الجوانب الأكثر عملية في موضوع الإبادة, الطبقة الأرستقراطية تدعو الأديغة للذهاب إلى تركيا, و تقول لهم بأن وضعهم هناك سيكون مريحاً و جيداً و سوف تُحل جميع مشاكلهم.

توقف ! عن ماذا نتكلم؟ ألم نتوه في الزمان؟ نعم لقد تُهنا,إن إحدى أهم الأسباب و أكثرها أساسية وضرورية في انتشار نظرية الإبادة الجماعية الواسع بين الأديغة- هو تحريكها من قِبل الطبقة الأرستقراطية المعاصرة, لم يتغير شيء ! و في حال قامت الطبقة الأرستقراطية في السابق بترحيل جميع الشراكسة إلى تركيا لأسبابهم و مصالحهم الخاصة فإنها حالياً تقوم بسحبهم إلى موضوع الإبادة الجماعية ! ولايمكن للمرء سوى أن يأمل في أن تكون عواقب هذه الدعوة أقل كارثية من سابقتها !

المثقفين القوميين- إنهم الطبقة الأرستقراطية في عصرنا- و قد أمسكوا على الفور و بدون رجعة بقاطرة نظرية الإبادة الجماعية الرهيبة, هم من يتغنى بها و يحرض عليها و يقوم بالدعاية لها,إن المؤرخين الأديغة المعاصرين والصحفيين والشخصيات العامة سحبوا من سجلات التاريخ بعضاً وجزءاً من الحقائق حول تلك الحرب, و قاموا بصقلها و تلميعها و نظفوا كل شيء لا لزوم له وكل ما لا يتطابق مع وجهة النظر "الرسمية "و قدَموها بشكل صناعي و بشكل لا يثير أدنى شك لدى أي قارىء لاخبرة له في التاريخ ولا يطلب إثباتات حول وجود الإبادة الجماعية! و حتى طريقة ونظام تقديم هذه المواد والمعلومات حول الحرب يتم بشكل فريد من نوعه و بعيد بشكل لا يُصدق عن الواقع, وهو مُعد من جسيمات مختلطة تتألف من أنصاف الحقائق والأكاذيب المُعدة بشكل فريد من نوعه والمُطهرة من كل الزوائد والأمور الغير مطابقة لهم, و هكذا فإن التركيز يكون أولاً على تقديم وتصوير الحياة الرائعة للأديغة (قبل) الحرب القفقاسية, و التي تُقدم بمثالية و تمجيد مطلقين وتغييب شبه كامل للعمليات المعقدة التي كانت في المجتمع الشركسي في ذلك الوقت, تغييب الإنقسامات والتجزئة, وعدم الاستعداد للتنافس ضمن مجتمع مفتوح, وعدم الاستعداد للحرب الحديثة,الخ.

ومن ثم يتم الانتقال المباشر إلى الحرب و التي يقدمها أساتذة الأديغة على اعتبارها نضالاً مستمراً لقرن من الزمان للشعب الموحد ضمن خط و نظام واحد و الذين حاربوا جميعاً من أجل الحرية,و من ثم وبدون الخوض في التفاصيل و بعزو أسباب الهزيمة إلى التفوق العددي للجيش الروسي

ينتقل المؤرخون الأديغة مباشرة إلى تصريحات الجنرالات الروس حول ضرورة طرد الشراكسة و يتلذذون بصورة المعاناة البشرية الهائلة التي شهدها الأديغة على شواطىء البحر الأسود, أي بقولهم:" لقد كان كل شيء يسير بشكل جيد- جاء الروس- حاربناهم كالأبطال – تعرضنا لمعاناة هائلة ", و بالنتيجة فبالنسبة للإنسان الأديغي البسيط الغير ضليع بالتاريخ من جهة ومن جهة ثانية الذي يرغب بسماع أنباء الأفعال الكبيرة لأجداده بالإضافة إلى المعاناة الحقيقية الهائلة, تتكون لدى هذا الإنسان صورة ثابتة حول حرب القفقاس, هذه الصورة التي لم تكن موجودة على أرض الواقع, و لكن أية سياسة هي الأصح؟ يبدأ الإنسان بتصديق هراءات من هذا القبيل و يشعر بالإهانة عندما تقول له بأن الأمور لم تكن على هذه الشاكلة.. هذه هي الطريقة التي يتم بها تأليف الأساطير!

هناك عدد غير قليل لأسباب مثل هذا السلوك لدى المثقفين القوميين. بطبيعة الحال لا يمكن إغفال حقيقة أن المثقفين لم يأتوا من المريخ وهم من لحم ودم, و من لحم الشعب ذاته, و بهذا المفهوم فإن تعاطف وتطلعات البروفسورات تتطابق كلياً مع تطلعات طالب الصف الثامن ,إن نابضه يستقيم كذلك كما يستقيم نابض غيره! .. إنهم كذلك الأمر يريدون تاريخاً كبيراً جميلاً و نظيفاً, و هم و بخلاف غيرهم يقومون باختلاق هذا التاريخ بأنفسهم ! يصبون تاريخهم و يكتبونه أمام أعيننا مباشرة ! و من ناحية أخرى لايوجد أدنى شك في أن بعض المثقفين الأديغة يدركون جيداً كل الصيغ التاريخية والسياسية الوهمية للروايات الحالية عن الحرب القفقاسية وعن وهم وجود إبادة جماعية في هذه الحرب, ولكن لا يمكن أن يكون الأمر بخلاف ذلك, لا يمكنهم التصرف سوى على هذه الشاكلة ! كل شيء مكشوف وموجود على السطح, وأي شخص يملك المعلومات الأساسية وليس بالضرورة أن تكون معلوماته عميقة وموسعة, يكفي أن يمتلك معلومات و وعي الأطفال عن الحرب كي يرى ذلك ! لا يمكنني مطلقاً التصديق بأن مؤرخاً جاداً لا يمكنه رؤية و معرفة أنه في حال القيام بأدنى شكل من التحقق والمقارنة مع الحقائق فإن كل هذه الأمور المنسوجة من قطع كثيرة التلون ستنهار إلى أجزاء مثل الملابس القديمة المتعفنة!

وهنا يأتي دور حقائق وعوامل مختلفة كلياً و ليس لها صلة بالعلم و بالحقائق التاريخية. أولاً : يجب أن نفهم بأنه وخلال ال10 -15 سنة الماضية فإن العلوم التاريخية الأديغية حول مسألة الإبادة الجماعية لا تُعد علوماً ذاتية, أي بما معناه أن ما تقوم به – ليس علماً بل سياسة , و سياسة انتهازية. و هذا ما يسمى تسوية دقيقة و مُحكمة للبيانات من أجل الحصول على اللوحة الضرورية لخدمة أمر و نظام سياسي معين- أمر الإبادة الجماعية. و لأجل هذه الأهداف فقد قامت النخبة القومية الحاكمة والنشطة إجتماعياً بعد البيريسترويكا عملياً بالتضييق على كل الأفكار المنافسة لها, و اقتلعت كل المعارضة وكل النقاشات التي قد تشكل أي تحد لوجهة النظر هذه, مالذي يتبقى القيام به؟- حيث أنها لا تحتمل أدنى شكل من الخلافات الجدية ! إن وجود هذه الفكرة ممكن فقط في حال غياب الأفكار التي تعارضها- ممكن في ظل الفراغ التاريخي, في المنطقة الميتة عندما يكون جميع المؤرخين الأديغة يسعون لغرس فكرة وحيدة فقط في الشعب – فكرة الإبادة الجماعية ! فكرة الذنب التاريخي لشعب واحد عن كل المصائب التي حلت بشعب آخر.

و من الطبيعي أن تتم تنحية جميع الأشخاص الذين يعتقدون خلاف ذلك والذين سمحوا لأنفسهم بإثارة الشك و لم يمض بركبهم و ذلك في غضون بضع سنوات من الإدارة المحكمة (و الغير

علمية).و حالياً و في الجمهوريات القفقاسية الثلاثة لا تجري نقاشات حول هذا الموضوع, لا يقوم حوار علمي حوله, و كل الأفكار الأخرى يتم التخلص منها و يتم تحويلها إلى أفكار بديلة فريدة و وحيدة من نوعها حول فكرة الإبادة الجماعية و تبدأ من المدرسة ! و منذ نعومة أظافرهم يتم دس الكتب للأطفال التي تتكلم عن روسيا كدولة إبادة جماعية, و عن الجنرالات الروس بأنهم – جزاري الشعب الأديغي.لقد جرى احتكار للحقيقة عندما قامت مجموعة من الناس تتحكم بالسلطة بحكم أسباب سياسية و اقتصادية وعرقية وغيرها من الأسباب ونجحت في دفع فكرة معينة و أعلنت عملياً و بنظام شبه اَمر بأنها الفكرة الصائبة الوحيدة, هذا أمر مؤسف و لكنه حقيقي, هذه هي الطريقة التي نعيش بها.

السبب الأخر لمثل هذا السلوك من قِبل المثقفين الأديغة هو الخوف والاعتبارات النفسية والنفعية ! في ظل ظروف المطلب الشعبي الواسع لفكرة الإبادة الجماعية المؤيدة بشكل غير مباشر من الأشخاص الأعلى مرتبة فإن الناس يخشون المجاهرة بآراء مخالفة- و ببساطة فهم يخشون السير ضد التيار. إن العلماء و المسؤولين الحكوميين يدركون بأن أولئك الذين سيجرؤون بالبوح بعدم وجود الإبادة (بغض النظر عن مدى جدية الإثباتات التي سيوردونها) فإنهم سيعتبرونهم أعداءاً للشعب وسيضغطون عليهم ببطء لإخراجهم و عزلهم عن المجتمع, في حين أن اولئك الذين سيتقدمون بهراءات وسخافات غير علمية و يدعمون كلامهم بإثباتات مقتبسة من الصحفيين المعاصرين فيتم التعامل معهم وتكريمهم كرجال وطنيين وكباحثين تقدميين و يدعمونهم في كل مكان, ومن يدري- فقد ينالون جائزة جمهورية الأديغية في إحدى المناسبات ! ضعوا أنفسكم في مكان الرجال المتوسطين العاديين, و لديهم هنا كما قال جليب زيغلوف: " حب بالإضافة إلى الاهتمام -"فقد ضغطوا و أزاحوا كل الموهوبين و الأذكياء و الباحثين , و يكفيهم للصعود إلى الأعلى أن يصرخوا بصوت عال بما فيه الكفاية عن الإبادة الجماعية,و لا داع مطلقاً لأي دلائل – مجرد الصراخ كاف لذلك, و ها هم يصرخون ! لقد كتبت سابقاً و ها أنا أكتب عن ذلك الآن مجدداً- بأن الحالة الراهنة للتاريخ والمؤرخين الأديغة , بالنسبة لهذه المسألة على الأقل هي في تدهور كامل, إن هذا المستنقع الزائف و المريح و الدافىء لا يخدم مصالح العلم بل مصالح الطبقة الحاكمة فقط. فأمام أنظارنا تقوم نخبة أخرى بقيادة الشعب إلى طريق تاريخي مسدود آخر. و نرى مجدداً "تطلعاً إلى تركيا" و "استنبات بذور النباتات" و " التحكم الآلي" خدمة للإمبريالية. إن ما يحدث الآن سيؤدي بالعلماء الأديغة لأن يخجلوا من أنفسهم بعد 10- 15 عاماً و يحاولون نسيانه,شخصياً ليس لدي أدنى شك بذلك.

و من أجل الموضوعية ينبغي القول بأنه ليس من العدل أن نفكر بأن موقف المثقفين هو فقط من يساعد على دفع قضية الإبادة الجماعية , فهناك قسم آخر, طبقة أخرى من النخبة الحديثة و التي تقف بعيداً عن مسألة الإبادة الجماعية و لكنها مع ذلك تستفيد بشكل كامل من المنافع التي توفرها وجود هذه المسألة في المجتمع.

السلطة- الطبقة الحاكمة المعاصرة في الجمهوريات الأديغية هي بلا شك جزء من النخبة الوطنية و لكن مواقفهم من مسألة الإبادة الجماعية مواقف خاصة و محددة تماماً. فخلافاً عن المثقفين القوميين فإن السلطة التي تملك الصلاحيات لا تدعو صراحة و لا تقف "مع" الاعتراف بالإبادة

الجماعية و لكنها لا تقف "ضد" ! كما يقول المثل الصيني حول النمور المتصارعة, أن السلطة تقف على الجبال و تتمتع بثمار هذه المعركة .و القضية الأساسية هنا أن السلطة عندهم تحصل على "السلطة" و المال من موسكو, و نتيجة لذلك فإن اتهام موسكو بالإبادة الجماعية الرهيبة ليس في متناول يدها, و لكن عليها كذلك أن تأخذ المزاج العام لشعبها بعين الاعتبار و أن تتابعه و تكون معه بشكل دوري,و على خلفية هذه التناقضات فإن على السلطة أن تكون بوجهين: فعند الضرورة ترفع شعار 450" عاماً مع روسيا و للأبد" و عندما يكون ضرورياً تحزن "لتدنيس الوطن الأم" وتتكلم عن الإبادة الجماعية.

إن هذا الموقف المزدوج الدوري يتشكل منه مواقف طريفة , مثلاً رئيس الاديغة أصلان تحاكوشنه يحتفل بمرور 450 عاماً على الانضمام الطوعي للأديغية إلى روسيا و بنفس الوقت ينال جائزة الدولة على الكتاب الذي يسمي فيه أؤلئك الذين انضم إليهم الأديغة "بشكل طوعي" "بالجزارين" و أؤلئك الذين انضموا "بالخونة ".

إن مجرد وجود مسألة الإبادة الجماعية و مسألة إمكانية و ربما المطالبة الحقيقية لروسيا لهو أمر مريح و مفيد جداً للسلطة, فجوهرياً تُعد السلطة تحديداً هي الطبقة الإجتماعية الوحيدة التي تحصل حالياً على منفعة حقيقية من وجود هذه المسألة , و في معظم الحالات فإن ذلك لا يفيد الأديغة – بل يفيد السلطة فقط.

الحقيقة أنه و على مدى 18 عاماً فإن السلطة الحالية في شمال القفقاس تُظهر نموذجاً اقتصادياً فاشلاً.إن الوضع الاقتصادي في الجمهوريات الأديغية الثلاثة ليس حرجاً و لكنه و منذ فترة طويلة قد دخل نطاق المرحلة الحرجة. إن مستوى الإعانات لكل الجمهوريات الثلاثة (و التي كانت خلال "لعنة" الحقبة السوفياتية في وضع مريح و إكتفاء ذاتي) يفوق الناحية الاقتصادية و يتجاوزها إلى بعض المعايير الأخلاقية والمعنوية. في السنوات الأخيرة تراوحت الإعانات الاقتصادية الفيدرالية لهذه المناطق ما بين 60- 80 % . دعونا نتأمل: إن الإعانات و الهبات المقدمة إلى الاقتصاد الشيشاني المدمر و الذي خاض اثنين من الحروب 86%, و إلى اقتصاد البلد الذي لم يخض حرباً والذي يقع في منطقة مناخية رائعة و هو قاراشاي تشيركيسك هو 80% ! و عملياً فإنه من بين كل 10 روبلات وردت إلى ميزانيات الجمهوريات الأديغية فإن ما بين 6- 8 روبلات منها هو هدية و صدقة من موسكو- من تلك الأموال التي كسبها الناس في منطقة ريازان و فولوغدي.

ماذا يفعلون مع المنظمات التجارية و مديرها و مخرجها الذي و خلال 15 عاماً يحقق كل هذا الفشل؟ هل يطردونه مع إثارة الضجة المطلوبة لذلك و يضعونه على القائمة السوداء ! مالذي يفعلونه مع السلطات الأديغية الحالية التي تتبادل الأدوار و تعاقب السلطة فيما بينها مرة تلو الأخرى؟ لا شيء ! و بطبيعة الحال لا ينبغي أن نعتقد بأن سبب "عدم نبذهم أو عدم المساس بهم" هو مسألة الإبادة الجماعية ! لا ! و لكن الإبادة الجماعية هي جزء من قصص الرعب التي يروج لها هؤلاء القادة في موسكو و يُقدمونها بهذا الشكل : "لدينا هنا- شعوب برَية ! سأسوي كل شيء ولكن أعطونا المال و لا تتدخلوا ! وعندها ستكون كل الأمور بخير, و في حال لم تعطونا المال فستبدأ أمور بالحدوث هنا ,ستدهشكم جداً" هذا هو التكتيك الطبيعي و هو نموذج للعديد من المسؤولين في السلطة,تأجيج الوضع تدريجياً و المحافظة على وضع شبه متوتر, دون أن تسمح

باشتعاله لدرجة كبيرة أو باخماده كلياً, بحيث تقف رسمياً على مسافة من مثيري الشغب كي تستطيع القول للكريملين: "سأسوي كل الأمور, أعطونا المال فقط و لا تتدخلوا !"هذه هي العادة وهي لا تحدث في القفقاس فقط , لنتذكر العبارة الشهيرة للسيد لوكاشينكو المشهود له بالمناورة السياسية ":كثير من الناس يقولون بأنه على بيلوروسيا الدخول ضمن تشكيل روسيا, حسناً و لكننا كقادة علينا حساب العواقب, فلنفترض بأنني اتخذت مثل هذا القرار , فماذا عن الغد؟ حيث يعيش معنا الأوتمروزكيين , و رغم أن تعدادهم ليس بالكثير و لا يشكلون سوى 2 %و لكنهم الأكثر نشاطاً, إنهم على استعداد لإشعال و نشر حرب التحرير الوطنية وهم بحاجة إلى ذريعة للقيام بذلك. ما رأيكم؟ هل تعتقدون بأنهم لا يملكون ما يحاربون به؟ سيجلبون لهم الأسلحة من أوكرانيا ودول البلطيق وبولونيا...".

بطبيعة الحال فمن الخطأ إلقاء كل اللوم على الأديغة! علاوة على أنهم بمثابة الضحايا في نواح كثيرة من هذه المسألة,فإن الجزء الأكبر من اللوم في اتساع رقعة مسألة الإبادة إلى هذا الحد إنما يقع على عاتق المركز الإتحادي. إن ذنبهم يكمن في عدم فهمهم للمشاكل الحقيقية للشركس في ظل غياب أي رد فعل على المدى الطويل و بتحريك عقارب الساعة الغير مسؤول من قِبلهم, و على قيامهم بالتخدير والتسفيه للشعب الصادق و الكادح لفترات طويلة, و على سكبهم السم الحلو في أذنيهم"الإبادة الجماعية", و سماحهم للشعب بتصديقها كواقع ,ذنبهم في معالجة واقع مشاكلهم و الاعتراف بها و حلها بهذه الطرق. إن هذا الاتهام ينطبق على مجموعة متنوعة من السلطات الاتحادية – من نائب رئيس الوزراء ديميتري كوزاك إلى وزارة التعليم و العلوم في روسيا الفيدرالية.

لماذا لم يهتم أي من المسؤولين في قطاع التعليم خلال 15 عاماً عندما كان تخدير الشعب يجري على قدم و ساق -بالكتب التي يتم تدريس التلاميذ فيها في الأديغية و الكاباردا و تشيركيسك؟ مالذي يقدم للطلاب في هذه الكتب, هل هو معقول و جيد أم يُقال فيها أن شعباً هو جلاد شعب اَخر؟ ما هي الأفكار التي يدرسونها هناك؟ هل الأفكار مثبة علمياً و تاريخياً أم "إبداعات" الصحفيين المعاصرين و التي تُلائم البعض منهم فقط؟ لماذا لم يطرح أحد من المدرسة العليا أو من معهد التاريخ الروسي التساؤلات التالية :" أين اختفت روح المناقشة و الجدال في الجامعات الشركسية, وفي المجتمع الأديغي بوجه عام؟ كيف حصل فجأة أن أصبح الجميع موافقون؟ لماذا لم يهتم أحد بجائزة الدولة للأديغية و الأموال التي تم الحصول عليها ليس من قِبل الشعب الأديغي بل من سكان ريازان و تامبوف و قُدمت على شكل هبة لرئيس الأديغيه على الكتاب الذي يتهم فيه أسلاف سكان ريازان وتامبوف و بشكل غير علمي وغير مثبت بأنهم جلادوا الشعب الأديغي؟ كيف يؤثر هذا على الوضع القومي في شمال القفقاس؟ ألا يفاقم هذا النزاعات العرقية؟

و لكن هذه الأسئلة تخص "من المذنب "و الأهم من ذلك بكثير هو " مالعمل؟"

مالعمل؟

أولاً: بالتأكيد لا يمكن الاعتراف بالإبادة الجماعية, على الأقل لأنها لم تكن!

ثانياً: ينبغي أن نفهم بوضوح بأنه لن يكون هناك أي اعتراف بالإبادة من قِبل البرلمان الأوروبي, إن هذا أمر مستحيل و هو أمر غير واقعي و ذهاب إلى عالم لا يوجد إلا في عقول أناس يُغذون عقول الأديغة عاماً وراء عام بعلكة فارغة جرداء. نعم لا بد من الاعتراف بأن عملية الاستعمار في كل بلدان العالم قد ترافقت بمعاناة كبيرة للشعوب المستعمرة و بانخفاض أعدادها و تغير أنماط معيشتها في الحياة, و لكن هذا قد حصل في العالم كله ! و إن كان لنا أن نتكلم عن الإبادة الجماعية فلا بد لبريطانيا و فرنسا و أمريكا و ألمانيا و بلجيكا و إسبانيا و إيطاليا و البرتغال و هولندا و تركيا أن تقف إلى جانب روسيا و يعلنون توبتهم عن المعاناة التي سببها أسلافهم. هل يمكن طرح المسألة بهذا الشكل؟ نعم ممكن ! و لكن أن نسحب روسيا من هذه القائمة لوحدها لأي سبب من الأسباب ونصلبها على الصليب و نعين البلدان الأخرى التي أظهرت خلال سياساتها الاستعمارية سياسة لا تقل وحشية كقضاة و محكمين,إن ذلك لخطأ فادح و لا يمكن السماح به.

و إنني على يقين من أن ناشطي الحركة من أجل الاعتراف بالإبادة قد بدؤوا بأنفسهم بوعي كل ملابسات هذه الفكرة, والدليل على هذا على الأقل هو أن طلب الاعتراف بالإبادة لا يزال يتسكع في البرلمان الأوروبي منذ ثلاثة سنوات دون أي جدوى, و يبدأ قادة الأديغة ببعض التنازلات ويتخلون عن طلب إعادة جميع أديغة الشتات إلى القفقاس كشكل من أشكال توبة روسيا عن جرائم الإبادة الجماعية و يكتفون بالطلب من روسيا أن تمنح الجواز الروسي لعدة ملايين منهم.

ثالثاً: من الخطأ الجسيم النظر إلى مسألة الإبادة الجماعية بمعزل عن الدور الذي لعبه الأديغة أنفسهم فيما يخص هذه المسألة, إنه دور كبير وضخم ! و هو يكمن في مشاركة الأديغة في العمليات الحربية سواء ضد الجيش الروسي أو إلى جانبه و في اتخاذه القرارات الطوعية التي أودت بقسم من شعبهم إلى مأزق تاريخي, و مرة أخرى يجب أن نضع في الاعتبار بأن هذه القرارات قد حصلت نتيجة عوامل طبيعية و تطورت بشكل مماثل كما حصل في مناطق وبلدان أخرى ,و لكنها قد حصلت.فهل من المنطقي الآن أن نقول "هذا أذكره, و ذاك لا أذكره " و نلقي اللوم على طرف واحد بسبب الاختلاف العرقي فقط؟

رابعاً: عند النظر إلى مسألة استعمار روسيا للقفقاس و نتائجها فمن غير المقبول التركيز حصراً على الجوانب السلبية فقط لهذه الظاهرة و إهمال الجوانب الإيجابية تماماً, و هي كثيرة جداً, و لا داع للخوض في التفاصيل, مثل الكتابة و الطرق المتقدمة للاقتصاد وغيرها, و لا يمكننا سوى أن نقول بأنه بعد وصول روسيا إلى القفقاس فإن المجتمع الأديغي قد قفز بمستوى تطوره الاجتماعي إلى 2- 3 درجات على الفور.و تحول في غضون 50- 100 عاماً من مجتمع إقطاعي و أحياناً قبلي منغلق إلى مجتمع يقف على عتبة الرأسمالية.

إن مثل هذه القفزات لا تمر بدون عواقب,فمن الصعب السير بخطوات واسعة جداً دون أن تمزق سروالك, ولكن الممارسة والتجربة التاريخية تبين بأنه ليس هنالك سوى ثلاثة طرق بالنسبة للشعوب المتخلفة عن متوسط المستوى العالمي للتنمية:

1- أن تقوم بهذه القفزة و تصبح قادرةً على المنافسة تاريخياً حتى لو كان هذا الطريق يمر عبر الألم والمعاناة.

2- أن تنغلق على ذاتها وعلى معتقداتها و تبقى متخلفة إلى الأبد وتعيش في عصور مضت,كما فعلت غالبية قبائل الهنود الحمر.

3- الطريقة الثالثة و التي اتبعتها الكثير و الكثير من الشعوب التي لم ترغب بالتغير و لم تعرف كيف توقف مسار رياح السيدة "التاريخ "فانقرضت.

لقد اختار الأديغة المسار الأول و هذا يدل عن حكمة و بعد نظر و لكنه لا يفسر لماذا يجب الآن محاكمة الشعب الذي دفع و ساعد الشراكسة في هذه القفزة, و ألا نأخذ من الماضي المشترك سوى الجوانب الأكثر سلبية فقط.

خامساً: و أخيراً لا أدري مالذي يجب أن يحدث و أية نجوم يجب أن تتلاقى في السماء من أجل أن تعترف روسيا أو غيرها بالإبادة الجماعية للأديغة, لا أعلم و لكن إن كان لنا أن نتصور أن ذلك قد حدث رغم كل شيء فإن الأمر لا يحتاج إلى ذكاء كبير كي ندرك بأن ذلك سيفتح سلسلة كاملة من مطالبات مماثلة, فتاريخنا بهذا الشكل بحيث سيقوم كل شعب تعرض يوماً ما لهزيمة كارثية و يستند إلى هذه التربة و يشعر بعمق الإهانة الوطنية. في حال تم الاعتراف بالإبادة الجماعية للشركس فستقوم شعوب أخرى صغيرة كانت أم كبيرة بالمطالبة بذات الشيء. يستطيع أهالي القرم والقازان وتتار سيبيريا بمطالبة روسيا, الروس بمطالبة تتار القرم, تتار قازان بمطالبة المنغول, شعوب سيبيريا بمطالبة روسيا, روسيا بمطالبة اليهود, اليهود بمطالبة الأوكرانيين و اللاتفيين, وهكذا. و قد تنضم بقية دول العالم ,كلها تقريباً, ستطالب ألمانيا, الصين ستطالب اليابان و المنغول ..الهندوس ستطالب الانكليز, الهنود الحمر سيطالبون الأمريكان, الزنوج سيطالبون الأوربيين و الأمريكان, الأوستراليون سيطالبون الأستراليين أنفسهم, و الكمبوديون سيطالبون الكمبوديين,الخ,الخ,الخ. هذا هراء و سخافة, لن يقوم أحد بفعل ذلك, سيكون جنوناً جماعياً وتدميراً ذاتياً,و في هذه الحالة لن يكون أياً من هذه المطالب موجهاً بشكل إيجابي , و لن يحل أية مشكلة, و لن يؤدي في نهاية المطاف إلى المعبد. لا يجوز السماح للموتى بالتشبث بأقدام الأحياء.

هذا كل شيء, هذه هي نهاية القصة ,هل يمكننا الاسترخاء؟ لا ! المفارقة تكمن في أن كل ما قيل لا علاقة له بالمشاكل الحقيقية للشعب الأديغي. و الإبادة الجماعية لا ترتبط بمشاكل الأديغة, و لعبة" الاعتراف- وعدم الاعتراف" لا تؤثر و لا بأي شكل في قراراتهم. و هذه نقطة هامة جداً ويجب فهمها ! بوعي هذا الأمر فإن الفكرة الأديغية القومية سوف تحقق أكبر مكسب لها في السنوات ال 15 الماضية- وهو فقدان الوهم.

- الوهم بأن مآسي الماضي ممكن تسخيرها لبناء مستقبل أكثر إشراقاً.
- الوهم بأن احتكار الحقيقة يعني مدخلاً لجلب النقود.
- الوهم بإمكانية إنشاء قومية قوية على ماض مزور و مفروض إدارياً.
- الوهم بإمكانية نسيان نصف التاريخ و البدء باستغلال و استثمار النصف الأخر منه.

إن فقدان الوهم أمر صعب دوماً و لكن بالقيام بذلك فإنك تكسب الوقت و تحصل على منظور يُخرجك في نهاية المطاف إلى المسار الصحيح. و خلال بحثهم عن هذا المسار فقد الأديغة 15 عاماً و هم يعيشون في أوهام لذيذة, 15 عاماً ! 15 عاماً في محاولة لإقناع أنفسهم باتخاذ شكل الحداد هذا و بأن هذا الشكل سيستدعي انتباه جميع من حولهم كي يقدموا لهم الهناءة,ستقوم روسيا بالاعتراف بكل شيء, و ستسمح بكل شيء ,ستُعيد جميع المهجرين و ستوحدهم, و سيترك الشتات كل شيء و يرمي خلفه كل شيء على الفور و سيعود إلى الوطن التاريخي لأجداده و سيعود الأديغة مجدداً كأكبر مجموعة عرقية في شمال القفقاس, 15 عاماً ! أين هي نتائج هذه السياسة؟

خلال ال 500 سنة الماضية كان الأديغة يعطون أجوبة و قرارات غير تقليدية و غير متوقعة للدعوات التقليدية العادية بالنسبة إلى الشعوب الأخرى, تلك القرارات التي لم تكن تظهر في مستوى المنطق الشكلي, كما حصل مع الخابزا, و مع 100 عاماً من الحرب , و مع الهجرة الطوعية -القسرية إلى تركيا.أردنا ذلك أم لا و لكن مثل هذه القرارات الغير منطقية قد أوصلت الأديغة إلى الوضع الراهن, و هذه الممارسة لا تزال مستمرة الآن. ما هو الشكل المقترح لحل المسألة الأهم بالنسبة للشراكسة – المسألة الديموغرافية- ضمن هذا الوضع؟

دعونا نلقي نظرة فاحصة على جملة الحلول المقترحة:

1- يجب على روسيا أن تعترف بالإبادة الجماعية.
2- على البرلمان الأوروبي أن يعترف بالإبادة الجماعية.
3- على روسيا تهيئة الظروف المناسبة لعودة أديغة الشتات إلى أرضهم التاريخية.
4- على روسيا إزالة جميع القيود المفروضة لعودة الأديغة الجماعية إلى القفقاس.
5- على روسيا أن تتكفل بما لا يقل عن مليون عائد أديغي و تأمين الوظائف لهم والمعاشات التقاعدية والمدارس والتأمين والرعاية الصحية,الخ.
6- على أديغة الشتات أن يتركوا كل شيء و يتركوا الأرض التي عاشوا فيها لخمسة أجيال و يعودوا.

هل كل ما قيل طبيعي؟ أليس هنالك شيء غريب؟ و مالذي ينبغي أن يفعله أديغة القفقاس أنفسهم؟ من الذي ينبغي أن يحل لهم مشاكلهم؟

هذا ما يسمى بالحل الغير منطقي ! في النظام التقليدي يتم حل و تنسيق مثل هذه القضايا برفع مستوى المعيشة , و تعزيز القيم العائلية , و تحفيز العائلات على ولادة العديد من الأطفال لزيادة النسل, و هكذا.

إن الحل المقترح من قِبل العقائديين الشراكسة يُظهر و كأن الشراكسة قد قاموا بتوزيع المهام وألزموا الغير على فعل شيء ما, في حين أنهم جلسوا جانباً و نفخوا شفاههم متخذين هيئة المهانين

كمن يقول "لقد تمت إبادة أسلافنا منذ 150 عاماً, أعيدوا لنا القرن التاسع عشر" و هم ينتظرون الآن تغير العالم من حولهم.

استطراد قصير, نتذكر النكتة السوفياتية القديمة؟ في اجتماع للكولخوز يُطرح السؤال الرئيسي- كيف يمكننا إزالة أكوام السماد الضخمة من المزرعة؟ يقف رئيس الكولخوز و يقول: "أيها الرفاق , لدينا خياران , خيار حقيقي و واقعي و آخر خيالي, الخيار الحقيقي أن يأتينا أناس من كوكب آخر ويقومون بعمل كل شيء, والخيار الخيالي, أن نقوم بفعل ذلك بأنفسنا". حسب هذه النكتة فإن القيادات الأديغية الحالية – واقعية جداً !

إنها ليست مسألة بسيطة, إنها مسألة ديموغرافية, و حلها يجب أن يكون في كل لحظة و أي مكان, مع الزوجة و مع الزوج و مع الأولاد بتعليمهم لغتهم الأم. كيف يمكن رفع المستوى الديموغرافي بواسطة الإبادة الجماعية؟ إن هذين المفهومين: الإبادة و الديموغرافيا لا يتفقان مع بعضهما البعض- إنهما مفهومان متعاكسان, و لكن الآيديولوجيين الأديغة المعاصرين يقترحون حل المشاكل تحديداً من خلال الإبادة الجماعية و عودة الشتات الأديغي.

إن الرجل الذي فكر و اخترع بأن مسألة الديموغرافيا يمكن حلها بعودة أديغة الشتات يجب أن يُقلد بأرفع الأوسمة و من ثم يجب أن يُعدم على الفور ! لأنه عبقري, عبقرية الشر ! إنه الشخص الذي تمكن عملياً من إلهاء شعب بأكمله و بشكل جميل و لذيذ, و بحل مدمر و مسدود لهذه المشكلة, مشتتاً و مبعداً الناس عن الحلول الحقيقية الواقعية.

عودة الشتات- إنه الوهم الأكبر الذي يواجهه الأديغة الآن, إنه خداع بصري جماعي ! كم هو أمر وهمي و مسدود أن تنتظر تجسيد هذا الأمر واقعياً الآن؟ كما كانت السعادة الكاملة بانتظارهم قبل 150 عاماً بعد هجرة الشعب إلى تركيا.

كثيراً ما يراودني سؤال لا أجد له جواباً- هل من المعقول أن هؤلاء الناس الذين يتحمسون ويعلقون الآمال على عودة أديغة الشتات, هل من المعقول أن كل هؤلاء الأساتذة و المرشحين لنيل أرفع الدرجات و أبطال العالم في المصارعات. أمن المعقول أنهم لم يحاولوا و لو لمرة واحدة تحليل تاريخ ومنطق الهجرات الجماعية للشعوب؟ على الأرجح أنهم لم يفعلوا ذلك. و لو فعلوا لشاهدوا على الفور أن كل الهجرات المماثلة لها منطقها الحديدي و قوانينها الخاصة. و أهمها يتلخص فيما يلي: لم يسبق أن حدثت هجرة جماعية في تاريخ البشرية تستند على أسباب عاطفية, و لن تكون هناك بنود تتحكم في التحركات الجماعية الكبرى على غرار "العودة إلى أرض الأجداد" , "إلى الوطن التاريخي" , " إلى الأرض المقدسة"..الخ . و حتى لو كانت الشعارات بهذا الشكل لكن الجوهر لا بد أن يستند إلى شروط و دوافع اقتصادية و سياسية.

إن ما يعلنه آيديولوجيو الحركات الأديغية و الذي يؤكدون على إمكانية حدوثه و يوجهون الأمة بأسرها صوبه- إنه حالة في حال حدوثها يجب تغيير كل الكتب, أي أنه ممكن الحدوث من الناحية النظرية ولكن في حال حدوثه يجب رمي جميع الكتب التاريخية و النفسية و جميع أنواع القوانين

والنظريات والقصص التي تخص الوعي الجماهيري والسيطرة على الجماهير والهجرات الكبيرة,الخ في سلة المهملات , حيث أنها جميعاً تدحض سير الحياة.

لا يمكن لأديغة الشتات العودة بأي عدد كان إلى القفقاس لمجرد دعوة وطنهم التاريخي لهم, وفقط من أجل حل المشكلة الديموغرافية لأديغة القفقاس. لا تحدث مثل هذه الأمور! عملياً فإنه و ضمن ظروف معينة يمكن لعودة شبه جماعية أن تحدث, و بالطبع لا علاقة لها بالعودة إلى الأرض التاريخية ,ولكن هذه الظروف تستحق أن يتم العمل عليها وهي:

أ- في حال كان مستوى التطور الاقتصادي للجمهوريات الشركسية و المستوى المعيشي للناس الذين يعيشون في هذه الجمهوريات بمستوى مرتفع بحيث يمكن لأديغة الشتات أن ينظروا إلى مسألة العودة إلى الوطن كعودة اقتصادية بهدف تحسين ظروفهم المعيشية.ما هي احتمالات حدوث ذلك في حال أن معدل الإعانات من الميزانية الإتحادية لتلك الجمهوريات يصل إلى 60- 70%؟

ما هي الاحتمالات في حال أن المنظمات الإجتماعية الأديغية حسب معلوماتي يتكلمون فقط عن الإبادة الجماعية وعن تشيركيسيا الموحدة, و لم يطرحوا و لا مرة, و أقولها بأحرف كبيرة(و لا مرة) لم يطرحوا أسئلة مثل: عما ينبغي فعله لتطوير اقتصاد الجمهوريات؟ كيف يمكن رفع إنتاجية العمل؟ تحسين مستوى معيشة الشعب؟ كيفيه الحد من معدل الإعانات المُخجل؟ كيف يمكن الحد من مستوى البطالة المدقع؟ إن ذلك ليس من اهتماماتهم ! إن أقصى قدر من الاهتمام الاقتصادي الذي رأيته بالنسبة للمنظمات الأديغية كان في سحب الأموال من الميزانية من أجل برامجها وأفكارها.

ب- في حال تدهور الوضع في تلك البلدان التي يقيم فيها أديغة الشتات إلى درجة يرون فيها أن العودة إلى القفقاس ستؤمن الأمان لهم و لعوائلهم, و هناك أمثلة غير قليلة عن ذلك , عودة أديغة كوسوفو, و مفاوضات شراكسة سوريا أثناء تصعيد الموقف مع إسرائيل... و لكن نتساءل مرة أخرى:
ما هي احتمالات ذلك؟ ما هي احتمالات حدوث أوضاع سيئة للغاية و كيف نُقيم الأوضاع السيئة في حال أنه و خلال "عاصفة الصحراء" لم يرغب أديغة العراق بالهروب إلى القفقاس احتماءاً من هذه العواصف؟

انتبهوا بأنني لا أضع ضمن قائمة الاحتمالات هذه التوجه الرئيسي للآيديولوجيين المعاصرين- وهو أن روسيا و تحت تأثير البرلمان الأوروبي و بعض الكيانات الأسطورية و المهجرية ستعترف فجأة بالإبادة الجماعية و بالتالي فإنها ستقوم بتوزيع الكعك على أديغة الشتات بهدف تشجيعهم للعودة إلى أرض الأجداد.

إنني أميل إلى الاعتقاد بأنه و اعتباراً من العام المقبل ستفقد فكرة العودة الجماعية لشراكسة الشتات جاذبيتها إلى حد كبير بين الأديغة, و السبب هو ذاته "اختبار الزمن" فإلى أي درجة ممكن إثبات عدم فعاليتهم و أوهامهم؟ هذا العام سيدق الجرس الثالث حول فكرة العودة, و كما في المسرح فإن الجرس الثالث يعني أن الوقت قد حان و انتهى. إن الجرسين الأول و الثاني كانا حول

إفلاس و بطلان و عدم جدوى هذه الفكرة و هو الوضع في أبخازيا و مسألة ما يسمى بأديغة "كوسوفو". الجرس الأول: لقد اعتمد الأبخاز المستقلين في منتصف 1990 برنامجاً لعودة أحفاد المهاجرين , و تأملوا عودة سريعة لما لا يقل عن 400 ألفاً من الأبخازيين. و بعد 15 عاماً فإن تعداد العائدين لا يتجاوز العشرات, و كما يقول الأبخاز أنفسهم فإن أكثر من نصف العائدين هم من الأتراك الذين لا علاقة لهم إطلاقاً بالأبخاز و قد حصلوا على الجنسية تحديداً بهدف تأمين إمكانية القيام بأعمالهم التجارية على أراضي أبخازيا.

الجرس الثاني : كان عند إعادة توطين "أديغة كوسوفو" الذين هربوا من الحرب والذين تم توطينهم على حساب الميزانية العامة , و من ثم غادر نصفهم الأديغية بعد أن أدركوا و رأوا المكان الذي قدموا اليه.

الجرس الثالث: يدق الآن و سيكون عنوانه – حصة المهاجرين أو العائدين.

الحقيقة أن مسألة الحصص بالنسبة للأشخاص الراغبين بالعودة من الخارج كانت دوماً واحدة من العقبات الكبيرة في مسألة العودة إلى الوطن. إن المركز الفيدرالي كان و بشكل تقليدي يكرس الحصص الصغيرة للأقاليم بسبب ارتفاع معدلات البطالة و الانهيار الاقتصادي الحاصل فيها بما في ذلك بعد وصول النخبة الشركسية إلى موقع السلطة, أخذ القادة الأديغة يؤكدون بأن نظام الحصص هذا مظهر من مظاهر السياسة الموجهة ضد الأديغة و ضد عودة الشراكسة , و بأن الآلاف منهم يرغبون بالعودة و لكنهم لا يتمكنون من ذلك بسبب نظام الحصص, و حدث كل شيء كما في المثل الإنكليزي "كن حذراً في أمانيك و رغباتك, فقد تتحقق" . في هذا العام (2009) تمت زيادة حصة "العودة" من 50 شخصاً إلى 1400 شخصاً مباشرة. و خلال الأشهر التسعة الأولى من العام كان عدد أديغة الشتات الذين سيعودون إلى القفقاس على مبدأ الحصص هذا.... 16 شخصاً .. كيف سيبرهن الايديولوجيون الأديغة الآن وجود آلاف الطوابير من الراغبين بالعودة إلى شمالي القفقاس؟ أنا شخصياً لا يمكنني أن أتصور ذلك.

و هناك عملية مماثلة و لكن بحالة مختلفة تنشأ من فكرة توحيد الجمهوريات الأديغية, و في هذه الحالة الأمور تبدو غير مفهومة , فخلال فترة من نشوء هذه الفكرة 3-4 سنوات لم يتواجد شخص واحد يستطيع توضيح ما تعنيه الفكرة و كيفية حدوث التوحيد؟ كيف؟ على أية حدود, لأية أهداف , و ما هي عواقبها؟ كيف سيُجرى الاستفتاء, كيف سيتم التصرف مع الذين لن يوافقوا على الفكرة؟ و على الأرجح أن عددهم سيكون كبيراً, مالذي سنفعله بالبلقار و القاراشاي, مالذي سنفعله بالروس؟ كيف سيكون تأثير ذلك على الاقتصاد..الخ..الخ... و لا شخص واحد و على مدى عدة سنوات ! في أيلول جرى مؤتمر الشباب الأديغي في تشيركيسك, و من قراراته و كلماته: التوحيد ! التآزر ! المعارضة ! التوجه إلى ! مناداة ! فليسقط ! دون كلمة واقعية واحدة.. و ليست هناك حاجة للتعليق على مثل هذه الكلمات المنفصلة تماماً عن الواقع, و لذلك فلنكمل.

15عاماً لم تعط خلالها هذه السياسة أي نتيجة ملموسة, كما لا نرى آفاقاً لها. و قد يكون هناك مخرجان لهذا الوضع :

1- إما أن تخفت هذه الطفرة السلبية للشعب في ظل غياب النتائج و أن تنحسر على المدى المتوسط.
2- أو أنه لا بد من تصحيح المسار والنهج و إيجاد توجه جديد للحركة.

إن المشكلة تكمن في أن الفكر السياسي الأديغي في الآونة الأخيرة ينوي ببساطة الإنضمام إلى شكل مضاعف لسياسة"الضربات الستالينية" دون المناقشة الجدية للخيارات البديلة لحل المشاكل التي تواجه الأديغة- ليس لديهم شيء يقترحونه , أي عندما نصل بالحقائق و بالواقع إلى هذا الشكل من فهم الوضع , و الذي يكون الجزءالأول من الثالوث: هو الاعتراف بالإبادة الجماعية – و هذا لا يمكن تنفيذه و لا يملك منظوراً عملياً , و الجزء الثاني: العودة الجماعية للشتات- و هو كذلك أمر غير واقعي و يقف على حافة الفشل عملياً, ليس من جهة تنفيذه فقط بل أصبح على حافة الفشل في الوعي الجماعي الأديغي, و الجزء الثالث: توحيد الجمهوريات الأديغية الثلاثة -و لسنوات طويلة فشلوا حتى في صياغة و لو طرح محدد مفهوم واحد من الممكن مناقشته حول هذا الموضوع, و ضمن هذا الوضع يبدو بأنه لا يوجد لدى المثقفين القوميين الأديغة أية خطة عمل أو خطة للخروج من مشاكلهم أو خطة للتطور المقبل.

تتضمن نظرية القيادة و التحكم قاعدة يقول نصها :"إن النظام لا يتميز بالخطأ الذي يرتكبه, بل بردة فعله على هذا الخطأ" كيف يمكننا أن نصف و نميز المجتمع الشركسي على ضوء هذه القاعدة؟ كنظام لم يصل بعد لفهم الأخطاء, مثلاً الوبيخ الذين هاجروا إلى تركيا, إن هذا لا يعطي تفسيراً حسناً حول نضج النخبة الأديغية, إنها تفتقر إلى المحللين و التي تكمن مهامهم بالنظر و دراسة جميع الخيارات و التوجهات الممكنة للحالة و شكل تطورها و تطور القادة القادرين على توجيه الشعب وقيادته لا على الإنقياد وراء الجماعة.

في حال كان هناك من يجرؤ على طرح سؤال حول أفق و منظور الخطة القومية الحالية و ما يجب القيام به في ظل الظروف التي تثبت فيها هذه الخطة عاماً بعد عام خمولها و فشلها, فإنه سيرى وجود طرق كثيرة أخرى لحل تلك التحديات التي تواجه الأديغة, و لفهم بأنه يمكن القيام بكل شيء قد خطط الأديغة القيام به, و لكن هنا تكمن مشكلة كبرى, تكاد تكون مستحيلة في ظل الوضع الراهن, حيث إن جميع الخيارات لا تشمل الدعاية و الاستنكارات و التلويح بالأعلام التي تحوي السهام, و لا لجذب الانتباه و القيام بالمقابلات و المشاركة في المؤتمرات و الاجتماعات , و كتابة نداءات صارخة و اتهامات و مقالات ,الخ, أي لا تشمل كل ما قام به قادة المجتمع الأديغي في السنوات ال 15 الماضية.

هذه الطرق لا تتضمن الاعتراف بالإبادة و لكنها تتضمن الإنعاش الاقتصادي, هذه الطرق لا تهدف بروكسل و موسكو, بل تتوجه إلى الأديغة و الروس و كل من يقطن القفقاس. هذه الطرق لا تعمل على مستوى البلدان و البرلمانات (على الرغم من ضرورة ذلك أيضاً) و لكن على مستوى العائلات والأطفال, إنها الخطط التي لا تؤدي إلى عزلة الشعب الأديغي و اتهام قومية أخرى بمصيرها القاسي, بل بالعكس هذه الخطط تنطوي على حركة مشتركة للأمام و إيجاد الطرق المشتركة و حل مشاكل الأديغة من خلال زخم حركة التقدم العامة.

إنه طريق صعب ,و لكنه بالتأكيد الطريق الذي يؤدي إلى نتائج ملموسة, و في حال رغب الشراكسة باختيار النتائج و أرادوا الوصول إلى النتائج و ليس الطريقة كما هو الوضع الآن فلا بديل لهم عن هذه الطرق.

من هذا المنطلق فإنه ينبغي على السلطة الروسية أن تولي اهتماماً لمشاكل الأديغة و تتخذ خطوات من شأنها أن تساعدهم كمواطني دولة روسيا ,سيشعرون بمزيد من الحماية و لن يحاولوا الاختباء خلف الورقة التي لم يكن لها وجود في التاريخ- ورقة الإبادة.

أولاً: بالطبع هو الاقتصاد, فإن الكثير من المشاكل سوف تُحل من تلقاء ذاتها حالما يصل اقتصاد المنطقة إلى وضع اقتصاد الأقاليم المجاورة مثل كراسنودارسكي و ستافروبلسكي (كما كان الحال في العهد "الملعون" عهد الاتحاد السوفياتي ..(الاقتصاد- إنه مسألة منفصلة وكبيرة و مؤلمة للغاية وهو ليس بموضوع مقالتنا هذه ..و إنني أزداد قناعة بأنه في ظل الظروف الحالية لا يمكن تغيير الحالة الوخيمة و كما تقول الرياضيات "وفقاً للمتغيرات الحالية فإنه لا يمكن حل المعادلة".

ثانياً: يجب أن تفصل بوعيها و بوضوح بين الشعب الأديغي و بين النخبة القومية السياسية المعاصرة و التي من غير الواضح من الذي انتخبها و من تُمثل. و ليست حقيقة أن ما يدعو إليه زعماء الجماعات القومية هو تعبير عن رغبات الشعب و التي يمثل هدف الجزء الأكبر منها ليس السعي بالاعتراف بالإبادة الجماعية بل السعي لمستوى معيشي لائق و لتعليم جيد لأطفالها و ضمان الحفاظ على الهوية القومية. إن محاولة مماثلة النخبة بالشعب أمر في غاية الخطورة لأنه قد يؤدي إلى بناء السياسة على أسس و معتقدات خاطئة. إن مماثلة مصالح النخبة مع مصالح الشعب أدت بالفعل إلى نهايات مأساوية للأديغة في الماضي و لا ينبغي أن تتكرر مجدداً.

ثالثاً: إن الكثير مما يقوله القادة يستحق اهتماماً جاداً, في وقتنا هذا ما يستحق الاهتمام هو العلاقة مع أديغة الشتات, فالموقف تجاه الشتات قد اختلف اختلافاً جذرياً الآن بين الأديغة و غير الأديغة- ففي حال كان الشراكسة يحلمون بعودة إخوتهم و أخواتهم الذين يعيشون خارج الوطن, فإن الروس و الأرمن و غيرهم من شعوب شمال القفقاس يخافون ذلك و ينظرون إليه كقصة من قصص الرعب, سيأتي مليونا شركسي وعندها سيبدأ كل شيء ! طبعاً الحالتان بعيدتان تماماً عن الواقع فالشيء الأهم الآن هو أمر آخر- فعلى الطرف الأول أن يتوقف عن التلويح بعصا الشتات وعلى الطرف الآخر أن يتوقف عن النظر إلى الشتات كعصا كبيرة, حيث لن يحدث "الآن سيأتون و سيبدأ كل شيء"- لن يحدث ذلك و هناك مليون سبب لعدم حدوثه ! أما أولئك الذين لا يزالون يحفرون بأصابعهم القذرة في المأساة الإنسانية و يدفعونها إلى المستوى الذي وصلت إليه اليوم- فهم إما أناس ضيقو الأفق أو غوغائيون و يسعون إلى أهدافهم الشخصية.

و على الأديغة و الروس أن يفهموا بأن العالم لم يُقسم بإسفين و الحمد لله كي يعود ملايين من أهل الشتات إلى القفقاس. و البشرية قامت بالكثير من الخيارات الناجحة لتعايش الشتات و على مدى

قرون مع الحفاظ على الهوية القومية, و إن توقفنا عن إغلاق أعيننا و عدم النظر سوى" للخطة ذات الثلاثة محاور" و نظرنا حولنا فإننا سنرى الكثير من التجارب المثيرة للاهتمام في تجارب الأرمن والصينيين.

إن وجود الشتات الأديغي الذي يبلغ تعداده عدة ملايين, و في حال كانت العلاقة معه صحيحة فإن ذلك ليس خطراً بل فرصة فريدة من نوعها ! فبغض النظر عن مسألة العودة و طرق حلها فلا بد لروسيا أن تعزز الروابط و تمتن العلاقات مع الشتات- ضرورة تمتين العلاقات مع أديغة روسيا (لأسباب مفهومة), و مع أديغة الشتات (لأسباب مفهومة أيضاً), و مع الروس جميعاً. إن التواصل مع الشتات سيؤدي و يجب أن يؤدي إلى دعم و الحفاظ على الهوية القومية للأمة الأديغية, وسيدعها تشعر بالأمان ضمن المحيط المتغير بوتيرة عالية جداً. إن وجود مجتمع شركسي قوي و مؤثر إلى حد ما في تركيا و في البلدان العربية – سيكون مفيداً للغاية لجميع الناس على جانبي الحدود, كما سيكون مفيداً لروسيا أيضاً و للدولة التي بإمكانها الحصول على شتات قومي آخر يشبه الشتات الأرمني الذي يدافع عن مصالحها.

وعوضاً عن الحفاظ على الإعانات المزمنة للنموذج الاقتصادي الفاشل في جمهوريات شمال القفقاس, فإن ما قلناه يستحق فعلاً إنفاق الأموال من قِبل السلطات الروسية. هل تتصورون مثلاً كم ستكون القناة التلفزيونية الأديغية الموحدة مفيدة لتطوير العلاقات مع الشتات ! و الحق يقال بأننا هنا أيضاً لا نستطيع الهروب من المسائل الاقتصادية و التي لا يمكن الهروب منها أبداً, و بالنسبة إلى الجبهة الاقتصادية فإن الجمهوريات الأديغية لا تزال تعاني من الخسائر المستمرة.

رابعاً : حان الوقت للتفكير بالهجرة الغير منضبطة للأرمن و الأكراد إلى المنطقة. إن هذه الكلمة غير صحيحية سياسياً و لكنها صحيحة بشكل عام . فعلى مدى السنوات الماضية انتقل أكثر من 1.5 مليون شخص من الأرمن و الأكراد إلى جنوب روسيا, و إن هشاشة التوازن الديموغرافي المتراكم على مدى عقود يتغير بسرعة. و بالفعل فإن سوتشي و أدلر أصبحتا تسميان مدناً أرمنية, و الشيء نفسه نستطيع أن نقوله فيما يخص سلسلة مدن أخرى قد تكون أقل شهرة, مثل: بيلوريجينسك . و في حال تعلم الروس و الأديغة التعايش مع بعضهم البعض بعد سنوات طويلة من العيش المشترك فإن هذا الأمر لا يتحقق مع الأكراد – ففي حال بدأ الأكراد بالاستيطان في قرية ما فان أهل القرية يبدؤون ببيع منازلهم بسرعة و يغادرون ,و بالتالي و خلال بضع سنوات أصبحت منطقة كراسنوغفارديسكي في الأديغي منطقة معظم سكانها من الأكراد, و أصبحت عدة قرى في هذه المنطقة- قرى كردية تماماً.

سواء أحببنا ذلك أم لا و لكن أحد أسباب إثارة موضوع الإبادة الجماعية وعودة الشتات الشركسي قد نجمت تماماً عن ذلك –عن التغير الحاد للوضع الديموغرافي في المنطقة . فالأديغة يخشون من أنه في القريب العاجل سيقوم القادمون الجدد بإملاء شروطهم و مطالبهم الخاصة على تلك الأراضي التي يعتبرونها لهم تاريخياً.

أفهم بأنهم سيبدؤون بإطلاق تسميات عليَ كمعاد للأرمن أو شوفيني..الخ.. ليس الأمر بهذا الشكل! إنني أحترم الأمة الأرمنية و الأرمن, و لكن الهجرة الغير منضبطة لم تؤد أبداً إلى نتائج جيدة. لننظر إلى "منارة الحرية و الليبرالية العالمية"- أمريكا , هناك يعرفون و بدقة عدد الناس الذين سيسمحون لهم بدخول أمريكا و من أية بلدان, و في بعض الولايات كتكساس مثلاً فإنهم لا يرحبون بالقادمين الجدد و قد يحققون معهم ! لماذا لا نعتمد هذه التجربة الأكثر ليبيرالية !

خامساً: أخيراً من الضروري التخلي عن نظرية 450 عاماً من "الدخول الطوعي" , إن هذا ليس مضحكاً و لم يعد أحد يصدقه. فلماذا القيام بأمور غير مفهومة و إغضاب الناس بالعبث الصريح الذي ليس له أي تفسير منطقي ,ذلك العبث الفظ الذي لم يوصل الناس إلى أي شيء إيجابي. في إسبانيا لا يقولون الشيء ذاته حول الانضمام الطوعي لأمريكا اللاتينية ؟ و لا يحدث أي شيء عندما لا يقولون ذلك ! علينا أن نكون صادقين مع أنفسنا – في حال أن ذلك لم يكن في الماضي – فإنه لم يكن ! و بالضبط من نفس هذا الموقف يجب أن نطبق الأمانة التاريخية بالنسبة إلى النظرية التي طالت معاناتها , و صدقوني إن قلت أنها النظرية الميتة "الإبادة الجماعية".

و أخيراً فإنه على منظماتنا العلمية و التعليمية أن تهتم بالطريقة و أسس النظريات التي يتم بها تدريس الشباب في مدارس و معاهد جمهوريات شمال القفقاس, أي كتب يجبرونهم على قراءتها , ما هو المكتوب فيها؟ هل هناك صيغ أخرى حول العلاقات بين الشعب الروسي و الأديغي في الماضي؟ كان عليهم منذ زمن طويل معرفة أين اختفى العلماء المؤرخون عن الجامعات الشمال قفقاسية الذين لا يتفقون مع نظرية الإبادة الجماعية؟ ربما يريدون عقد مؤتمر علمي لعموم روسيا تحت اسم أكاديمية العلوم الروسية عن إبادة الشركس في الحرب القفقاسية. و أظن أنه على وزارة الثقافة الروسية أن تهتم بمعروضات المتحف الجمهوري للأديغي الذي يقوم على الأموال الروسية؟ عن درجة موضوعية المعروضات و أي شعب يُقدم هناك في المعرض على أنه السبب الرئيسي لجميع المصائب التي لحقت بالشراكسة. و أعتقد أنه من المفيد للسيد فلاديمير أوستينوف مفوض الرئيس الروسي في المنطقة الفيدرالية الجنوبية أن يعرف لمن و لأية كتب تُمنح جائزة الدولة في الأديغي, و بأموال أية دولة تعطى الميزانية الاتحادية على شكل إعانات مالية و أية دولة تُتهم هناك على أنها" الجزَار" ستنتظرهم اكتشافات مذهلة !

من المهم جداً ألا يكونوا من أنصار نظرية الإبادة الجماعية الذين يجلسون في مكاتب عالية و يفرضون بطرق إدارية النظرية الملائمة –الوهمية على شعبهم ! إن ذلك أمر مهم للغاية ! إن هؤلاء الناس يعملون انطلاقاً من موقف ضعيف, و نحن لدينا وضع مختلف, ففي حال وُجدت وجهة نظر معينة ضمن المجتمع فلا يجوز حظرها. و لا يجوز إغلاق المعرض الذي يتكلم عن الإبادة الجماعية في متحف مايكوب , و لا يجوز سحب كتاب "إبادة الأديغة الجماعية" و كتاب "أرض الأديغة" من قائمة الكتب التي تُدرس في المدارس! بالعكس, يجب توسيع المعرض, و يجب إضافة كتب أخرى على قائمة الكتب والتي تتكلم عن بطلان و عدم وجود الإبادة الجماعية من وجهة النظر التاريخية ومن أية وجهة نظر أخرى. يجب تعليق الصورة الحقيقية إلى جانب

الصورة الزائفة ! و من ثم يجب أن نقول لشباب بلادنا ما يلي :" لقد أصبحت ناضجاً, أمامك نظريتان, قم بدراستهما و قرر بنفسك النظرية التي ستؤيدها".

وعندها ستغادر نظرية" الإبادة الجماعية التي لم يسبق لها نظير في التاريخ", سترحل بنفسها كنظرية الأرض التي تستريح على ظهر ثلاثة من الحيتان بعد مقارنتها مع الصور الملتقطة من الفضاء ..وعندها ستظهر لدى الأديغة حوافز جديدة , و سيظهر المحللون و سيأتي قادة جدد قادرون على تقييم الوضع بشكل صحيح و البحث عن طرق أخرى للحلول. هذه الطرق لن يكون لها أي شيء مشترك مع الاعتراف بالإبادة و لكنها ستمس و تثير المسائل الملحة بالنسبة إلى جميع شعوب القفقاس في الحفاظ الغير المشروط على الهوية القومية للأمة الأديغية.

وهذا سيكون صحيحاً, حيث أن اهتمامات و مصالح الأديغة في القرن 21 تتلاقى بموضوعية مع مصالح و اهتمامات روسيا,من المؤسف أنها لم تتلاق في القرن 19, و لكن لم نفقد كل شيء بعد. نحتاج إلى الإرادة السياسية فقط من كلا الطرفين, و إلى الحكمة و الحس السليم.

انتهى